المقالات الفلسطينية

محمد إلهامي

موجز قصة النكبة

تعد قصة إنشاء إسرائيل من أهم القصص التي يجب أن تدرسها الحركات الإسلامية وكافة الساعين إلى التغيير، كما ينبغي أن يتعلمها أبناء المدارس وأبناء جيل الصحوة، ذلك أنها نموذج لنجاح باهر في تأسيس دولة من العدم، ثم إنها ليست أي دولة بل هي الدولة التي ينعقد على وجودها وفنائها مصير العالم، إنها جوهر الصراع الحضاري العالمي، كما يقول د. جمال حمدان في "استراتيجية الاستعمار والتحرير".

تبدأ القصة حين نشر هرتزل كتابه "الدولة اليهودية" (1896م)، وكان في التاسعة والثلاثين من عمره، وقد تمتع بصبر وعزيمة وذكاء يثير الإعجاب وإن كرهنا، واستطاع أن يسوِّق للغرب حلا للمشكلة اليهودية المزمنة بأن يجعلوا منهم قاعدة استعمارية غربية متقدمة في الشرق. في العالم التالي كان هرتزل يحول كتابه إلى برنامج عمل في اجتماع بازل السويسرية (1897م)، ويناقش مسائل السياسة والأموال والكوادر البشرية.

لم يتوقف رغم فشله مع الدولة العثمانية والألمان، ولم يتوقف عمله رغم موته المبكر (1904) وهو في الرابعة والأربعين من عمره، فقد ورثه من لا يقل عنه كفاءة ودأبا وذكاءا: حاييم وايزمان، عالم الكيمياء سابقا، وزعيم الصهيونية الثاني والأهم على الإطلاق.

صرح رئيس الوزراء البريطاني كامبل (1907م) بضرورة إنشاء كيان غريب في منطقة شرق المتوسط وعلى مقربة من قناة السويس يكون مواليا للغرب، في تلك اللحظة التي اقتنع فيها ساسة بريطانيا بمشروع الدولة اليهودية كان وايزمان في فلسطين يبحث عن أراضٍ يمكن شراؤها، ويؤسس شركة "تطوير أراضي فلسطين".

لم يمض عامان على هذه اللحظة إلا وتأسست بذرة الجيش الصهيوني (1909م) كحرس لحماية المستوطنات اليهودية، بعدها بعامين آخرين (1911م) رفع اليهود مطلب الاعتراف باللغة العبرية لغة رسمية.

وصل الاختراق الصهيوني إلى درجة وزير في الحكومة البريطانية، ذلك هو هربرت صموئيل المؤسس الحقيقي لإسرائيل، وكان من الذكاء والفهم بحيث رفع مذكرة للحكومة (1915م) يقول فيها بأن الوقت غير مناسب لإنشاء وطن يهودي في فلسطين، ولا بد من احتلال بريطاني يمهد الأوضاع ويهيئ الأرض لهذا المشروع!

وبالفعل، انتهت الحرب العالمية الأولى، واحتلت بريطانيا فلسطين (1917م)، ودخل الجيش البريطاني القدس وضمن صفوفه أول ميليشيا يهودية مدربة على يد الإنجليز، وساعتها زار حاييم وايزمان القدس، لا باعتباره مستثمرا كما في أول مرة، بل باعتباره زعيم المشروع الذي يجري تأسيسه.

لم يكن المشروع ليتم لولا غفلة العرب وسذاجة وخيانة حكامهم، فقد أغرى الإنجليز فيصل بن الشريف حسين ليوافق على قيام دولة يهودية في فلسطين، وقد وافق "الثائر" الذي كان يرجو مساعدة بريطانيا في حركة استقلال العرب عن العثمانيين وتنصيب أبيه خليفة (1919م)!

منذ نزلت الحركة الصهونية إلى فلسطين في ظل الاحتلال البريطاني أنشأت نواة جهازها الاستخباري (1919م) ليجمع المعلومات المفصلة ويرسم خريطة واضحة عن: مدى القبول الشعبي بالمشروع الصهيوني، خريطة الأراضي الفارغة، خريطة السكان، الأراضي التي يسهل شراؤها، السكان الذين يُتوقع منهم المقاومة. فصار لها الآن: جهاز أمني، وجهاز عسكري.. وبقي الجهاز السياسي!

حينئذ نصبت بريطانيا الصهيوني هربرت صموئيل حاكما بريطانيا على فلسطين (1920م) لينفذ بنفسه ما كان قد اقترحه قبل خمس سنوات من تهيئة الأرض عبر البريطانيين للإنشاء الدولة اليهودية، وقد فعل هربرت صموئيل ما يجعله مؤسس إسرائيل الحقيقي؛ ذلك أنه بخلاف تدفق الهجرة اليهودية: سَمَحَ لليهود بالتسلح وبناء جيش منفصل، وسمح لهم بنظام تعليمي منفصل، وأقرَّ العبرية كلغة رسمية، واستولى لنفسه على كل الأراضي المشاع وما يؤول إلى الحاكم ثم منحه اليهود بخلاف مائة قانون أصدرها تسهل تسريب الأراضي لليهود.

وبينما هربرت صموئيل يقيم الدولة اليهودية في فلسطين، يعمل حاييم وايزمان على مستوى السياسة، مستعينا بآل روتشيلد على مستوى الاقتصاد والتمويل، وهكذا جرى توزيع الأدوار والتغطي بالقوة البريطانية العظمى في وقتها.

بعد خمس سنوات (1925م) تضاعف عدد اليهود، ومستوطناتهم، وبدأت تظهر مؤسساتهم وأجهزتهم الإدارية المنفصلة: استقلال ذاتي لتل أبيب، نقابة عمال بزعامة بن جوريون، احتفال مهيب بإنشاء الجامعة العبرية حضره: لويد جورج (رئيس الوزراء البريطاني) وألنبي (الحاكم العسكري البريطاني) وبلفور، وتشرشل، وحاييم وايزمان، وهربرت صموئيل.

تجدر الإشارة إلى أن اليهود استعملوا النداء الديني والخطاب التوراتي بشكل أساسي، بما في ذلك العلماني منهم، وقد بُذِلت مجهودات عظيمة في إعادة بعث واستعمال اللغة العبرية الميتة لتكون لغة الدولة الجديدة، وبهذا حافظ اليهود على مدد دائم وألهبوا طاقات كامنة وخاطبوا جماهير اليهود حول العالم بما يستثير إمكاناتهم.

في كل انتفاضة شعبية كان السلاح البريطاني يتحرك بعنف لإخماد كل مقاومة، واستعملت أسلحة القتل والاغتيال والاعتقالات والنفي والمحاكمات، مع ما يساند هذا من عمل استخباري، وما يغطي هذا كله من عمل سياسي يثير الفرقة بين الزعامات الفلسطينية ويرصد تدابيرها لإجهاضها.

عند العام (1935م) كانت مصانع الصهيونية تصدر الألماس والأقطان إلى خارج فلسطين، وهو ذات العام الذي استشار فيه عز الدين القسام القيادات الفلسطينية في إشعال ثورة على الإنجليز فكان ردهم أن الشعب لم يتهيأ بعد والوقت غير مناسب وما يزال الأمل قائما في الوصول إلى الحقوق من خلال المحاورة والمفاوضة مع الإنجليز. إلا أن القسام أشعل ثورة وكان هو من شهدائها، وشهدت فلسطين عام (1936) أطول إضراب في تاريخها إذ استمر لستة أشهر ثم انتهى بعد تدخل "الحكام العرب" بالنصيحة والتوصية بوقف الإضراب مع الوعد بالتفاهم مع الإنجليز.

في ذلك الوقت كان الوجود الصهيوني قد صار مستقلا عمليا عن الإنجليز ويملك قراره المستقل، وكان الجهاز الأمني الإسرائيلي قد تطور ليصير له جهاز تنصت في مكتب الحاج أمين الحسيني، وهو بمثابة القائد السياسي للثورة الفلسطينية، فكانت تحركات المقاومة الفلسطينية مكشوفة

للصهاينة، وقوبلت الثورة الفلسطينية المشتعلة بكافة أنواع القمع الإنجليزي، وكانت الطريقة المتبعة هي: قتل القادة الميدانيين، فصل القادة السياسيين عما يجري بالأرض من خلال النفي أو تسهيل الهروب من فلسطين، وتجريد الناس من كل أنواع السلاح، فمن وجد في بيته ولو بقية رصاصة فارغة نسفوا بيته. وألقت بريطانيا بثقلها لإنهاء الثورة التي استمرت لثلاث سنوات فدفعت بعشرين ألفا من قواتها تحت قيادة أربعة جنرالات كبار ممن شاركوا في الحرب العالمية الأولى.

في المقابل كان اليهود يزيدون عددا بالهجرة، وعتادا بالإمداد الإنجليزي، وخبرة بالتدريب العسكري، وبلغوا من الفعالية حدَّ أن أسسوا لمنظمات "إسلامية" و"وطنية" تشاغب على المنظمات الإسلامية الوطنية الحقيقية وتثير الفرقة والأزمة، وكان الجهاز الأمني قد تكونت لديه صورة واضحة عن أفراد المنظمات الإسلامية في فلسطين، من منهم يسهل التعامل معه، ومن الذي يمكن شراؤه بالمال، ومن الذي لا حل إلا بالتخلص منه.

في أثناء الثورة شكلت بريطانيا لجنة لدراسة الوضع، كعادتها في تشكيل اللجان بُغية تبريد المقاومة ومطّ فترة المفاوضة لشراء الوقت وقمع الثائرين، وبالرغم من كل ما صنعه اليهود من هجرة وتواجد إلا أن مساحة ما يملكون من الأرض فعليا لم تزد على خمسة بالمائة، تتركز في شمال فلسطين، لكن اللجنة انتهت إلى اقتراح تقسيم الأرض بين العرب واليهود، ومنحت اليهود ثلث فلسطين الشمالي، ومنحت العرب ثلثي فلسطين الجنوبي، وجعلت المنطقة الواصلة بين القدس وحيفا مستعمرة بريطانية!! فكان ذلك مكسبا جديدا لليهود أخذوه بقوة السياسة البريطانية إلا أنهم –وكعادتهم- لم يتوقفوا عنده.

أسفرت سنوات الثورة الثلاث (1936 – 1939) عن استشهاد خمسة آلاف فلسطيني، وجرح أربعة عشر ألفا، بخلاف من اعتقلوا أو من طُردوا أو من اضطروا للهرب، وبهذا تمت تصفية الجيل الذي يمكنه التصدي للعصابات الصهيونية بعد عشر سنوات. أي أن الواقع العملي هو أن النكبة وقعت بإخماد الثورة الفلسطينية في نهاية الثلاثينيات.

وفي نهاية الثلاثينات وقعت أحداث درامية، فباشتعال الحرب العالمية الثانية انضم خمسة عشر ألف يهودي إلى صفوف الحلفاء، فتحصل لهم من الخبرة والتدريب واستعمال السلاح ومعرفة العلوم

العسكرية ما لم يكن متحصلا للفلسطينيين بحال، عندئذ تحولت "الهاجانا" إلى جيش حقيقي، يملك مجموعة من الطائرات. وفي تلك الفترة وبالتوازي مع هذا المجهود العسكري كان المجهود الأمني الاستخباري يعمل على إتماما ملف "القرى" التي يستكمل فيها معلومات واضحة وتفصيلية عن كل قرية فلسطينية من حيث: نوعية الأرض، الحالة الاقتصادية للسكان، الميول السياسية، مدى سهولة أو صعوبة احتلال هذه القرية.

وللحديث بقية، في المقال القادم بإذن الله تعالى.

نشر في المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية

موجز قصة النكبة (2)

بدأت القصة منذ 1896م، وتوقفنا في المقال السابق عند نهاية الحرب العالمية الثانية، حينئذ كانت الصورة في فلسطين بائسة على كل المستويات:

- فعلى المستوى الدولي: انتصر الحلفاء على دول المحور الذين تعلقت بهم الآمال العربية والفلسطينية، مما جعل مشروع الدولة الصهيونية سائرا بلا أي عرقلة سياسية، وقد قرأت الصهيونية الموقف سريعا فنقلت ثقل نشاطها واعتمادها من بريطانيا إلى أمريكا (1942م).

- وعلى المستوى الداخلي كانت الصهيونية ترسخ وجودها على الأرض بمستوى متصاعد، فقد تحولت عصابات الهاجاناه إلى جيش حقيقي بما تحصل لها من خبرة وعلوم عسكرية وأسلحة وعتاد من مشاركتها في الحرب العالمية الثانية إلى جوار بريطانيا، وكان الجهاز الأمني الصهيوني يتمّ خطته التفصيلية عن القرى الفلسطينية فيجمع عن كل قرية: نوعية الأرض والسكان والحالة الاقتصادية والاتجاهات السياسية ومدى سهولة أو صعوبة احتلال القرية، ويستزيد من صناعة العملاء ومراقبة المجتمع الفلسطيني وما بقي من مراكز تأثيره، وقد صارت له مؤسسات "إسلامية وطنية" لتشاغب على المؤسسات الحقيقية وتثير أزمات الفرقة بينها وصرف الناس عنها.

- وأما على المستوى الفلسطيني فقد كانت الحالة سيئة، فلم يزل المجتمع الفلسطيني يعاني من ضرب جيل المقاومة الذي استمرت ثورته بين (1936 – 1939م)، والتي أسفرت عن قتل خمسة آلاف فلسطينية وجرح أربعة عشر ألفا، وما صحب ذلك كله من تجريد السلاح وهدم البيوت، ومقتل القادة، ووجود القيادات السياسية بالخارج منقطعين عن أوضاع الداخل، مع التمزق العربي ووقوع بلدانه تحت الاحتلال.

كررت الصهيوينة الخطة القديمة، وضعت نفسها في خدمة القوة الدولية لتبلغ أهدافها، لكنها نقلت نشاطها من بريطانيا إلى أمريكا مع تغير موازين القوى فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت أمريكا حينئذ ترث الوجود الإنجليزي والفرنسي في الشرق، فكانت الصهيونية هي ذراعها لإخراج الإنجليز من فلسطين، فانقلب الصهاينة على الإنجليز، وطالب مؤتمر الحركة الصهيونية الذي عقد

في أطلنطا بأمريكا (1944م) بضرورة خروج الإنجليز من فلسطين وتوفير حماية دولية لليهود، ثم أشعل الصهاينة حرب عصابات ضد الجيش البريطاني نفسه، وقاموا بعدة عمليات تفجير واغتيال وخطف مؤثرة، حتى بلغ القتلى في صفوف البريطانيين 169 بين عامي (1946، 1947)، وعند نهاية سنوات الانتداب كانت العصابات الصهيونية قد نفذت خمسمائة عملية ضد الإنجليز، وكم كان مثيرا مشهد تشرشل –الذي كان أول من درب العصابات اليهودية قديما- وهو يعلن مرارته ويحذر وينذر في الأمم المتحدة، ولكنه التحذير الذي يعرف الجميع أنه أجوف!

وبرغم كل هذا تكاد بريطانيا أن تكون التزمت الصمت ولم ترد بشيء على الصهاينة، فقد صارت الصهيونية في الحماية الأمريكية، كما أن كثيرا من عناصر الشرطة والجيش الإنجليزي في فلسطين هم من اليهود والصهاينة أنفسهم. وذلك في نفس التوقيت الذي كانت تعتقل فيه الفلسطينيين لمجرد حيازة السلاح، حتى بلغ عدد المعتقلين (300) في النصف الأول من عام (1946م).

وعلى الجانب السياسي العالمي كانت الصهيونية تمول حملة الرئيس الأمريكي ترومان والذي كافأهم بعد فوزه بالموافقة على هجرة مائة ألف يهودي إلى فلسطين. كما كانت الصهيونية في أمريكا تجمع من اليهود تمويلا لإنشاء صناعات عسكرية في إسرائيل، وبهذا صارت عصابات الهاجاناه تصنع بعض أسلحتها بنفسها مما قوى مركزها الفعلي حتى ضد البريطانيين الذين اضطروا لإعلان مغادرتهم فلسطين بعد سنتين أي في عام (1948م).

بدأت عملية وراثة فلسطين من الإنجليز، اشترى اليهود من أسلحة الإنجليز بالمال ما لم يأخذوه بغير طريق الدعم، فكانت لديهم 24 طائرة اشتروها بخمسة ملايين جنيه، وعند بداية 1948 كانت الوكالة اليهودية تسيطر فعليا إداريا وعسكريا، ولديها جيش مقاتل يتكون من: عصابات الهاجاناه (35 ألفا) وعشرة آلاف مقاتل من الوحدات الخاصة، وتنظيمات عصابات الإرجون واشتيرن. وعملت هذه العصابات على تنفيذ خطة التهجير للفلسطينيين، فتنوعت عملياتهم بين الهجوم العسكري على القرى وتهجيرها، أو تفجير الأسواق والمحال، أو نصب الكمائن على الطرقات وقتل الفلسطينيين، أو تنفيذ عمليات خاصة قامت بها وحدات المستعربين التي ظهرت في تلك الفترة.

في اجتماع بتاريخ (10 مارس 1948م) لقيادة الهاجاناه، أي قبل نهاية الانتداب البريطاني بشهرين، أتموا الخطة التفصيلية للتعامل مع كل قرية فلسطينية يراد تهجيرها، وكانت الخطة تعتمد على الرعب أكثر من اعتمادها على التفوق العسكري، فلا بد من مذبحة أو ضربة هائلة تسفر عن خروج السكان من هولها قبل أن ينخرطوا في اشتباك أو مقاومة، وإذا وقع بعضهم في الأسر كانوا يقتلون بعضهم قبل نقلهم إلى معتقلات مركزية لتحقيق هدف الرعب وشل محاولة المقاومة، وإذا حوصرت القرية فهي تُحاصر من ثلاث جهات وتُقصف بغزارة ليهرب أهلها من الجهة الرابعة. وكانت خطة التهجير تبدأ من ساحل المتوسط وتمتد شرقا لكي يظل اتصال الدولة اللقيطة بالبحر، فكان أول المهجرين أهالي القرى والمدن الشمالية والغربية من فلسطين، ويقدر عدد المهجرين بثلاثمائة وخمسين ألف فلسطيني!

لقد أبدى الفلسطينيون مقاومة باسلة، لكنها مقاومة متبعثرة ومشتتة، تعاني من الفارق الضخم في القوة والتسلح، وتعاني من ضعف الكوادر الناتج عن سحق جيل الثورة قبل عشر سنوات، وتعاني من التواطأ العالمي لا سيما البريطاني، وتعاني من الخيانة العربية التي يحكم عواصمها عملاء يساعدون في قتلهم وإبادتهم، ولا تزال رسالة عبد القادر الحسيني إلى جامعة الدول العربية تختصر هذا المشهد "إني أحملكم المسؤولية بعد أ، تركتم جنودي في أوج انتصاراتهم بدون عون أو سلاح"، واستشهد بعد رسالته بثلاثة أيام (9 إبريل 1948م)، وبينما يشيع الناس جنازته، كانت قرية دير ياسين تتعرض للمذبحة.

عند يوم 14 مايو 1948م، غادر الحاكم البريطاني فلسطين، ونزلها بن جوريون، وأعلن "استقلال" دولة إسرائيل، وخلفه كانت تنتصب صورة كبيرة للمنظر المؤسس: تيودور هرتزل، الذي بذر البذرة ومات بعد ثمان سنوات، ثم تحقق حلمه بعد موته بأربعين سنة!

ومن هنا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ فلسطين والعرب والمسلمين بل والعالم!

عندئذ سمحت بريطانيا بدخول القوات العربية الهزيلة عددا وسلاحا إلى فلسطين، كانت الجيوش السبعة لا تزيد عن 24 ألفا، وهم أقل من ثلث القوة العسكرية الصهيونية، إضافة إلى فارق التسلح والخبرة والتدريب، دخلت الجيوش العربية بشعار "تحرير فلسطين" ليرتسم بدخولها الجانب الآخر من المهزلة، فبالإضافة إلى هزالها عددا وعدة وخبرة فإنها تخضع لتوجيه أنظمة تخضع للاحتلال،

وبقيادة إنجليزية (جلوب باشا قائد الجيش الأردني، ومساعدوه إنجليز)، فإما أنها جيوش لم تحارب، وإما أنها كانت تدخل إلى القرى لتجردها من السلاح ثم تنسحب في المعركة أمام القوة الصهيونية فتغدو القرية بلا سلاح، ثم يأتي الصهاينة فينفذون مذبحة جديدة تثير الرعب والفزع وتنتج موجة جديدة من الهجرة، وقد نفذ الصهاينة مذابح في اللد والرملة في ظل وجود الجيوش العربية ولم يحرك أحد منهم ساكنا، وفوق ذلك فإن سائر ما استطاع أن ينجزه المجاهدون المتطوعون تدخلت الأنظمة العربية نفسها لإيقافه وإنهائه إما بإصدار أوامر انسحاب أو بتعديلات الخطة أو بإيقاف التقدم أو حتى بسجن المجاهدين!

وهكذا سقطت فلسطين! ولم يكن نصيب العملاء في سقوطها بأقل من نصيب الصهاينة أو المحتلين!

لئن كان هرتزل هو صاحب الفكرة والبذرة الأولى، فيجب ألا ينسينا هذا جهود من تلاه، لا سيما هذا الثلاثي الخطير: حاييم وايزمان، هربرت صموئيل، بن جوريون!

لقد عمل هؤلاء الثلاثة على تطويع كافة الظروف الدولية والداخلية لخدمة خلق الدولة الصهيونية، وعملوا في نفس الوقت على ألا تكون إسرائيل مرتبطة ارتباطا كاملا بالمزاج السياسي الغربي، بل أسسوا للاستقلال اليهودي العسكري والاقتصادي والأمني، فتكون قوتهم الذاتية طرفا في معادلة السياسة، وبرغم ما يبثه هؤلاء من تحريض شعبي وديني لليهود فإنهم عملوا على خلق الظروف المواتية للدولة قبل نشوئها أو إعلانها، فلما جاءت لحظة الإعلان كانت إسرائيل أمرا واقعا!

ولئن كان هؤلاء يستحقون أن توضع أسماؤهم في سجل شرف الصهاينة، فيجب ألا ننسى أبدا أن آخرين يستحقون أن توضع أسماؤهم في سجل العار من دفتر العرب!

نشر في المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية

مُعَكِّر صَفْوِ الأُنْس في سيرة سَلْب القُدْس

حذر قادة العرب جميعا من تداعيات قرار ترامب على السلام والاستقرار في المنطقة. في الحقيقة لم يكن تحذيرهم هذا فارغا، إنما كان تحذيرا جادا، فهم يخافون من أن يؤدي القرار إلى هبة شعبية ضدهم تقلقل استقرار عروشهم. وهم يعرفون كما يعرف ترامب ونتنياهو أن عروشهم هي التي تحفظ أمن واستقرار إسرائيل. فهم على الحقيقة يقدمون نصيحة مخلص مشفق بأن تلك القرارات قد تكون من الرعونة بحيث تهدد منظومة الحراسة التي تسهر على حماية إسرائيل.

يعرف ترامب ونتنياهو هذا لكن حسبة الأمور لديهم تفيد أنهم في لحظة يمكنهم معها اتخاذ مثل هذا القرار دون كبير خوف، فما جرى في السنوات الماضية من قمع الثورات وتثبيت الأنظمة الخيانية يجعل الثمرة قريبة وممكنة، كيف لا وقد صار رئيس مصر "البطل القومي لليهود" كما وصفته الصحافة الإسرائيلية، وكيف لا وقد كتب سعودي من بلاد الحرمين "لك العتبى يا نتنياهو حتى ترضى" ضمن طوفان التطبيع المحموم الذي يجتاح أرض الحرمين؟!

هو فصل جديد في مسلسل قديم..

بدأ المسلسل مع نهاية الحروب الصليبية، حيث اكتشف الصليبيون منذ الحملة الخامسة أن احتلال بيت المقدس يبدأ باحتلال القاهرة، فلقد اكتشفوا أن مصر قادرة دائما على إمداد الشام بالمال والرجال، ومنذ اتحدت مصر والشام على يد نور الدين صارت مسألة تحرير بيت المقدس مسألة وقت. وبالفعل: نزلت الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر فهُزِمت، ودخلت الحملة السادسة إلى القدس باتفاقية خيانية مع سلطان مصر الكامل الأيوبي (تشبه كامب ديفيد وأوسلو الآن) وتكسرت الحملة السابعة في مصر أيضا. ثم انطلقت من مصر جيوش المماليك حتى طهرت الساحل الشامي من كل الوجود الصليبي، ثم طاردت فلول الصليبيين في قبرص ورودس.

عندئذ كلفت الكنيسة المؤرخ الإيطالي مارينو ساوندو تورسيللو ليؤرخ للحملات الصليبية، فكتب في نهاية تأخيره وصية لمن سيحاول غزو الشرق مرة أخرى خلاصتها: أن يبدأ بمصر أولا، وهي النصيحة التي استمعت لها أوروبا فكانت موجتها الثانية من الحملات الصليبية تبدأ بمصر ثم تتوغل إلى بيت المقدس، هكذا فعل نابليون في الحملة الفرنسية، وهكذا فعل الإنجليز من بعده[1]..

وبعد خمس وثلاثين سنة من احتلال القاهرة دخل الإنجليز إلى بيت المقدس، ثم بعد ثلاثين عاما أخرى سلموها إلى إسرائيل.

فهم التاريخ هو مفتاح فهمنا للحاضر وطريق بحثنا عن الحل في المستقبل، والتاريخ يقول بأن احتلال بيت المقدس لم ينجح إلا باحتلال العواصم المحيطة به أولا، كما أن تحريره لم يكن إلا بتحرير العواصم المحيطة به كذلك، لقد فتح المسلمون دمشق قبل فتح بيت المقدس، ولولا الخيانة العبيدية (الفاطمية) في القاهرة ما أمكن للصليبيين احتلال بيت المقدس، ثم لولا تحرير دمشق ثم القاهرة وتحريرهما من أمراء الخيانة ما تم لصلاح الدين تحرير بيت المقدس، ولم يُحرر الساحل الشامي إلا لما كانت القاهرة مستقلة متحررة تحت حكم المماليك العظام، ثم لم تسقط القدس مرة أخرى إلا بعد احتلال القاهرة ودمشق وانهيار الدولة العثمانية.

ولقد كانت فطرة الشعوب أنقى من عقول النخبة والمثقفين، ففي ميادين الثورات العربية ارتفعت أعلام فلسطين، وبات الجميع يدرك أن نجاح الثورات يساوي قرب تحرر بيت المقدس، وهي تلك اللحظات التي فزع فيها الإسرائيليون لسقوط كنزهم الاستراتيجي، وما إن اهتز كرسي بشار حتى صاح رامي مخلوف بأن سقوط النظام في سوريا يمثل تهديدا لأمن إسرائيل. جميع أولئك الحكام يعرف أن مهمته حماية إسرائيل، وهو عند الخطر يساوم بها ويهتف في توسل وتهديد: لن تجدوا أفضل مني في القيام بالمهمة.

من هنا ترى حكام العرب يحذرون من تداعيات قرار ترامب، ولأنهم في وجه المدفع فهم أكثر فزعا ورعبا، بينما السيد الكبير في البيت الأبيض يختبر بهذه القرارات مدى نفعهم وفائدة الاستثمار فيهم..

تروي جولدا مائير في مذكراتها أن مبعوثا خاصا بين الإسرائيليين وبين عبد الناصر عرض على عبد الناصر زيارة إسرائيل، فقال عبارته الكاشفة والتي تعبر عن حقيقة مواقف الحكام العرب المصنوعين على أعين الاستعمار: "لو أن بن جوريون جاء إلى القاهرة للتحدث معي فسوف يعود بطلا، أما إذا ذهبت إليه أنا فسوف أُقْتَل عند عودتي". ثم استمرت جولدا مائير في رواية اللقاءات السرية مع الملك عبد الله ملك الأردن الحليف الوثيق الذي تعهد لهم بشرف مثلث أن يكون نصيرا لهم، لا سيما وأن لديهم عدوا مشتركا هو "أمين الحسيني"[2]!!

لن تهتز ثقتي بالأمة قيد شعرة لو أن إعلان ترامب هذا لم يفجر المظاهرات في الشوارع أو الانتفاضة في فلسطين، فلقد عرفت الأمة طريقها الوحيد والصحيح لتحرير القدس، وهو طريق نجاح الثورات وإسقاط الأنظمة الحارسة لإسرائيل، فتلك هي المعركة الحقيقية الصعبة الشرسة لا ذلك المسلسل الذي كانوا يسمحون لنا فيه بشبه مظاهرات تنفيسية تهتف وتصرخ ثم تعود بعد استهلاك طاقتها، ولا تلك الأغاني والمقالات الصحفية التي يكتبها ويغنيها ويلحنها أعداء حرية الشعوب ومن كانوا دائما في صف الطغيان ضد التحرر.

إن القدس لمن عشقها حقا، وبذل في سبيلها ما استطاع.. وأولئك الذين أسسوا إسرائيل مهما أبغضناهم فلا نملك إلا أن ننصفهم فنقول بأنهم بذلوا مجهودا هائلا وتخطوا عراقيل عظيمة في سبيل الوصول إلى القدس. وإني لأتخيل هرتزل ونوردو، ووايزمان، يحلمون بإنشاء دولة لليهود في فلسطين.. يعزمون على التخطيط لأمر يغير الخرائط والواقع والسياسة والاقتصاد.. تصطدم فيه دول وامبراطوريات وتهلك فيه أطنان الأموال وتُسفك دونه بحور الدماء، تُزاح فيه عشرات الألوف أو مئات الألوف من قراها وأرضها، لتنقل إليها مئات الألوف والملايين من سائر أنحاء العالم، يُنتزعون من أموالهم وديارهم ووظائفهم ومجتمعاتهم، مسألة تهلك فيها العقول في دوائر السلطة لإقناع هذا وتحفيز هذا وتسكين هذا وخداع هذا ورشوة هذا واختراق هذا واغتيال هذا وتخدير هذا... إلخ! ومع ذلك.. فعلوها، ونجحوا.. مهما كره المرء شرهم ودمويتهم فلا يملك إلا الإعجاب الكبير بهذا العزم الحديد، والتخطيط الشديد، والأمل البعيد..

وأي مقارنة بين هؤلاء وبين من يحكموننا الآن، بل حتى بين من تصدروا لقيادتنا تجعل البصر يرتد خاسئا وهو حسير، فقر في الخيال وفقر في الهمة وفقر في الجسارة وفقر في تعلم الدروس، ظلمات بعضها فوق بعض!

متى صارت القدس عاصمة إسرائيل على الحقيقة؟!

ربما سيندهش الكثيرون حين يسمعون الإجابة! لكنها إجابة كاشفة تفضح فارق التعلق بالقدس، وفارق الجسارة والمبادرة..

تروي جولدا مائير في مذكراتها أن بن جوريون لم ينتظر حتى يعطيه أحد إذنا أو شرعية بأن تكون القدس هي العاصمة، فمنذ نهاية 1949 أصدر قرارا بنقل مكاتب الحكومة من تل أبيب إلى القدس، وفي القدس أدى وايزمان القسم عند توليه رئاسة الدولة، وهذا بالرغم من توصية اللجان الخاصة والأممية بعدم ضم القدس إلى أي من الدولتين. ولم يأبه بن جوريون بقرار الأمم المتحدة بتدويل القدس (ديسمبر 1949م)، بل أصر على قراره رغم أن أصواتا داخل إسرائيل حذرت من مغبة هذا العمل الذي قد يفقد إسرائيل غطاء الشرعية الدولية، وانتقلت سائر الحكومة إلى القدس ما عدا وزارة الخارجية التي اضطرت للبقاء في تل أبيب حيث تقيم البعثات الدبلوماسية الأجنبية.

وهكذا بادر بن جوريون فجعل القدس عاصمته وقت أن كان ترامب في الثالثة من عمره!!

ثم تروي جولدا مائير كيف أنها انتقلت على الفور إلى القدس، وأنها فضلت السكنى في غرفة صغيرة فوق سطح منزل.. غرفة لا تليق بالوزيرة إطلاقا، فضلا عن أنها قريبة من الحدود وفي مرمى الخطر. وظلت فيها شهورا حتى بُنيت لها شقة تطل شرفتها على تلال القدس[3]!

إن معادلة التعلق بالقدس واضحة في أذهان سائر من فكروا بصدق في تحريرها، منذ أيامها الأولى، ففي عام 1953، ألقى سيد قطب محاضرة في شعبة الإخوان بالقدس (الشرقية) قال فيها: "نحن لا نريد من الجيوش العربية أن تحرر فلسطين، نحن نريد أن يسمح للمجاهدين بأسلحة خفيفة، هؤلاء هم الذين سيحررون فلسطين"[4].

كان يعرف أن العسكر لن يحرروا وطنا سليبا، كانوا هم سبب سلبه، وهم حماة سالبه.. بعده بنحو عشرين سنة قالها أمل دنقل شعرا سائرا:

قلت لكم مرارا:
إن الطوابير التي تمر.. في استعراض عيد الفطر والجلاء
فتهتف النساء في النوافذ انبهارا..
لا تصنع انتصارا..
إن المدافع التي تصطف على الحدود، في الصحارى
لا تطلق النيران.. إلا حين تستدير للوراء

إن الرصاصة التي ندفع فيها.. ثمن الكسرة والدواء
لا تقتل الأعداء
لكنها تقتلنا.. إذا رفعنا صوتنا جهارا
تقتلنا، وتقتل الصغارا !

قلت لكم في السنة البعيدة
عن خطر الجندي.. عن قلبه الأعمى، وعن همته القعيدة
يحرس من يمنحه راتبه الشهري
وزيه الرسمي
ليرهب الخصوم بالجعجعة الجوفاء.. والقعقعة الشديدة
لكنه.. إن يحن الموت فداء الوطن المقهور والعقيدة..
فر من الميدان، وحاصر السلطان، واغتصب الكرسي
وأعلن "الثورة".. في المذياع والجريدة!

قلت لكم كثيراً
إن كان لابد من هذه الذرية اللعينة
فليسكنوا الخنادقَ الحصينة
متخذين من مخافر الحدود.. دوُرا
لو دخل الواحدُ منهم هذه المدينة
يدخلها.. حسيرا
يلقى سلاحه.. على أبوابها الأمينة
لأنه.. لا يستقيم مَرَحُ الطفل، وحكمة الأب الرزينة
مع المُسَدسّ المدلّى من حزام الخصر
في السوق.. وفى مجالس الشورى

نشر في مدونات الجزيرة

---

[1] عباس مصطفى عمار، **سيناء: المدخل الشرقي لمصر**، ط2 (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، يوليو 2014م)، ص10 (مقدمة وليد نويهض). والجزء الأخير من كتاب المؤرخ الإيطالي ترجمه إلى العربية الأب سليم رزق الله بعنوان "كتاب الأسرار في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها"، وصدر في بيروت عن مؤسسة الريحاني عام 1991م.

[2] جولدا مائير، **اعترافات جولدا مائير**، ترجمة: عزيز بيومي، (القاهرة: دار التعاون، د. ت)، ص176 وما بعدها.

[3] جولدا مائير، **اعترافات جولدا مائير**، ص213، 214.

[4] إبراهيم غوشة، **المئذنة الحمراء: سيرة ذاتية**، ط2 (بيروت: مركز الزيتونة، 2015)، ص48.

كيف تشكلت معركة الصراع الحضاري العالمي



كيف تشكلت معركة الصراع الحضاري العالمي؟



محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

بعد استعراض تاريخي وسياسي طويل، كان من بين ما استخلصه د. جمال حمدان، الجغرافي والمفكر المصري المعروف، خلاصة سماها «المعادلة العالمية لأساسيات الصراع في المستقبل»، تتألف من عدة متتاليات إقليمية على هذا النحو:

- مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث.
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربي.
- مصير العالم العربي يتوقف على مصير فلسطين/ «إسرائيل»(1).

أخرى في العديد من مناطق العالم.

أحاول في هذه السطور إلقاء الضوء على مسألة أن «إسرائيل» هي المولود الطبيعي للحضارة الغربية، تحمل خصائصها وجيناتها، وأن الغرب إنما صنع هذه المشكلة ثم غرسها في بلادنا قسراً وقهراً، وتعهدها بالرعاية والعناية والحراسة، وذلك عبر استعراض تاريخي سريع موجز لجذور هذه النشأة.

جذور الصراع

لقد عانت أوروبا من الحروب الدينية المهلكة في عصورها الوسطى المظلمة، وتعددت المذابح التي نفّذتها السلطات الدينية في المخالفين، وابتكرت أوروبا محاكم التفتيش التي تمارس التعذيب الوحشي وتعاقب بالإحراق لكل من ثبت عنده اتباع الشياطين!

واختلطت هذه الحروب الدينية بالصراعات

وصار الاعتداء على سيادة الدولة مبرراً لشن الحروب، وتراجعت منزلة الدين بحيث يكون محكوماً بالدولة، وبحيث تكون مصلحة الدولة فوق رؤية الدين، وتتولى الدولة منح حق المواطنة للأفراد بغض النظر عن اختلاف الدين.

ما يهمنا الآن أن هذه الفكرة القومية هي التي اعتمدت عليها الصهيونية في إنشاء وطن لليهود، إذ هم قوم بلا دولة، ولكي تنتهي المشكلات التي يعانيها اليهود في أوروبا وروسيا، أو يعانيها الأوروبيون والروس من اليهود، يجب العمل على إنشاء دولة لليهود، وحيث لن تفرط أي دولة أوروبية في قطعة من أرضها لليهود، فقد بحثوا عن دولة يقيمها اليهود في إحدى الدول التي احتلتها أوروبا في أفريقيا أو آسيا، ثم انتهى التدبير إلى إقامتها في فلسطين.

بعد استعراض تاريخي وسياسي طويل، كان من بين ما استخلصه د. جمال حمدان –الجغرافي والمفكر المصري المعروف- خلاصة سماها المعادلة العالمية لأساسيات الصراع في المستقبل، هذه المعادلة العالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية على هذا النحو:

- "مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث

- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربي

- مصير العالم العربي يتوقف على مصير فلسطين/ إسرائيل"[1].

إنه من الخطأ تصوّر أن المعركة في فلسطين هي مشكلة بين العرب والإسرائيليين، أو هي مشكلة بين المسلمين واليهود، بل ولا هي مشكلة أرض محتلة. بل التصور الصحيح لها أنها مركز الصراع الحضاري العالمي. وهذا التصور هو وحده ما يفسر كيف أن اشتعال المواجهة في فلسطين تتردد أصداؤه في عواصم الشرق والغرب، وتنفعل له الشعوب والحكومات، ويحظى باهتمامٍ لا تحظى به كوارث إنسانية أخرى في العديد من مناطق العالم.

أحاول في هذه السطور إلقاء الضوء على مسألة أن إسرائيل هي المولود الطبيعي للحضارة الغربية، تحمل خصائها وجيناتها، وأن الغرب إنما صنع هذه المشكلة ثم غرسها في بلادنا قسرا وقهرا، وتعهدها بالرعاية والعناية والحراسة، وذلك عبر استعراض تاريخي سريع موجز لجذور هذه النشأة.

(1)

عانت أوروبا من الحروب الدينية المهلكة في عصورها الوسطى المظلمة، وتعددت المذابح التي نفّذتها السلطات الدينية في المخالفين، وابتكرت أوروبا محاكم التفتيش التي تمارس التعذيب الوحشي وتعاقب بالإحراق لكل من ثبت عنده اتباع الشياطين. واختلطت هذه الحروب الدينية بالصراعات السياسية، وبقدر ما لبست الأطماع السياسية ثوب الدين والروح الصليبية، بقدر ما ألهبت الروح الصليبية الحروب السياسية. ولأن العالم الإسلامي يحيط بأوروبا من جهتي الشرق والجنوب، ولا يوجد في الشمال والغرب إلا البحار، فإن أوروبا كانت تأكل نفسها ما دامت الدول الإسلامية قوية، فإذا ضعفت الدول الإسلامية بدأت أوروبا في التمدد إليها وتصدير مشكلاتها ومحاربيها وروحها الصليبية إلى الأراضي الإسلامية، وهو الأمر الذي ابتدأ في الحروب الصليبية شرقا وفي اجتياح الأندلس والشمال الإفريقي غربا وجنوبا.

(2)

عبر فصول طويلة ومعقدة من الصراع الداخلي الأوروبي، توصل الأوروبيون إلى بعض الحلول لهذه المشكلات المزمنة والمهلكة. كان من بينها: فكرة القومية. والقومية ببساطة هي أن تكون أعراق الناس أو لغتهم هي معيار التقسيم بينهم، فأولئك الذين يجمعهم عرق وأرض، أو تجمعهم لغة وأرض، هم قوم من دون الناس.

ومن هنا يُعَدّ صلح وستفاليا (1648م) لحظة فارقة تاريخيا، حيث صارت الدول تعبيرا عن قوميات، وصار لكل دولة سيادة، وصار الاعتداء على سيادة الدولة مبررا لشن الحروب. وتراجعت منزلة الدين بحيث يكون محكوما بالدولة، وبحيث تكون مصلحة الدولة فوق رؤية الدين، وتتولى الدولة منح حق المواطنة للأفراد بغض النظر عن اختلاف الدين.

ما يهمنا الآن أن هذه الفكرة القومية هي التي اعتمدت عليها الصهيونية في إنشاء وطن لليهود، إذ هم قوم بلا دولة، ولكي تنتهي المشكلات التي يعانيها اليهود في أوروبا وروسيا، أو يعانيها الأوروبيون والروس من اليهود، فيجب العمل على إنشاء دولة لليهود. وحيث لن تفرط أي دولة أوروبية في قطعة من أرضها لليهود، فقد بحثوا عن دولة يقيمها اليهود في إحدى الدول التي احتلتها أوروبا في إفريقيا أو آسيا. ثم انتهى التدبير إلى إقامتها في فلسطين.

وهكذا دفع العرب والمسلمون ثمنا فادحا للفكرة القومية التي ولدتها أوروبا لتحل بها مشكلاتها!

(3)

ومن الحلول التي تمخض عنها الصراع الأوروبي الداخلي: فكرة التخلص من سيطرة الكنيسة، وهي الفكرة التي سميت بالإصلاح الديني الذي تمثل في البروتستانتية، أو ذهبت بعيدا نحو التخلص من الدين كله والذي تمثل في: العلمانية.

لنبدأ بالبروتستانتية، التي هي الحاضنة الطبيعية للصهيونية غير اليهودية، وذلك أن مارتن لوثر في إطار محاربته لسيطرة الكنيسة وباباواتها وتفسيراتهم للدين، اتخذ مواقف وتفسيرات مضادة لهم ولتفسيراتهم، بل إنه أقدم على طباعة الكتاب المقدس، ثم تُرجم فيما بعد إلى اللغات القومية الأوروبية، وهي الخطوة الخطيرة التي فككت سيطرة الكنيسة وأضعفتها في أوروبا، ولكن الأخطر من ذلك –فيما يهمّنا نحن- أن الأفكار التي اعتنقها لوثر والبروتستانتية من بعده تؤكد على أن اليهود هم أصحاب فلسطين، وأنهم شعب الله المختار، وأنهم سيعودون إلى فلسطين، ثم يأتي المسيح بعد عودتهم لينصرهم وليقودهم في المعركة الكبرى هرمجدون، ليبدأ بعدها العهد الألفي السعيد.

وعبر مراحل تاريخية مختلفة سادت البروتستانتية على نصف ألمانيا وعلى هولندا، وسادت –وهذا هو الأهم- على بريطانيا ثم على أمريكا. ومن ثَمَّ صارت الأفكار الدينية السائدة في هذه الأنحاء هي حجر الأساس والبيئة المناسبة التي استثمرتها الحركة الصهيونية وطوَّرت مشروعها اعتمادا

عليها. لقد بذل هرتزل وحاييم وايزمان –وخصوصا هذا الأخير- مجهودا مضنيا في التمكين للصهيونية من هذا الباب، ولكن هذا المجهود المضني اعتمد أساسا على الأفكار التي تختمر لثلاثة قرون في أوروبا منذ عصر مارتن لوثر وحتى القرن العشرين، والتي أنتجت كثيرا من الأدبيات والمؤلفات والأشعار بل والمبارزات الفردية والصغيرة للهجرة إلى فلسطين، بل والمحاولات السياسية غير المكتملة لإنشاء وطن لليهود في فلسطين.

وهكذا دفع العرب والمسلمون ثمنا فادحا للإصلاح الديني الذي ولدته أوروبا كحل لمشكلة السيطرة الكنسية على شعوبها!

(4)

ثم نأتي لحل العلمانية الذي أخرجته أوروبا في إطار تخلصها من سيطرة الكنسية، فمن لم يخرج من الكاثوليكية إلى البروتستانية، فإنه خرج من سيطرة الكنيسة إلى العلمانية، ليتخلص من سيطرة الدين تماما، وظهرت في أوروبا الدول العلمانية التي لم تتخلص تماما من روحها الصليبية، وإنما استثمرت هذه الروح في التمكين لمصلحة الدولة وإلهاب معنويات الجيوش التي تحتل البلاد الأخرى، وفي تنصير الشعوب الأخرى لتضمن خضوعها وتسلب منها مقاومتها إلى الأبد.

وما يهمنا في هذا أن النزعة العلمانية بطبيعتها نزعة لا أخلاقية، فقد سعت العلمانية الغربية إلى حل مشكلات الداخل الأوروبي بتصديره إلى البلاد المحتلة، وسعت إلى استثمار الحركة الصهيونية التي تحث على هجرة اليهود من أوروبا ليتحقق بذلك مصلحة التخلص من اليهود في الغرب، ومصلحة تمزيق الأمة الإسلامية بإنشاء دولة في قلب الأرض الإسلامية تكون بمثابة القاعدة الغربية العسكرية المتقدمة، التي تستنزف الطاقة الإسلامية وترتبط ارتباطا حتميا بالأب الغربي. وقد استفادت الصهيونية من هذه النزعة، فوضعت نفسها في إطار النزعة الإمبريالية الغربية، وطرحت نفسها باعتبارها المشروع الأنسب الذي يوفر على الغرب الحروب المباشرة والسيطرة المباشرة في المنطقة، مع تخليصهم من المشكلة اليهودية، لتكون إسرائيل هي المشروع الغربي الاستعماري الذي يستحق الاستثمار فيه، لتحقيق أفضل النتائج بأقل التكاليف المباشرة.

وهذا هو معنى أن إسرائيل "دولة وظيفية"، تلك الفكرة التي أطال المفكر المعروف عبد الوهاب المسيري في شرحها والتنظير لها، سواء في موسوعته عن الصهيونية أو في كتاباته الأخرى التي تناقش العلمانية وتجعل الصهيونية ثمرة من ثمار العلمانية المادية.

ومن أوضح ما يدل على الطبيعة اللا أخلاقية للعلمانية الغربية، أنها دعمت إنشاء وطن قومي لأصحاب دين بعينه، وسهرت على حراسة هذه الدولة الدينية العنصرية، في خيانة ظاهرة لكل المزاعم العلمانية التي تتحدث عن حقوق المواطنة وعن مناهضة العنصرية وعن عدم التفريق بين المواطنين على أساس العرق واللون والدين.

وهكذا دفع العرب والمسلمون ثمنا فادحا للعلمانية التي أنتجتها أوروبا كحل لمشكلة السيطرة الكنسية على شعوبها!

(5)

بقي أخيرا أن نشير إلى أن إسرائيل هي بنت الحضارة الغربية عمليا، فما كان للصهيونية أن تتحول إلى دولة بغير الدعم الهائل المتعدد الأنواع والمستويات: سياسيا وعسكريا واقتصاديا وأمنيا وعلميا وحتى ثقافيا.

لقد كان المشروع الإسرائيلي على جدول أعمال القادة الغربيين على اختلاف أنواعهم ورؤاهم، منذ نابليون مرورا بدزرائيلي وبالمرستون ولويد جورج وبلفور وصولا إلى ترمب وبايدن. إن دعم إسرائيل هو واحد من ثوابت السياسة الدولية الغربية مهما تغيرت الوجوه والمذاهب. ولا تضطرب العلاقة بين إسرائيل وأمهاتها الغربية: فرنسا وبريطانيا وأمريكا حتى في اللحظات التي يعمل فيها الإسرائيليون ضد مصالح هذه الدول.

وفي سبيل إنشاء إسرائيل وحمايتها، رسمت الدول الكبرى منذ بريطانيا وحتى أمريكا سياستها تجاه الأنظمة العربية المهمة، لا سيما أنظمة دول الطوق، وأشرفت على تنصيب هذه الأنظمة وعلى تدريب جيوشها وتسليحها، ورسم سياساتها، حتى صار المتطلع في بلد ما إلى منصب سياسي يعلم بالبديهة أن الطريق يمر عبر إسرائيل، فيجتهد في نيل الرضا الإسرائيلي وتقديم ما يثبت أن الإسرائيليين سيكونون معه في حال أفضل من حالهم مع غيره. وهذه قصة تطول وتستغرق الفصول والفصول، أقلها معروف مكشوف وأكثرها مغمور مجهول.

(6)

لهذا كله، فإن المعركة في فلسطين ليست معركة الفلسطينيين، ولا هي مجرد قصة احتلال، بل هي مركز الصراع الحضاري العالمي، الذي يترتب عليه ويتغير به الوضع العالمي كله، إن المعركة هناك تختزل صراع الحق والباطل، صراع المستضعفين والمستكبرين، صراع الشعوب والطغاة!

إنها ليست حروبا صليبية جديدة، إنها امتداد الحروب الصليبية، بعدما أضيف إليها الروح الصهيونية، والنزعة العلمانية المادية!!

إنه الصراع المركب المتعدد الطبقات والمستويات، ولذلك تجد هذا الصراع كاشفا للغاية، فكلما تجدد كلما تمايز الناس به إلى طائفتين متقابلتيْن، لا يلتقي أحدهما مع الآخر ولو امتزج الزيت بالماء!

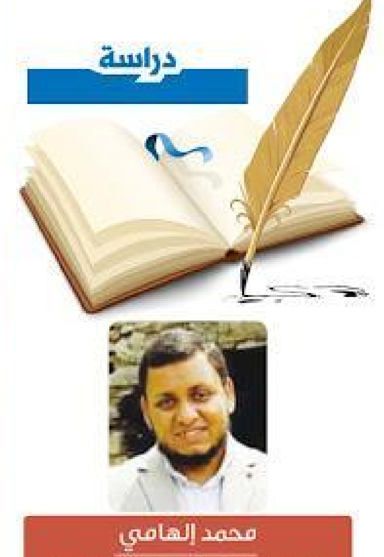
نشر في مجلة المجتمع الكويتية، يونيو 2021

---

[1] جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، ط1 (القاهرة: دار الشروق، 1983م)، ص351

سنن تاريخية في تحرير بيت المقدس





سُنن تاريخية في تحرير بيت المقدس

يمكن إيجاز تاريخ بيت المقدس في العصر الإسلامي في ست مراحل كبرى فاصلة، هي:
1 – مرحلة الفتح التي كانت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صدر الإسلام، في العقد الثاني من القرن الأول الهجري، وبالتحديد في ربيع الآخر 16هـ.

أواخر القرن السادس الهجري بعد تسعين عاماً من الاحتلال الصليبي، وبالتحديد في رجب 583هـ.
4 – ثم مرحلة الضياع مرة أخرى التي جرت على يد الأيوبيين المتأخرين: الملك الكامل الأيوبي، وهو ابن أخي صلاح الدين، ثم الناصر داود، وهو ابن أخي الملك الكامل.

أو كالقلب من الضلوع، لا يمكن الوصول إليها ولا الظفر بها إلا بعد المرور بالعواصم المهمة المحيطة بها، بمعنى أن احتلال بيت المقدس أو تحريره إنما هو الثمرة الأخيرة لتاريخ من الكفاح والنضال للسيطرة على العواصم السياسية المهيمنة على بيت المقدس.

يمكن إيجاز تاريخ بيت المقدس في العصر الإسلامي في ست مراحل كبرى فاصلة:

1. **مرحلة الفتح التي كانت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صدر الإسلام، في العقد الثاني من القرن الأول الهجري، وبالتحديد في ربيع الآخر 16ه.**

2. **ثم مرحلة الاحتلال الصليبي التي جرت في أواخر القرن الخامس الهجري، وبالتحديد في 492ه.**

3. ثم مرحلة التحرير التي جرت على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي أواخر القرن السادس الهجري بعد تسعين عاما من الاحتلال الصليبي، وبالتحديد في رجب 583هـ.

4. ثم مرحلة الضياع مرة أخرى التي جرت على يد الأيوبيين المتأخرين: الملك الكامل الأيوبي –وهو ابن أخي صلاح الدين- ثم الناصر داود وهو ابن أخي الملك الكامل، وذلك في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وبالتحديد في 624هـ، و641هـ على التوالي.

5. ثم مرحلة استرجاعه مرة أخرى على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب بالتحالف مع الجيش الخوارزمي بعد سنة من ضياعه، وبالتحديد في 642هـ.

6. ثم مرحلة الضياع مرة أخرى في العصر الحديث على يد قوات الاحتلال الإنجليزي بعد سبعة قرون، وبالتحديد في 1917م (= 1366هـ)، ثم الاجتياح الإسرائيلي للنصف الشرقي من المدينة المقدس 1967م (= 1387هـ).

ولم يزل المسلمون ينتظرون المرحلة السابعة، مرحلة التحرير من الاحتلال الصهيوني، نسأل الله أن يكون قريبا، وأن نكون من جند هذا التحرير.

ومن أبرز ما يُلاحَظ، من خلال التأمل في هذا التاريخ، أن بيت المقدس يبدو كدُرَّة التاج، أو كالقلب من الضلوع، لا يمكن الوصول إليها ولا الظفر بها إلا بعد المرور بالعواصم المهمة المحيطة بها، بمعنى أن احتلال بيت المقدس أو تحريره إنما هو الثمرة الأخيرة لتاريخ من الكفاح والنضال للسيطرة على العواصم السياسية المهيمنة على بيت المقدس.

أولا: الفتح

لما خرجت الجيوش الإسلامية الفاتحة إلى الشام، وكانوا خمسة جيوش، كانوا يستهدفون بهذه القسمة تشتيت جيش الروم الضخم وتقسيمه إلى خمسة كذلك، فقد كان جيش الروم عشرة أضعاف الجيش المسلم، ولهذا حاول أبو بكر من خلال توجيه خمسة جيوش أن يستدرج هرقل –قيصر الروم- إلى إخراج خمسة جيوش مقابلة لكي ينكسر هذا التفوق العددي الهائل، ولكن هرقل فطن

لهذه الخطة فأرسل قطعة من جيشه في مقابلة جيش عمرو بن العاص في جنوب فلسطين، وأبقى بقية الجيش ككتلة واحدة، ولم يكن هذا الجيش يستهدف استرجاع المناطق التي فتحها المسلمون، وإنما استهدف تطويق الجيش المسلم، فكان يتوغل إلى الجنوب، وهو الأمر الخطير الذي كان يُجبر المسلمين على ترك ما فتحوه والعودة جنوبا حتى لا يجري تطويقهم وقطع الطريق عليهم، ولهذا تكررت في فتوح الشام أن يفتح المسلمون البلد أكثر من مرة، وأن يعيدوا الجزية التي أخذوها من أهل هذا البلد، كما تكرر أيضا أن ينتقض بعض البلاد على المسلمين حين يتصورون أن انسحابهم كان ضعفا.

ما يهمنا في سياقنا هذا أن عاصمة الشام دمشق فُتِحَت قبل فتح بيت المقدس بعاميْن، فقد كان فتح دمشق (الأحد: 15 رجب 14 هـ = 5 سبتمبر 635م)، بينما كان فتح بيت المقدس (ربيع الآخر 16هـ = مايو 637م).

وبعدما فتح المسلمون دمشق، اضطروا للانسحاب منها لئلا يطوقهم الروم، ثم خاضوا المعركة الكبرى مع جيش الروم الرئيسي، وهي اليرموك بعد عام من فتح دمشق (رجب 15ه)، ولما نصرهم الله النصر الكبير فيها انفتح الطريق إلى بيت المقدس وفُتِحت بعد اليرموك بتسعة أشهر.

لو كان الصحابة مجموعة من الدراويش لكان حرصهم على فتح بيت المقدس أشد من حرصهم على فتح دمشق، فبيت المقدس هي القبلة الأولى ومسرى النبي وفيها صلى النبي بالأنبياء، إلا أنهم كانوا أهل عقل وحكمة وسياسة وتدبير، وقد عرفوا أن الطريق إلى بيت المقدس لا بد أن يمر بدمشق.

ثانيا: التحرير

وفي التحرير الصلاحي لبيت المقدس سنرى ذات السنة جارية مضطردة، فقد انبعث عماد الدين زنكي واستطاع أن يستقطع لنفسه إمارة في منطقة الموصل ثم حلب، ومن هذه البقعة بدأت معركة تحرير بيت المقدس مع الصليبيين، واستطاع عماد الدين زنكي أن يقضي على واحدة من الإمارات الصليبية، وهي إمارة الرها، ولكنه لم يستطع أن يفعل أكثر من ذلك.. لسبب بسيط، أنه لا بد له من دمشق! وهو الأمر الذي قُتِل قبل أن يحققه، ثم استطاع بعده ابنه نور الدين أن يحقق هذه الأمنية

ويستولي على دمشق في عمليةٍ أشبه بالثورة الشعبية والانقلاب الناعم، وذلك في (549ه)، أي قبل أربع وثلاثين سنة من تحرير بيت المقدس.

واشتعلت بعدئذ معركة محمومة بين المسلمين بقيادة نور الدين وبين الصليبيين للسيطرة على القاهرة، وكانت آنئذ أثرى بلاد المسلمين وأغناها، وكانت تحت حكم العبيديين (الفاطميين)، وكان واضحا للجميع أن من استطاع أخذ مصر فقد حسم المعركة لصالحه، وجرت فصول عديدة انتهت بقدرة نور الدين السيطرة على مصر في (564هـ) أي قبل تسع عشرة سنة من تحرير بيت المقدس. وفي القاهرة استطاع نائب نور الدين –أسد الدين شيركوه، ثم صلاح الدين- إنهاء الدولة الفاطمية وتوحيد مصر والشام (567ه) أي قبل ست عشرة سنة من تحرير بيت المقدس.

ولكن نور الدين تُوفي، وجرت فصول كثيرة هددت الشام بالعودة إلى التمزق مرة أخرى، وحينئذ ردَّت مصر جميل الشام، فانطلق منها صلاح الدين ليعيد الوحدة المهددة، واستطاع أن يكون سيد الشام وأن يحرر دمشق من أمرائها الفاسدين الذين عادوا للتحالف مع الفرنجة (570ه) أي قبل ثلاث عشرة سنة من تحرير بيت المقدس.

عندئذ صارت مسألة بيت المقدس مجرد وقت، وهو ما تحقق فعلا وتحررت (رجب 583ه) على يد سلطان مصر والشام الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي.

ما كان بالإمكان أن تتحرر بيت المقدس دون عواصم مصر والشام: القاهرة ودمشق، وما كان ممكنا إخراج جيش التحرير وفي الشام أمراء يسيطرون على مدنها ومواردها ورجالها ويستطيعون عقد العهود والاتفاقيات مع الصليبيين، فيأكلون أموال البلاد والعباد ويجندونها في خدمة مصالحهم بل وفي خدمة الصليبيين.

لقد قضى صلاح الدين الأيوبي وحده في رحلة تحرير بيت المقدس عشرين عاما، كانت ثلاثة أرباعها في تحرير الديار الإسلامية من الأمراء الفاسدين والمتعاونين مع الصليبيين في مصر والشام، وذلك أنه وصل إلى مصر ضمن جيش عمه أسد الدين (564ه) فقضى خمس سنوات في إصلاح حالها، ومنها تمدد إلى برقة والمغرب الأدنى وإلى اليمن كذلك، ثم جاءت وفاة نور الدين (569ه) لتهدد ما جرى إنجازه على يد أمراء الشام الذين أعادوا التواصل مع الصليبيين بل وأطلقوا لهم الأسرى وبذلوا لهم الجزية مرة أخرى، فنهض صلاح الدين من مصر ليعيد توحيد الشام، وظل في شغل بهذا الأمر لمدة أحد عشر عاما حتى (580ه)، ولم يستغرق أمر فتح بيت

المقدس بعد ذلك إلا ثلاث سنوات فقط، ثم قضى بقية عمره في التصدي للحملة الصليبية الثالثة حتى صدَّها ثم مات رحمه الله.

في المقال القادم إن شاء الله تعالى، نتعرض لتاريخ ضياع بيت المقدس في الحملات الصليبية، ثم ضياعه في الاحتلال الغربي المعاصر، لنرى اضطراد هذه السنة التي تجعل بيت المقدس كدرة التاج أو كموضع القلب من الضلوع، لا يُخلَص إليها إلا عبر منافذها من العواصم العربية المحيطة بها.

نشرت في مجلة المجتمع الكويتية، يوليو 2021

سنن تاريخية في ضياع بيت المقدس



قصة قصيرة قبل بدء المقال: مُنِع هذا المقال من النشر في مجلة المجتمع الكويتية، وأوقفت المجلة مقالي الثابت فيها منذ ثلاث سنوات أو أكثر، بقرار من رئيس التحرير محمد سالم الراشد. وسبب ذلك تغريدةٌ كتبتها أدين فيها موقف راشد الغنوشي البطئ الثقيل المستسلم من انقلاب الرئيس التونسي قيس سعيد عليه.



فإذا بمحمد سالم الراشد يوقف التعامل معي بالمجلة، ولما سألتُه: زعم أن ذلك المقال يخالف "سياسات التحرير"، وهو يعرف أني أعرف أنه كاذب، وأوضح دليل على هذا الكذب أن المقال نُشِر بالفعل على الموقع الإلكتروني للمجلة كما يظهر في هذه الصورة، فلو كان مخالفا لسياسات التحرير لما نُشِر على الموقع. ثم ها هو المقال أمام القراء جميعا، ولهم أن ينظروا: هل يمكن أن يكون مخالفا لسياسة تحرير النشر في أي مجلة؟!

لم أكن أتوقع أن أُساوَم على رأيي وعلى ما أنشر في صفحاتي، من طرف رئيس تحرير لمجلة إسلامية تنتسب إلى جمعية الإصلاح الكويتية (الإخوان المسلمين)، ولا أدري كيف خطر له بالبال أنه يمكن أن يلوي ذراعي مثلا فأتوقف عن قول ما أؤمن به، إن الذي حفظنا من نفاق السيسي وابن زايد وابن سعود لن يسوءنا فننافق من لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا حتى بمقاييس الدنيا. ولكن حيث وقعت المساومة، فليهنأ بمجلته ومن يخضعون لمساومته.

وقد ذكرتُ له أني سأنشر مضمون هذا الذي حصل، والقراء يحكمون، فقال: افعل ما تريد. وأي محاولة لتكذيب ما قيل هنا فسأضطر لنشر صور المراسلات.

ذكرنا في المقال الماضي أنه: من خلال مطالعة تاريخ بيت المقدس ستظهر لنا سنة مضطردة خلاصتها أن بيت المقدس هو بمثابة القلب من الضلوع والتاج من المدن، وأنه لا يُوصل إليه إلا من خلال العواصم المحيطة به، وتناولنا في المقال الماضي محطات الفتح العمري والتحرير الصلاحي، وقد ظهر لنا منها أنه لم يمكن فتح بيت المقدس إلا بعد فتح دمشق، ولم يمكن تحرير

بيت المقدس إلا بعد تطهير دمشق والقاهرة من الأمراء الفاسدين، وباتحاد مصر والشام صار تحرير بيت المقدس مسألة وقت.

في هذا المقال نتوقف عند محطات ضياع بيت المقدس، وهي ثلاث محطات كبرى: ضياعه في الحملة الصليبية الأولى، وفي الحملة الصليبية السادسة، ثم ضياعه قبل نيف ومائة عام في الاحتلال الإنجليزي.

في محطات الهزيمة سنرى أنه لم يتمكن الأعداء من الوصول إلى بيت المقدس إلا بعد أن ضرب الفساد والخيانةُ أو الاحتلال العاصمتيْن المهمتيْن حوله: القاهرة ودمشق. وفي مرحلة لاحقة: اسطنبول!

عشية الحملة الصليبية الأولى انقسمت مصر والشام، فكانت مر تحت حكم العبيديين (الفاطميين) وهم شيعة إسماعيلية، وكانت الشام تحت حكم السلاجقة وهم من أهل السنة، وقد انقسمت بلاد الشام ودخلت في النزاع بين السلاجقة والعبيديين، وقد كانت كلا الدولتين قد فقدتا أمراءها الأقوياء، فقد تفكك السلاجقة في الشام بعد السلطان القوي ملك شاه (ت 485هـ = 1092م)، ودخل العبيديون في ما يسمى بعصر الوزراء بعد ضعف الخلفاء، ثم زاد الوضع سوءا حين تحالف العبيديون مع الفرنجة الصليبيين ضد السلاجقة، وهو التحالف الذي استفاد منه الصليبيون في الاستيلاء على شمال الشام ثم سرعان ما غدروا بهم وانتزعوا بيت المقدس الذي كان في حوزة العبيديين آنذاك!

وهكذا ضاعت القدس حيث كانت العواصم القوية حولها في حال مزرية، فالخليفة الضعيف في بغداد، والأمراء السلاجقة الضعاف المتنازعين في الشام، والخليفة العبيدي الضعيف في القاهرة!! وستظل بعدها نحو مائة عام في ظل الاحتلال الصليبي والأقصى حظيرة خنازير!!

ستبدو هذه السنة التاريخية واضحة في مسيرة الحملات الصليبية التالية، فلئن كانت الحملة الأولى قد نجحت في احتلال بيت المقدس، فلقد جاءت الحملة الثانية بعد تحرير الرها على يد عماد الدين زنكي، لكنها لما وصلت كان عماد الدين قد رحل وتولى الأمر من بعده ابنه نور الدين محمود الذي استطاع أن ينشئ تحالفا مع حاكم دمشق، ومع أن دمشق كانت في هدنة مع الصليبيين إلا أنهم هاجموها أولا ناقضين للعهد بينهما، وهو ما أجبر دمشق على الدخول في مواجهة الصليبيين، وأدى ذلك –مع أسباب أخرى- لإخفاق الحملة الثانية.

وأما الحملة الثالثة فقد جاءت بعد تحرير صلاح الدين لبيت المقدس، وكانت أضخم الحملات الصليبية وأشرسها، ولكنها جاءت وقد توحدت مصر والشام، وكانتا تحت سلطان صلاح الدين، فانتهت الحملة الكبرى إلى الإخفاق ولم تستطع أن تحتل بيت المقدس! وعاد ملوكها يجرون أذيال الخيبة!

وأما الحملة الرابعة فقد انحرفت –لظروف تخص الخلافات الأوروبية الداخلية- فبدلا من أن تأتي إلى المشرق توجهت إلى القسطنطينية واستولت عليها.

وأما الحملة الخامسة فهي الحملة التي تثبت بوضوح هذه السنة التاريخية التي نتحدث عنها، لقد جاءت تلك الحملة بفكرة جديدة بعد قراءتها لأخبار الحملات السابقة، تلك هي السيطرة على مصر أولا. لقد كان الدرس واضحا: لن يمكن الاستيلاء على بيت المقدس ولا الاستقرار فيه دون السيطرة على مصر والاستيلاء على القاهرة. وقد نقل ابن واصل خبر تشاورهم فقال: "اجتمعوا للمشورة في ماذا يبدءون بقصده، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولا، وقالوا: إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك، وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أو لا مصر ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد"[1].

من المؤسف أن صلاح الدين كان قد توفي، بل إن أخاه العادل سيف الدين توفي في أثناء الهجوم الذي شنته الحملة الصليبية على دمياط، وصار الشام إلى عيسى بن العادل، وصارت مصر إلى محمد بن العادل الملقب بالملك الكامل.

وفي واقعة لها دلالاتها الكثيرة والقوية، عرض الكامل على الصليبيين أن يرحلوا عن مصر في مقابل أن يسلم لهم كل ما حرره صلاح الدين من المدن بما في ذلك بيت المقدس، ما عدا الكرك والشوبك، وانقسم الصليبيون أمام هذا العرض فمنهم من وافق ورآها فرصة لا تقدر بثمن، ومنهم من رفض ورأى أنه لا يمكن الاحتفاظ ببيت المقدس دون الاستيلاء على مصر، وانتصر الرأي الأخير!

لم يجد الكامل إلا أن يقاوم، وبعد فصول طويلة استطاع جيشه وجيشا أخويْه اللذيْن قدما لنجدته أن يهزموا الحملة الصليبية الخامسة! ولقد كان بإمكان الكامل أن يبيد جيش هذه الحملة، إلا أنه لنفسيته المشبعة بالجبن والخور رفض أن يفعلها، وسمح لهم بالانسحاب سالمين.

يجب القول أيضا إن سياسة الكامل والرفض الصليبي لعرضه يثبت ما نقول من أن القاهرة مفتاح بيت المقدس، وأنها –من المنظور السياسي والعسكري- أهم من بيت المقدس، وليست الأهمية هنا دينية وقدسية فالقدس أعظم لا شك، لكن ميزان القوة يُحسب من جهة الموارد والنفوذ: المال والرجال!

ثم ما لبث أن دبت الفرقة والخلاف بين الإخوة الثلاثة: الملك الكامل محمد في مصر وأخيه المعظم عيسى في الشام والأشرف موسى في شمال العراق وديار الجزيرة، فتحالف المعظم عيسى صاحب الشام مع جلال الدين الخوارزمي، فتحالف الكامل مع فريدريك الثاني صاحب الإمبراطورية الرومانية المقدسة والذي نشأ يتيما في صقلية، وعرض عليه التنازل عن بيت المقدس وما حرره صلاح الدين.

ومع أن المعظم عيسى مات سنة 624، واستولى الكامل على مملكته بالفعل، ومع أن فريدريك محروم من قبل البابا، وكان الصليبيون في الشام ضده وعرضوا على الكامل أن يحاربوه معه، ومع قلة عدده (600 فارس) إلا أن الكامل أعطاه القدس!! أعطاه إياها لمجرد الوفاء بالوعد ولمجرد التحالف والصداقة!!

وهذا استلم فريدريك بيت المقدس بستمائة فارس فقط، لم يحاربوا ولم يخسر منهم أحدا، وبمجرد التفاوض، ودون أية مكاسب تعود على الكامل، في واحدة من أغرب قصص الخيانة في التاريخ!!

ومجاملة لفريدريك منع الكاملُ مؤذن بيت المقدس من الأذان حرصا على عدم إزعاج صديقه وحليفه الملك فريدريك!! وأخبر الكامل صديقه فريدريك بأنه سَجَن أعظم علماء المسلمين الذين عارضوه في هذا التسليم!! وقد وجد الكامل من يفتيه بجواز تسليم بيت المقدس للصليبيين!!

وسجن الكامل كذلك واحدا من قادة جيشه، سيف الدين بن أبي زكري، الذي قال له: اتحد مع أخيك وابن أخيك على هذا العدو، ولا يُقال أعطى السلطان الفرنج القدس[2]!! ثم إن الكامل فضّ اعتصاما أقامه أهل القدس عند خيمته وقد حملوا معهم قناديل الأقصى وستائره!

وبعد وفاة الكامل، وفي خضم اشتداد المنازعات بين أبناء الإخوة الذين ورثوا عداوات أبيهم وتنقلت بينهم المعسكرات وتبدلت أحوالهم بصورة درامية بائسة ومثيرة للاشمئزاز، استطاع الناصر داود بن المعظم (عيسى بن العادل سيف الدين بن نجم الدين أيوب) أن يهاجم بيت المقدس فيحررها (637هـ)، ولكنه نكاية في ابن عمه الصالح أيوب (بن الكامل محمد بن العادل سيف الدين

بن نجم الدين أيوب) سلطان مصر، وتحالفا مع عمه الصالح إسماعيل (بن العادل سيف الدين بن نجم الدين أيوب) سلمها للصليبيين مرة أخرى في عام 641هـ.. بل وتعهد الصالح إسماعيل –قائد التحالف- للصليبيين بجزء من ديار مصر إذا انتصروا على سلطانها الصالح نجم الدين أيوب.

ومع أن المعاهدات بين هؤلاء الأمراء مع الصليبيين حين سلموا لهم بيت المقدس أن يحتفظ المسلمون بالسيادة على المسجد الأقصى وأن تقام الشعائر، إلا أن الصليبيين لم يأبهوا بهذا، حتى إن ابن واصل المؤرخ حين كان في سفارة ببيت المقدس نقل صورة الوضع هناك فقال: "دخلت بيت المقدس ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة، وعليها قناني الخمر برسم القربان، ودخلت الجامع الأقصى وفيه جرس معلق، وأبطل بالحرم الأذان والإقامة وأعلن فيه بالكفر"[3].

وفي النهاية استطاع الصالح أيوب، سلطان مصر، أن يقضي على خصومه من أبناء عمه، وأن يعيد توحيد مصر والشام، وتحالف مع الخوارزميين، ثم استطاع تحرير بيت المقدس (642هـ)، وذلك في أعقاب انتصاره في معركة غزة على التحالف الذي ضم الأيوبيين الشوام مع الصليبيين، وقد وصفهم سبط ابن الجوزي بقوله "(ساروا) تحت أعلام الفرنج وعلى رؤوسهم الصلبان المسلمين والأقساء فِي الأطلاب يصلِّبون على ويقسقسون عليهم، وبأيديهم كاساتُ الخمر والهنابات يسقونهم"[4].

ظلت بيت المقدس في يد المسلمين حتى الاحتلال الإنجليزي المعاصر، أي لمدة سبعة قرون، وفي هذه القرون السبعة كانت مصر والشام دولة واحدة، إما تحت السيادة المملوكية، أو تحت السيادة العثمانية، فكانت مسؤولية بيت المقدس –ومعها الحرمان الشريفان أيضا- تقع على عاتق القاهرة ودمشق في العصر المملوكي، وعلى عاتق اسطنبول في العصر العثماني، واستطاعت الدولتان أن تقوما بالمهمة خير قيام، فظلت بيت المقدس وظل الحرمان الشريفان في حصن منيع!

ولم تضع بيت المقدس في التاريخ المعاصر إلا عندما ضعف اسطنبول وضربها الفساد والوهن، وهي اللحظة التي استطاع فيها الاحتلال الإنجليزي أن يستولي منها على القاهرة –المدينة الثانية في الإمبراطورية العثمانية بعد العاصمة- ومن القاهرة تحرك الجيش الإنجليزي الذي احتل بيت المقدس!! لقد كان الجيش الذي أسسه الإنجليز في مصر، والمعروف خطأ باسم الجيش المصري، هو الذي قاتل العثمانيين في الشام وفتح الطريق لاحتلال بيت المقدس.

وقبل الإنجليز كانت نفس المحاولة قد جرت على يد نابليون، احتل القاهرة أولا، ومنها خرج بجيشه إلى الشام يريد بيت المقدس، لكن الظروف السياسية لم تساعده على إنجاز مهمته.

لقد جرى احتلال بيت المقدس بعد خمس وثلاثين سنة من احتلال القاهرة، واستعمل الإنجليز في احتلالها كل موارد مصر من مال ورجال بل حتى الخيول والحمير انتزعوها من المصريين ليخوضوا بها الحرب العالمية الأولى التي أسفرت عن غروب الدولة العثمانية وغروب بيت المقدس معها.

وأدنى نظر في مذكرات هرتزل، مؤسس المشروع الصهيوني، سيخبرنا بذات السنة التاريخية التي نتحدث عنها، والتي يبدو أن هرتزل فقهها جيدا، لقد كان هرتزل حريصا للغاية على أن يؤسس دولة للصهاينة في بيت المقدس من خلال التأثير على قرار العواصم المهمة المتحكمة في مصيره من خلال نفوذها المباشر عليه مثل اسطنبول، أو من خلال نفوذها على اسطنبول مثل لندن وبرلين والفاتيكان وموسكو.. ولكن هذا حديث طويل ومهم، ولعلنا أن نفرده في مقال قادم إن شاء الله تعالى.

نشر في مجلة المجتمع الكويتية، على الموقع الإلكتروني فقط، أغسطس 2021

---

[1] ابن واصل، مفروج الكروب، 3/258.

[2] ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين)، ص224.

[3] ابن واصل، مفرج الكروب، 5/333.

[4] سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 22/381.

أشدُّ رهبة في صدورهم من الله!

كررت مندوبة أمريكا في الأمم المتحدة جملة "السماء لم تسقط"، كانت ترد على الدول التي تخوفت من تبعات قرار ترامب، كانت تقول لهم: ما توقعتموه لم يحدث، لا تزال السماء في مكانها، ولم يحدث شيء. قرأ كثيرون في هذا التصريح سخرية من قدرة العرب على الرد.. ونعم! لديهم حق. إلا أن أمرا آخر يجب أن ننتبه إليه أيضا.. هو موضوع هذه السطور القادمة.

كثيرا ما يخرج لي إذ أقلب صفحات التاريخ أمورا لا أعرف لها تفسيرا سوى حديث النبي صلى الله عليه وسلم "نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر"، فعلى الرغم مما ننظر به لأنفسنا من العجز والضعف وقلة الحيلة –وكل هذا حق- إلا أن عدونا يحسب لنا حسابا فوق ما نحسبه نحن لأنفسنا.

خذ هذا الموقف الذي بين أيدينا مثلا، ما الذي يدفع دولا غربية لا شك في ميلها لإسرائيل ولا شك في عداوتها للعرب والمسلمين أن تندد بقرار ترامب وتتخوف من آثاره؟ بل ما الذي يدفع رؤساء أمريكا أنفسهم لتأجيل تنفيذ القرار منذ أقره الكونجرس قبل 27 سنة؟!! بل وما الذي يدفع ترامب نفسه لاستطلاع رأي السيسي وسلمان قبل أن يقدم على إعلان قراره ويضمن منهما أن الأمور لن تشتعل بما يخرج عن السيطرة؟! بل وما الذي يدفع الكونجرس أن ينتظر نحو أربعين سنة قبل أن يعترف بالحقيقة العملية، فإسرائيل تتعامل مع القدس كعاصمة لها منذ بن جوريون وقت أن كان ترامب نفسه في الثالثة من عمره؟! كما ذكرنا في مقال سابق. ثم ما هي إلا ساعات وصدر تصريح يحاول امتصاص الغضب عن أن نقل السفارة لن يكون قبل عام أو عامين!

ومن قبل هذا نسأل السؤال الذي طاف برأس كل من قرأ تاريخ الحروب الصليبية: لماذا لم تقدم إسرائيل على ما أقدم عليه الصليبيون من قبل.. جعلوا الأقصى حظيرة خنازير؟! لا يزال الصهاينة رغم كل مكرهم ومحاولاتهم يحرصون على تأجيل سائر تنفيذ مخططات هدم الأقصى وإقامة الهيكل على رغم ما هم فيه من العلو والتمكن والتمتع بحماية الأنظمة العربية فوق الحماية الدولية!!.. ومن يتابع السياسة الأمنية الإسرائيلية بعد قرار ترامب يجد أنهم يتعاملون فعلا بكل طاقة ضبط النفس ومحاولة امتصاص الغضبة الفلسطينية لئلا يتسبب العنف المفرط في توسيع وإشعال الاحتجاجات أو نزع فتيل حرب مع قطاع غزة.

كثير من المواقف يمكن أن نلتقطها من بين طوفان يتداعى إلى الذاكرة، منها مثلا أن أوروبا وهي في عنفوان قوتها في الحرب العالمية الثانية لم تكن تخشى الاتحاد السوفيتي (وهو قوة عالمية) بقدر ما تخشى الإسلام (وكانت البلاد الإسلامية وقتها ما بين محتلة وعاجزة لا تملك رد المحتل عن نفسها)، وامتنعت ألمانيا عن تقديم دعم لصالح وحدة المغرب العربي خوفا من أن يسترد العرب الأندلس!!.. ولولا أن هذا الموقف رواه أمين الحسيني في مذكراته ما صدقته! (راجع هذا المقال)

منها مثلا أن أحمد لطفي السيد –أستاذ الجيل "العلماني" في مصر- اقترح في 1912 أن تنفصل مصر عن الدولة العثمانية وأن تتخذ لها علما غير علم الخلافة ويعلن الخديوي ملكا مستقلا ويدعم الإنجليز هذا الاستقلال بالاعتراف به المفاجأة هنا أن الخديوي قبل الفكرة مسرورا ولكن الذي رفضها كان اللورد كتشنر المندوب السامي البريطاني، والذي قال: "لقد بسطنا يدنا لتركيا، فبصقت عليها، وولت وجهها شطر ألمانيا، ولو أنها كانت قبلت مودتنا لتغير الموقف كثيرًا، ومع هذا فإني لا أجد الوقت مناسبًا لقبول فكرتك" (قصة حياتي، ط هنداوي، ص81).

منها أيضا أن الإنجليز احتلوا أطراف جزيرة العرب، وسيطروا فعليا على كل المياه المحيطة بها: البحر الأحمر وخليج عدن والخليج العربي، ومع هذا لم يفكروا فيما فكر فيه البرتغاليون من قبل: احتلال الحرمين وتدمير الكعبة ونبش قبر النبي (صلى الله عليه وسلم)، رغم أن ميزان القوى في أواخر القرن التاسع عشر لم يكن يمكن فيه المقارنة بين العتاد البريطاني والوضع في الجزيرة العربية ومصر، ورغم أن كلا طرفي الحرب في الجزيرة العربية (عبد العزيز بن سعود والشريف حسين) كانا متعلقين بالتاج البريطاني، كل منهما يريد أن يكون الأثير عند الإنجليز قبل صاحبه.

وقبل هذا الدخول الناعم للإنجليز إلى مصر، واعتمادهم طريقة الاحتلال المتواري بدلا من الاحتلال الصريح، وإبقائهم نظام محمد علي وعرش الخديوي، وإبقائهم مصر تابعة بالاسم للسلطان العثماني، ولم يعلن الإنجليز احتلالهم لمصر إلا بعد أكثر من ثلاثين عاما حين خاضوا الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية، ونشروا بيانا في مصر يعلنون فيه أنهم يرضون من المصريين بالوقوف على الحياد لما هو مشهور عنهم من الارتباط بالسلطان العثماني والتعظيم لمكانته الدينية.

قبله أيضا الدخول الناعم لنابليون الذي زعم أنه مسلم وأنه أكثر إيمانا من المماليك وأنه أكثر ولاء للسلطان العثماني منهم، وأن من دلائل إيمانه أنه دمر كرسي النصرانية في الفاتيكان والتي لطالما حاربت الإسلام وشنت عليه الحملات الصليبية.

يمكن أن نفسر كل هذا بأنه نوع من المكر والدهاء، وأنه نتيجة الاستشراق الذي حاول استثمار الطرق المثلي لإيقاعنا في براثن الاحتلال دون كبير خسائر، لكن هذا نفسه دليل يُستدل به على أن طاقة الأمة كانت ولا تزال تثير المخاوف وهي في أقصى حالات ضعفها حتى ليضطر المحتل المدجج بالسلاح الرهيب أن يسلك سبيل المخادعة والمناورة والتطمين.. إن من لا خطر منه ولا خشية لا يجتهد أحد في أن يتخادع له!

ولذلك تنشط الحركة البحثية الغربية في دراسة الحركات الإسلامية وتهديداتها المستقبلية وقدرتها الحقيقية على تجاوز وتهديد ميزان القوة في المنطقة، ويقرأ المرء في الدراسات الغربية عمقا ونضجا وجدية لا يصل البحث في العالم العربي إلى 1% منها، وقد طالعت قبل أيام دراسة ترصد حركة المراكز البحثية الغربية في تقييم احتمال امتلاك تنظيم الدولة أسلحة دمار شامل، ومع أن نتائج الدراسات انتهت بعد بحث في الاحتمالات والوسائل إلى أن احتمالية امتلاك التنظيم لسلاح دمار شامل تساوي صفرا، إلا أن خبراء آخرين عقبوا بأنه لا بد من الوضع في الاعتبار أن هذه التقديرات متفائلة وأنه لا يمكننا أن نعتمد على تقديرات متفائلة، فانتهوا إلى التوصية بضرورة وضع هذا الاحتمال في الاعتبار. وهكذا لم يسلم القوم من الخوف رغم أن نتائج البحوث انتهت إلى نتيجة مطمئنة.

منذ فشل نابليون، ومرورا بتقرير اللورد دفرين (أول حاكم بريطاني لمصر) وحتى مذكرات ثعلب السياسة الأمريكية هنري كيسنجر، يبدو أن الغرب يعتمد على طريق مفضل في تنفيذ أهدافه دون إثارة وتهييج الشعور الإسلامي: طريق الحكومات العميلة. فنابليون لما فشل في الحفاظ على مصر أوصى القنصل الفرنسي في مصر بالبحث عن رجل لفرنسا فوجد غايته في محمد علي، وحمل تقرير دفرين عبارة تقول: "لا يمكن المحافظة على النظام في القطر المصري إلا بتأديب أهله بواسطة أستاذ من الأجانب وبالسوط الوطني"، وفي مذكرات كيسنجر حديث طويل عن ضرورة

دعم الأنظمة "المعتدلة" والعمل على جذب واستقطاب الأنظمة حتى تصير "معتدلة" أو إسقاطها، فلا مكان لأنظمة متشددة!

ومنذ تقارير المستشرقين في مطلع القرن التاسع عشر وحتى الآن تتردد عبارة ذات معنى واحد وإن اختلفت الألفاظ: المارد الإسلامي يقوم، والعالم الإسلامي يتململ ويوشك أن يستيقظ. والخلاصة صرح بها جورج فريدمان –مدير ستراتفور، الأهم ضمن مراكز البحث والاستشارات- في أن الغرب سيحارب المسلمين جميعا طالما أنهم لم يخترعوا بعد الجهاز الذي يفرق بين المعتدلين والمتطرفين! وهذه لا شك نفسية خائف متوجس!

إننا أمة قوية.. حتى ونحن في أشد حالات ضعفنا! وما تلك الحروب المستعرة التي لا تخمد إلا وجه من تلك الحقيقة.. فالموتى لا يُحاربون، وقد قال ربنا لنا (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله)!!

نشر في مدونات الجزيرة

من مآثر الأتراك في رمضان (4) حماية فلسطين

هذا ختام مقالات رمضان، أعاده الله علينا وعليكم بالنصر والتمكين، في هذا الموقع، وقد اخترنا أن تكون تذكيرا بمآثر الأتراك التي جرت في رمضان، فاخترنا منها أربعة مآثر في أربعة أحوال مختلفة؛ فأولها: القضاء على تمرد بابك على يد العسكر الترك الذين كانوا جند الخلافة العباسية وهو التمرد الذي أزهق أرواح ربع مليون مسلم، وثانيها: القضاء على الدولة الشيعية البويهية على يد دولة تركية فتية هي الدولة السلجوقية حين صار الترك أصحاب دولة مستقلة لها موقع على خريطة القوى الإقليمية والعالمية، وثالثها: فتح بلجراد حين صار الترك على ذروة العالم الإسلامي في عصر عظمة الدولة العثمانية، واليوم نتناول الرابعة: وهي مأثرة في زمن الأفول والغروب، فلقد أبى المسلمون الترك أن يفرطوا في فلسطين، ومهما قيل في تقييم شخصية السلطان عبد الحميد فإن سيرته في ملف فلسطين إنما هي صفحة ناصعة جليلة، يزيد في نصوعها وجلالها أنه لم يأت بعده حاكم إلا وهو بين حالين: الإهمال أو الخيانة، والثانية أفشى وأطغى.

في مثل هذا اليوم (26 رمضان 1310 = 13 إبريل 1893) أكدت الخلافة العثمانية في وجه الضغوط الإنجليزية على قراراتها التي سبق أن أصدرتها لمنع اليهود من الاستيطان في فلسطين، وأوضحت أن ما أصدرته من فرمانات لمنع اليهود من الهجرة إلى فلسطين ومنع بيع الأراضي لهم لا علاقة له بالاضطهاد الديني وإنما يستهدف "منع اليهود من الإقامة الدائمة في فلسطين"، وكان هذا التأكيد بمثابة رد جازم على احتجاجات واسعة اشترك فيها القنصل البريطاني نفسه وحولها إلى أزمة دبلوماسية! ولم يستثن القرار العثماني أحدا من اليهود ولا يهود بريطانيا أنفسهم!

كان هذا القرار واحدا من سلسلة المقاومة العثمانية الطويلة للوجود اليهودي في فلسطين، فلقد كانت بداية القصة مبكرة!

(1)

تبدأ القصة من الشعور المتجذر لدى اليهود بأنهم في منفى وغربة يلهبها حلم العودة إلى الأرض المقدسة التي نُفُوا منها[1]، وقد نتج عن هذا الشعور محاولات متكررة فردية وجماعية، وما كان

لمثل هذه المحاولات أن تنجح إلا بظهور حركة قوية تُدخل نفسها في سياق دولي وتضع نفسها في معادلة القوى كخادم لبعض أطرافها، وهو ما تحقق أخيرا بالحركة الصهيونية التي ما كان لها أن تنجح إلا في ظل انهيار الدولة الإسلامية (العثمانية في تلك اللحظة التاريخية) حين وضعت نفسها كرأس حربة للمشروع الصليبي[2]!

يتحدث كتاب "تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية" (ص509 وما بعدها)، وهو مجموعة دراسات كتبها مؤرخون يهود، عن فرمان من السلطان العثماني سليم الأول (فاتح مصر) أو ابنه سليمان القانوني بمنع اليهود من الاستيطان في سيناء، ولا ندري بالضبط الظروف التي اضطرت الخلافة لإصدار هذا الفرمان، ولكن لا ريب أنه رُصِدت حركة استيطانية مبكرة في سيناء فووجهت بهذا الإجراء. ثم كان هذا الفرمان قانونا يستنجد به رهبان دير سانت كاترين لمواجهة أي محاولة استيطانية يهودية متكررة[3].

هذه هي أول واقعة نستطيع رصدها في تاريخ الدولة العثمانية لمواجهة الحركة اليهودية نحو سيناء أو فلسطين.

(2)

لم يتجدد الطموح في فلسطين إلا ين ضعفت الدولة العثمانية:

وأول ما يطالعنا في هذا الشأن بيان نابليون بونابرت زمن الحملة الفرنسية والموجه إلى اليهود بأنه قد انفتح الطريق لهم أمام العودة إلى عاصمتهم أورشليم، وتذكر بعض الوثائق كيف أن نابليون هو أول من فكر في استخدام اليهود كرأس حربه للمشروع الصليبي، يمهد بهم طريقه في الشرق. إلا أن بعض البحوث تشكك في كل هذا وتنسبه إلى ادعاءات الصهيونية العالمية التي حاولت إيجاد مبررات ودلائل وسوابق تاريخية للتفكير الأوروبي في دولة يهودية بفلسطين، في إطار حثها بريطانيا على تبني مشروع الدولة اليهودية[4].

ثم زاد ضعف الدولة العثمانية أمام محمد علي الذي استطاع احتلال الشام، الذي خضع للحكم المصري بين عامي (1831 – 1840)، وفي تلك الحقبة اتسع النفوذ الأجنبي في الشام كما هي سياسة محمد علي في فتح الأبواب للأجانب، وكان أبرز هذه المظاهر: السماح للأجانب بتملك وشراء الأراضي والسماح بالإقامة الدائمة والسماح بالنشاط والتبشيري، ثم كان أهم هذه المظاهر قاطبة: افتتاح قنصليات أجنبية، وقد كان من ضمن مهمات القنصليات الأجنبية في القدس حماية الأقلية اليهود (وكانت الأقليات في هذه الفترة شعار وسبيل التدخل في الشؤون العثمانية، فتكلفت روسيا بحماية الأرثوذكس وفرنسا بحماية الكاثوليك)، وكان أهم هذه القنصليات هي البريطانية التي كانت أقوى دولة في العالم وقتها. وافتتحت في القدس عام 1838م.

وفي هذه الفترة تأسس مشروع كبير لتوطين اليهود في فلسطين حمله موشيه مونتفيوري إلى الباشا يقضي بتأجير من 100 إلى 200 قرية لخمسين سنة، مع دفع الأعشار مقدما وبزيادة 10 – 20%، وقد وافق الباشا فعلا، إلا أن تطور السياسة منع من اكتمال المشروع، إذ أُجبر محمد علي على ترك الشام والاكتفاء بمصر بعد مؤتمر لندن 1840.

ويرصد تقرير فرنسي (من عميل يدعى جول دي برتو مرفوع إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ نوفمبر 1840) يقول بأن بريطانيا إنما أصرت على تخلي محمد علي عن الشام بأنه تدبير منها لإنشاء دولة يهودية، ورصد التقرير وجود بعثة بريطانية برئاسة الدكتور "كايت" مؤلف كتاب عن "تحقيق النبوءات". ومنذ ذلك الوقت ظهرت فكرة الدولة اليهودية على الصحافة فكتبت التايمز مقالا بعنوان "سوريا وبعث اليهود" (17/8/1840)، وجاء في رسالة من السياسي البريطاني شافتسبري لوزير الخارجية بالمرستون (بتاريخ 25/9/1840) أن أرخص وأضمن وسيلة لجعل سوريا منطقة بريطانية هي توطين اليهود[5]. وكانت بريطانيا تواقة لأن تكون لها أقلية تحمي مصالحها وتكون سبيلا لنفوذها الداخلي كما للروس مع الأرثوذكس والفرنسيين مع الكاثوليك.

(3)

ثم كانت الأزمات الكبرى في هذا الملف حين وصل ضعف الدولة العثمانية إلى غايته، وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد ورثها، في ظل التوحش الصليبي والأطماع اليهودية التي صارت علنية بقيادة تيودور هرتزل. وحيث كانت الخلافة العثمانية ضعيفة لا تقوى على حسم الأمور بالسيف فقد صارع عبد الحميد وبذل أقصى مجهوده على مستوى السياسة ومحاولة الدخول على خط التنافس الداخلي الأوروبي ليستعين ببعضهم على بعض.

ومن قبل عبد الحميد، أصدر السلطان عبد العزيز أمرا بتحويل القدس إلى "متصرفية" تتبع الخلافة مباشرة بدلا من كونها "سنجق" ضمن ولاياتها تخضع لإدارة محلية، ثم جاء عبد الحميد فأصدر قرارا (25 ربيع الثاني 1308 = 7 ديسمبر 1890) بثبيت وضع الأراضي في القدس كأراض أميرية يُحظر البيع والشراء فيها، واشترى كثيرا من أراضي فلسطين من أموال الخزانة الخاصة للتضييق على تمدد الشراء الأجنبي، ورفض منح الجنسية العثمانية لعدد من اليهود، وأصدر عددا من الفرمانات والقرارات التي تحول دون بيع الأراضي لليهود في سائر الدولة العثمانية وفي فلسطين على وجه أخص. ورغم العرض السخيّ الذي تقدم به هرتزل لسد العجز في ميزانية الدولة، مع الدعم الإعلامي، وهو العرض المصحوب بضغوط أوروبية سياسية، إلا أن السلطان فضَّل أن يخلد في التاريخ، وقد فعل، وكان موقفه هذا –بالرغم من كل ما يُدان به في سياساته الأخرى- صفحة ناصعة في تاريخه وتاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الأتراك المسلمين[6].

نشر في تركيا بوست

---

[1] د. عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (الموجزة)، دار الشروق، مصر، الطبعة الثالثة، 2006م، 1/68 وما بعدها.

[2] كان جعل اليهود رأس حربة للمشروع الصليبي، أو بتعبير المسيري "جماعة وظيفية للغرب"، من أركان دعاية الحركة الصهيونية، ونسبت ذلك لكل قائد غربي حتى الإسكندر الأكبر. انظر: هنري لورنس: بونابرت والدولة اليهودية، ترجمة: بشير السباعي، دار مصر العربية، مصر، الطبعة الأولى، 1998م. ص45، 51.

[3] انظر:

- يعقوب لانداو (تحرير): تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية، ترجمة: جمال الرفاعي وأحمد حماد، المركز القومي للترجمة، مصر، 2000م. ص509 وما بعدها.
- إسماعيل أحمد ياغي: الدولة العثمانية في التاريخ الحديث، مكتبة العبيكان، السعودية، 1995م. ص246 وما بعدها.

[4] هنري لورنس: بونابرت والدولة اليهودية ص52 وما بعدها.

[5] رفيق شاكر النتشة: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1991م. ص83.

[6] انظر:

- رفيق شاكر النتشه: السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين ص48 وما بعدها.
- أحمد آق كوندوز وسعيد أوزتوك: الدولة العثمانية المجهولة، وقف البحوث العثمانية، الطبعة الأولى 2008 م. ص448 وما بعدها.
- مروان عبد الرحمن أبو شمالة: الاستراتيجية الصهيونية تجاه مدينة القدس، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، 2012. ص108 وما بعدها.

بطولات الإخوان في مصر وفلسطين

لا نزال مع كتاب "التنظيم الخاص حقيقته ودوره في دعوة الإخوان المسلمين" لمؤرخه والقيادي فيه محمود الصباغ، ضمن سلسلة "مكتبة الثائر المصري" التي نقدم فيها خلاصات كتب مفيدة من علم الاجتماع السياسي والتجارب الثورية وغيرها، وهذا هو الجزء الرابع بعد الأجزاء: الأول، الثاني، الثالث.

نستكمل خلاصات الكتاب على لسان المؤلف:

35. من أكبر عمليات النظام الخاص: نسف سكة حديد تغذي المعسكر البريطاني في منطقة القرين بالشرقية، إذ استطاع عشرة من شباب الجامعة تنفيذ عملية نسف الخط، ثم تجهيز كمين للمهندسين الإنجليز الذين سيأتون لإصلاحه، وقد فعلوها بنجاح وأوقعوا بهم خسائر كبيرة، ثم استمر ثلاثة منهم في أماكنهم ولم ينسحبوا طبقا للتعليمات لما شعروا به من شهوة النصر فهاجموا القوات البريطانية التي أتت كمدد جديد وأوقعوا بها خسائر كبيرة، فتكاثر مدد الجنود الإنجليز وانضم لشباب الإخوان شباب من القرى، وتعاونت نقطة الشرطة ففتحت الجسر الموصل للبلدة لعرقلة الأمداد البريطانية، وانتهى الأمر بالانسحاب مع كثافة المدد الإنجليزي واستشهد ثلاثة من شباب النظام الخاص في الجامعة وأُسِر آخرون. لكن هذه المعركة كانت حديث الصحافة البريطانية التي صارت تتحدث عن "قوات التحرير المصرية".

36. ومن عمليات النظام الخاص تفجير مخازن البترول التي يسيطر عليها الإنجليز بجبل عتاقة بالسويس، وهي العملية التي نفذها رجل واحد بمفرده واستمرت الانفجارات ليومين لا يستطيع الإنجليز السيطرة عليها، وخرج المنفذ سالما. ومن العمليات: مهاجمة مطار الدفرسوار ومطار كسفريت لتعطيل الطيران الإنجليزي فنجحت الأولى ولم تنجح الثانية، واغتيالات لضباط إنجليز ومحاولات اغتيال قادة كبار، ونسف جسور أنشأها الإنجليز لتأمين خطوط قواتهم، ومهاجمة دوريات إنجليزية وقوافل عسكرية تحمل الجنود بما في ذلك القطار الحربي المحمل بالأسلحة والذخائر، وفي بعض هذه العمليات نشرت صحافة الإنجليز أن مستوى العمليات يؤكد وجود قوات ألمانية ويوغسلافية في صفوف المقاومة المصرية.

37. كانت تقارير النظام الخاص التي ترصد الإنجليز تؤكد أن ما يقومون به من تحصينات يؤكد أنهم لا ينوون الجلاء وأن مفاوضاتهم على الجلاء عبثية، ولولا المقاومة الباسلة لم يخرجوا.

38. المجاهدون "ما إن خرجوا من معركة فلسطين حتى دخلوا سجون إبراهيم عبد الهادي لترسم كرابيج زبانيته على أجسامهم نياشين الصبر والثبات على العقيدة، فخرجوا من سجونهم في أواخر 1951م ليلهبوا ظهور المستعمرين بهذا السيل من عمليات الفداء".

39. أما العمليات التي قام بها النظام الخاص وعُرف فيها الفاعل فمنها: اغتيال النقراشي بعد خيانته العظمى بتمكين الصهاينة في فلسطين وطعن المجاهدين وحلّ الجماعة وشحن السجون بالصالحين. ومنها محاولة اغتيال خلفه وشبيهه في الإجرام والخيانة إبراهيم عبد الهادي.

40. فرَّ أمين الحسيني –مفتي فلسطين- من محاكمات الحلفاء باعتباره كان داعما لهتلر وحضر إلى القاهرة وأعطاه فاروق حق اللجوء إذ كان بينهما تعاون قديم ضد الإنجليز، وسمح له بالعمل لنصرة قضية فلسطين ومنع تسليمها لليهود، فاتصلت العلاقة بينه وبين الإخوان المسلمين لهذا الغرض، وكانت الخطة الأساسية هي تسليح الفلسطينيين ليكونوا قادرين على مواجهة العصابات اليهودية، وليس ثمة حاجة لمتطوعين إلا بحدود بسيطة ولا ينبغي أن تدخل الجيوش العربية لفلسطين بل تظل عند الحدود.

وعلى جهة أخرى أسقط الشعب –والإخوان في طليعته- حكومة إسماعيل صدقي اعتراضا على مشروع صدقي بيفن الذي يُمَكِّن لوضع الاحتلال، وقبلوا بوزارة النقراشي رغم تاريخه السيئ لإعلانه خطة قطع التفاوض مع الإنجليز وعرض القضية على الأمم المتحدة، واستفاد الطرفان من بعضهما، أما الإخوان فقد دعموا الوزارة في مجلس الأمن ضد مناورات الوفد التي حاولت تعطيله، وأما الوزارة فقد سمحت بالعمل في دعم القضية الفلسطينية على كافة المستويات بما فيها جمع وشراء وتخزين ونقل السلاح والتدريب عليه، وأُفرج عن عدد من الإخوان الذين ألقي القبض عليهم أثناء جمع السلاح أو التدرب عليه، وحفظت الحكومة تحقيقات في بعض عمليات النظام الخاص ضد اليهود، وكنتُ مسؤول جمع السلاح الباقي من حرب الحلفاء في الصحراء الغربية وإعادة تهيئته للاستخدام مرة أخرى.

41. نشأت بيني وبين عبد القادر الحسيني –القائد العام للقوات الفلسطينية في **1948**- مودة عميقة إثر تعاوننا ولقرب عقلياتنا ومنازلنا، والصورة المشهورة له إنما هي صورة أهدانيها ثم نشرتها بعد استشهاده، وكان حلمه تحرير فلسطين ثم إكمال الجهاد لتحرير بقية البلاد العربية المحتلة.

42. قرر البنا دخول الإخوان لفلسطين، وأبدى عزمه أن يقود المتطوعين من الإخوان بنفسه، لكن القرار كان أن يكون الدخول على دفعات، وأن أكون أنا قائد الدفعة الأولى من المتطوعين الذين بلغوا المائة، وكان فيها الشيخ سيد سابق.

43. كان التعاون قائما بيننا وبين الحكومة وجيشها، لكنني حينما طلبت خرائط فلسطين من قائد المخابرات العسكرية لمنطقة سيناء سلمني نسخة من الخرائط الإنجليزية التي لم تُحدَّث منذ ثلاثين سنة هي عمر الاحتلال الإنجليزي والتي تغير فيها كل شيء تمهيدا لإقامة الدولة اليهودية.

44. نقلت إلى المرشد الوضع، وكان اقتراحي الاقتصار على عمليات فدائية موجعة ضد اليهود طبقا لإمكانياتنا، لكنه كان يأمل في أكثر من هذا، فتقرر أن نضاعف الجهود في جمع السلاح وتحريض الشباب على الجهاد، فاضطررت للعودة إلى القاهرة لهذا العمل وتولى قيادة المتطوعين بدلا مني الشيخ محمد فرغلي.

45. أول معركة خاضها الإخوان كانت ضد مستعمرة دير البلح، ولكنهم لقلة عددهم لم يتمكنوا من احتلالها، وأسفرت عن استشهاد اثنا عشر وجرح خمسة، ولم يستطع اليهود إلا الاستغاثة بالإنجليز الذين حضرت دبابتهم ورفعت الراية البيضاء وأوقفت المعركة، ولكن القائد الإنجليزي لما رأى ما حدث دُهِش وقال: "لقد كنت في فرقة الكوماندوز البريطانية ولم أشهد جرأة كالتي رأيتها الآن، لو كان معي ثلاثة آلاف من هؤلاء لفتحت بهم فلسطين"!

وكان من ضمن المتطوعين أب وابنه وابن أخيه، ثلاثة تطوعوا واشتروا سلاحهم على نفقتهم، وجاهدوا. لكم خسرت الأمة بعدم تطبيق الشريعة، إن الناس في ظل القوانين الوضعية يتهربون من التجنيد على الرغم من التكاليف الباهظة التي تنفق على الجيوش، بينما في ظل العقيدة الإسلامية

يتدفق الرجال والنساء والأطفال يتسابقون للتطوع والقتال. إن معارك الإخوان لم تشهد فارًّا واحدا ولا متخاذلا واحدا، ولكنه التنافس على المهمات الخطيرة والعمليات الفدائية.

46. لم يقتصر دور الجيوش العربية التي دخلت إلى فلسطين على تعطيل الخطة الناجعة بتسليح الفلسطينيين أو بعمليات الفدائيين، بل دخلت وأعلنت الهزيمة وقبلت الهدنة فجعلت من إسرائيل حقيقة واقعة، والأنكى من ذلك أن الجيش المصري كُلِّف باعتقال جميع المجاهدين من الإخوان، وقررت الحكومة حل الجماعة، واغتالت الإمام حسن البنا.

47. رأينا بأنفسنا عددا من المعجزات التي وقعت للمجاهدين، وكيف كان الرصاص يتناثر حولهم لا يصيبهم، بل كيف كان يخترق ملابسهم عند الحواف لكن لا يخترق أجسادهم، هذا فضلا عن الإنجاز المذهل كأن يقوم عشرون رجلا بما عجزت عنه كتيبة كاملة بمساعدة الطيران والمدفعية، وفضلا عن القرارات الاستشهادية التي سحقت قوات العدو.

إلى هنا انتهت المساحة المخصصة، ونواصل المقال القادم إن شاء الله.

نشر في مدونات الجزيرة

في ذكرى استشهاد شيخ المجاهدين

قبل سبع وعشرين سنة (24 نوفمبر 1989م)، اغتالت يد الشر والإجرام شيخ المجاهدين العرب في أفغانستان، إذ انفجرت سيارة الشيخ وهو ذاهب لأداء صلاة الجمعة، لتُخْتَمَ حياةٌ حافلة بالبركة، علما وعملا، تأليفا وجهادا، فنال الشهادة وهو ما يزال في السابعة والأربعين من عمره، وبذلك يوضع اسمه بين العمالقة الكبار الذين بارك الله في أعمالهم، فجاءوا في الأمد القليل بالعمل الجليل.

وقد أراد أهله وأصحابه أن يجموا تراثه من التأليف، فجمعوا له ما ألفه في عشر سنين، وعجزوا عن أن يجدوا آثارا أخرى له من الكتابات والمحاضرات ألقاها في أوروبا وأمريكا والخليج وغيره، وبالرغم من هذا فإن الذي جُمِع ملأ أربع مجلدات كبيرة، في نحو أربعة آلاف صفحة، كل صفحة حُشِد فيها الكلام وضُيِّق حتى يصغر الحجم، فلو أنها طبعت في نحو ما تطبع به المجلدات في العادة فلن تقل بحال عن عشرين مجلدا!!

جمعت هذه المجلدات حديثا في العقيدة وفي الفقه وفي التاريخ، وكان أعظم شأنها ما كُتِب في الجهاد وفقهه وأحواله وبناء المجاهد ونحو ذلك.

من لم يعرف مؤلفها لم يشك أبدا في أنه كان متفرغا للعلم وطلبه والعكوف على أوراقه وكتبه، ثم تأتي المفاجأة حين تعرف أن صاحب هذا العطاء العلمي الضخم هو رأس الجهاد في عصره، وعلم من أعلام الجهاد منذ زمنه وإلى ما شاء الله..

إنه الشيخ الشهيد: د. عبد الله عزام.

فلو أنه لم يكتب حرفا لما لامه أحد، ولو أنه كان مُقِلاً لم يَعِبْ عليه أحد، أما وهو من هو في الجهاد ثم يترك هذا الإرث الغزير من العلم فتلك هي الهمة.. تلك هي الهمة!

ولعلها من بركة الجهاد عليه أن تَرَكَ -وهو إمام الجهاد- ما لم يتركه إلا النادرون من العاكفين على الكتب والورق!!

على أن أهم ما في هذا التراث هو رشده ونضجه، فالرجل العالِم حين يخالط أحوال الجهاد والمجاهدين يستطيع أن يضع يديه على الثغرات وأن يعالجها، والواقع أن جانبا عظيما مما تُنكب فيه الحركات المجاهدة أنها لم تطلع ولم تتشرب التجارب الجهادية السابقة، ولا تعاملت بالتوقير المطلوب مع تراث شيوخ المجاهدين، فتكررت كثير من الأخطاء التي كررت معها مزيدا من الأزمات.

ونحن نستثمر هذه الذكرى في إلقاء ضوء على بعض أقواله، مثيرين بهذا شوق من لا يعرفه وعزم من يعرفه على النهل من تراثه الثرّ المجموع تحت عنوان: "الذخائر العظام فيما أُثِر عن الإمام الهمام الشهيد عبد الله عزام".

(1) ليت الجيوش العربية ما دخلت فلسطين

"ليت الدول العربية ما دخلت فلسطين، لأنها دخلت لتسلم الأراضي لليهود وصيانة نبتتها الناشئة من أعاصير الرياح الإسلامية التي يمكن أن تعصف بها، وما خدع شعب أو ظلم أكثر من الشعب الفلسطيني. فلقد دخلت الجيوش العربية لتسليم الأراضي لليهود، وكان دور الأسلحة الفاسدة التي أرسلها الملك فاروق جد مدمر للنفسية العربية والإسلامية. وكذلك قام الجيش العراقي بالدور الموكل إليه على الوجه الأكمل وكلمته التي كان يرددها كلما استنجد الشعب الفلسطيني به (ماكوا أوامر) لا زالت مرارتها تسري لهيبا في دماء أبناء فلسطين.

وأما الجيش الأردني فحَدِّثْ عن دور قائده الإنجليزي الجنرال كلوب باشا ولا حرج، فقد جاء ليستلم مواقع المجاهدين من الإخوان القادمين من مصر، وقد كان القائد الأردني الذي يستلم مواقع مار الياس اسمه عبد القادر يسير مع موسى دايان ليسلمه الخنادق والمراكز الواحد تلو الآخر، وكان حسين حجازي القائد المصري من الإخوان المسلمين قد رفض أن يسلم مواقع مار الياس إلى سبعة من الجيش معهم شاويش فصاح حسين حجازي بالشاويش (انصرف راجعا) كيف تحمون موقعا فيه ثلاثمائة مجاهد واثنا عشر ضابطا بسبعة من الجنود؟ وهنا ظن عبد القادر أن حسينا من أبناء فلسطين فشتم أبناء فلسطين قائلا: أنتم خونة بعتم أرضكم!!... ولذا فعبد القادر -بعد المؤامرة التي مزقت هذا الشعب وباعت أرضه وعرضه ودمه- يقول: أنتم خونة أيها الفلسطينيون، وقد كان بجانبه دايان يسلمه عبدُ القادر الموقع تلو الموقع!!.

وبعد أن قامت الجيوش العربية بدورها المحدد -وهو تسليم الأرض لليهود- قامت كثير من الألسنة تلوك أعراض أبناء فلسطين الممزقة، وتنهش لحومهم بعد أن مزقتها بالحراب"[1].

(2) دروس من أرض الجهاد

أدركت أن التربية ركن ركين وجزء أساسي في الإعداد لأي عمل جهادي، وقبل امتشاق الحسام وانتضال السلاح، ولا يمكن للنفس المقصرة أن تتسلق إلى قمة سنام الإسلام وهي عاجزة عن صعود أولى درجات السلم، ولئن قفزت فوصلت فإنها لا تستطيع الصمود، فإن استطاعت بطاقة اندفاعها وحماسها على الصعود فإنها لا تطيق طويلا الصمود، وعندها تسقط من فوق القمة.

وبالمعايشة مع الإنصاف يمكن أن تذوب كثير من الخلافات بين الجماعات وتنصهر الطاقات من شتى المآرب والدعوات في بوتقة العمل الواحد، وعلى حرارة الأحداث وسخونة الوقائع والمشكلات.

وبالمعايشة فوق أرض المعركة تبددت كثير من الأوهام، وزال كثير من الغبش واللبس الذي نشأ في الظلام، وأدرك الإنسان أن العمل الجدي الواقعي غير الأحلام العذبة التي تداعب الخيال، وإن الآمال لا بد لها من عظام الرجال لينقلوها إلى وقائع وأفعال.

وبالتجربة الحية الواقعية أدركت أن الجماعات الإسلامية يكمل بعضها بعضا، ولا غنى عن التعاون على البر والتقوى، ولا يمكن لأي حركة أن تقيم مجتمعا إسلاميا بدون الاستفادة من طاقات المسلمين، وأن تكسب كل ذرة خير تستطيعها في صالح العمل الإسلامي ابتغاء مرضات الله![2]

(3) مراعاة الحاضنة الشعبية

"إن مراعاة المذهب الحنفي من قبل المجاهدين العرب أمر ضروري وشرط أساسي لنجاحهم داخل أفغانستان، ولا يمكن للعربي أن يصل إلى قلب الأفغاني إلا إذا احترم دينه، والدين في ذهن الأفغاني متمثل في المذهب الحنفي، فمن خالفه فإنما يخالف الإسلام نفسه، وأي عربي يخالف المذهب

الحنفي فإنما هو وهابي، والوهابية في نظر الأفغاني العامي إنما هي طائفة من الطوائف الضالة الخارجة عن الملة الإسلامية كالنصيرية والقاديانية والدروز والإسماعيلية، ولقد عملت عوامل كثيرة على تعميق هذه النظرة تجاه الوهابية، وهذه العوامل ذات جذور تاريخية تمتد قرونا.. على رأسها:

1. الخلاف بين الدولة العثمانية وبين الوهابية، والدولة العثمانية لها احترام كبير في نفوس الهنود والباكستانيين والأفغان، لأنها دولة الخلافة ومنار الإسلام.
2. الإعلام البريطاني الذي مكث فترة طويلة يعمق هذا الشرخ ويزيد هذه الهوة، ولا زالت إذاعة بي بي سي تبث سمومها يوميا لهدم الثقة بين العرب والأفغان.
3. الصوفية التي كان لها سيطرة على نسبة من الناس.
4. الشيعة، وهؤلاء سواء في إيران أو في داخل أفغانستان لا زالوا يضربون بمعاولهم ويحاولون أن يهدموا الصلة بين العرب والمسلمين في أفغانستان وباكستان وغيرها.

ولأجل هذا كله فقد كنا نرجو الإخوة العرب أن يتركوا بعض هيئات الصلاة المخالفة للمذهب الحنفي، وفي هذا فتاوى كثيرة من العلماء وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل والإمام مالك وابن تيمية"[3].

أقول: ما يزال هذا الكلام مفقودا في الساحات الجهادية للأسف الشديد، وقد تسبب فقدانه هذا في أزمات عديدة بعضها لم يعد بالإمكان جبره!!

نشر في المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية

---

[1] عبد الله عزام، موسوعة الذخائر العظام، ط1 (بيشاور: مركز الشهيد عزام الإعلامي، 1997م)، 1/835.
[2] السابق 2/ 728، 729.
[3] السابق 2/727.

أسطورة المجاهدين .. أحمد ياسين

كان كُثَيِّر بن عبد الرحمن الخزاعي شاعر فحل، وهو من أشهر شعراء العرب لما أنشده في محبوبته عزة حتى لقد عُرِف باسم "كُثَيِّر عزة"، وكان ضعيفا نحيفا قصيرا حتى وصفته كتب التراجم بأن طوله لا يتعدى ثلاثة أشبار، إلا أنه كان من صلابة النفس وقوة القلب بمكان يعرفه كل من قرأ قصة حبه.

دخل كثير يوما على عبد الملك بن مروان فاندهش لما رآه على هذه الحال، فأنشد كثير يقول:

ترى الرجل النحيف فتزدريه .. وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير إذا تراه .. فيخلف ظنك الرجل الطرير
بغاث الطير أطولها رقابا .. ولم تطل البزاة ولا الصقور
خشاش الأرض أكثرها فراخا .. وأمُّ الصقر مِقْلاةٌ نزور
وقد عَظُمَ البعير بغير لبٍّ .. فلم يَسْتَغْنِ بالعِظَمِ البعير
يُنَوَّخ ثم يُضرب بالهراوى .. فلا عرفٌ لديه ولا نكير[1]

ولئن كان كثير أجاد تصوير الأمر بموهبة شعره، فإن حديثنا اليوم عن رجل جعل الصورة حقيقة حية، كتبها بدمه، فجدد مسيرة المجاهدين الكبار الذين كان أولهم عند عبد الله بن أم مكتوم، ذلك الذي حمل الراية يوم اليرموك وهو أعمى ليكثر سواد المسلمين.

(1) أمة كالغيث.. يتتابع ولا ينقطع!

تلك أمة لا تموت.. بل يجدد المجاهدون فيها سيرة بعضهم، فلا يسقط مجاهد شهيدا إلا ويولد مجاهد ينتظر أن يكون شهيدا..

وُلِد أحمد ياسين بعد شهور من اغتيال الشيخ عز الدين القسام، أهم مقاوم للاحتلال الإنجليزي في فلسطين، وقد عايش وهو في الثانية عشرة من عمره ذروة النكبة الإسلامية الحديثة، التي هي سقوط فلسطين بيد اليهود المدعومين بالقوة الصليبية والمحاطة بالدعم الصليبي في البلاد العربية

المحتلة المحيطة بها: مصر والأردن وسوريا، وبهذا يكون وعيه قد تفتح في لحظة من أقسى اللحظات التي مرت على الأمة الإسلامية.

وعلى الرغم من أنه أصيب بحادث أثناء ممارسته للرياضة أسفرت عن شلل كلي وهو في الرابعة والعشرين من عمره؛ فإنه أكمل تعليمه وعمله بالتدريس؛ بل صار أشهر خطيب في غزة، فكان شوكة في حلق الاحتلال ودعمًا وسندًا لأهالي الشهداء والمعتقلين؛ بجمع التبرعات التي تحولت إلى أكبر جمعية خيرية في غزة، إلا أن الأهم في مسيرته هو تأسيس حركة المقاومة الإسلامية (حماس).

وإذن، فلقد كانت حياة أحمد ياسين هي ذاتها عصر العسكر في العالم العربي، أو هو عصر استيلاء عملاء الاحتلال على السلطة، وهي أسوأ لحظة مرت على الأمة الإسلامية عبر تاريخها، أسوأ من زمن الاحتلال نفسه.

ولئن كان كثير ممن أحيوا ذكراه قد سردوا قصة حياته، فقد آثرت أن أكتب ما قد يغيب عن كثيرين تذكُّره، وهو: خلاصة تجربة وأفكار الشيخ الشهيد أحمد ياسين، معتمدين في ذلك على الاقتباس من مجموعة حلقات "شاهد على العصر" التي بثتها قناة الجزيرة، والتي طبعت بعد ذلك في كتاب "أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة".

(2) الجيوش العربية وحكم العسكر

روى الشيخ أن الجيوش العربية كانت هي السبب في نكبة فلسطين، وذلك أنهم لما دخلوا إلى فلسطين كانوا يسحبون السلاح من الناس لئلا تكون في البلاد قوة غيرهم، فإذا جدَّ الجدّ وجاء وقت القتال مع اليهود انسحبوا وترك الناس وراءهم عزَّل من السلاح يواجهون مصيرهم، فكان اليهود يرتكبون مذبحة في قرية (صارت بلا سلاح) فيخيف هذا أهل القرى التي حولهم فينسحبون منها، وهكذا تمَّ لهم الاستيلاء على فلسطين بطريقة لم يكن ليتوقعها أحد.

لقد كانت المعارك سجالا بين الفلسطينيين واليهود، ينتصرون وينهزمون رغم الفارق الكبير في الأسلحة، ولكنهم يستعملون أسلحتهم في الدفاع عن أنفسهم أو في تنظيم هجمات على المستوطنات، أما بعد دخول الجيوش العربية فلم يكن إلا الهزائم.. والهزائم فقط.

ولهذا لم يعقد الشيخ أمله أبدا على الجيوش العربية في تحرير فلسطين، وإنما تركزت فكرته على تسليح المجاهدين، وهو يجزم بأن الجيوش العربية لو لم تدخل إلى فلسطين واكتفت بتقديم السلاح لتغير وجه المعركة تماما.

وروى الشيخ عددا من مشاهد بسالة المجاهدين المتطوعين من الإخوان المسلمين وغيرهم، وكيف أن أوامر الانسحاب لم تكن تأتي من قيادة المعارك بل كانت تأتي من قيادة الجيوش –وهي قيادة بريطانية- حتى لو كان الوضع على الأرض هو وضع انتصار صنعه المجاهدون المتطوعون!

كما روى عددا من مشاهد بسالة الجنود المقاتلين الذين قتلتهم قرارات السياسة في أرض المعركة، فذكر أن قائد سفينة حربية استطاع مناورة طائرة إسرائيلية حتى نجا بسفينته، وذكر أن من المشاهد المتكررة في نكبة 1967 أن ترى اثنين من الجنود يقاتلون ويصمدون في موقعهم أمام هجوم الدبابات والطائرات حتى ينالون الشهادة ولا يستسلمون!

إلا أن هذه الطاقات أبيدت وانتهت بسبب السياسة، فعبد الناصر الذي دفع بالأمور إلى حرب 1967 هو نفسه الذي قال –كما روى الشيخ أحمد ياسين- في خطبة أمام المجلس التشريعي الفلسطيني في مصر: "اللي بيقول لكم عنده مخطط لتحرير فلسطين بيكذب عليكم، وأنا قلت.. وأنا بأقول لكم.. إن قلت لكم عندي مخطط لتحرير فلسطين بأكذب عليكم"، وكان يرد بهذا على الملك حسين الذي قال: "لابد من مخطط عربي شامل ومدروس لتحرير فلسطين".

ثم يعَلِّق الشيخ على هذا بقوله: "طيب أنت اليوم قبل سنتين بتقول ما عنديش مخطط، وبعد سنتين صار مخطط وتواجه إسرائيل وبتجيب جيشك في سيناء، هو مش مستعد للمعركة، فالحقيقة يعني كان دخول غير مرتب، غير مستعد، غير مهيأ للمواجهة، وكانت النكبة زي ما أنت شفت يعني فادحة خالص، شفت في ست أيام تنتهي كل القوات اللي دخلت سيناء، كل الدبابات كل الإمكانات

مش موجود، يعني يمكن كان عندنا من مقاتلينا اتنين تلاتة في بيت.. بيت!! بيهاجموه بالدبابات وبالصواريخ، بيقعدوا 24 ساعة.. و 48 ساعة مش مِسَلِّمين إلهم".

(3) مواجهة الاحتلال

يروي الشيخ أن الاحتلال يبدأ في محاربة الناس بالحرب النفسية، وذكر أن الإسرائيليين قبل دخولهم إلى مكان يطلقون المنشورات التي تقول "سلِّم تسلم"، وقال بأنهم جمعوا الناس يوما في الساحة وقالوا: "سلموا أسلحتكم، ونحن سنفتش البيوت، والبيت الذي نجد فيه سلاحا سنهدمه". ثم دخلوا بيتين وفجروا فيهما قنبلتين صغيرتين، ففجروهما، فهدموهما، فلما رأى الناس هذا خافوا وأحضروا أسلحتهم وسلموها.

ويشير الشيخ إلى أن الاحتلال يريد أن يعامل الناس فرادى لا جماعات ولا في كُتَل، وبهذا يسهل له السيطرة عليهم.
وكان من عبقرية الشيخ رحمه الله أنه يحول المطاردين إلى عبء على المحتل، فيذكر أن واحدا من تلاميذه كان مطاردا فكان يقول له: أنت مطارد لم لا تعمل كل يوم عملية؟! فقال الشاب: ليس معي إلا هذه القنبلة! وفعلا حاصروه في مستشفى الشفا وجرت بينهما مواجهة فألقاها عليهم فقتلوه ومنعوا الإسعاف حتى استشهد نزفًا!

السؤال الآن: ترى لو كنا فقهنا دروس الشيخ هذه، هل كان ليحدث الانقلاب في مصر بهذه الصورة، وهل كان بالإمكان أن يحدث في رابعة ما جرى؟!

على كل حال، انتهت مساحة المقال ولم تنته الدروس، وإن شاء الله تعالى نكمل في المقال القادم خلاصة الشيخ في تأسيس حركة المقاومة وفي التعامل مع السلطة العميلة وفي التعامل مع عملاء الاحتلال.

نشر في ساسة بوست

---

[1] الطرير: عظيم الجسم، بُغاث الطير: أي الطيور الأليفة، البُزاة: جمع بازي من طائفة الطيور الجارحة، مقلاة نزور: قليلة البيض.
والمعنى: أن عظمة النفوس لا علاقة لها بالأجساد، فقد يحتوي النحيف على قلب أسد هصور، ويحتوي السمين على قلب جبان ضعيف، كما تطول أعناق البط والأوز فيما تقصر أعناق الصقور، وكما تكثر فراخ الدجاج والحشرات وتقل فراخ الصقور، وهذه الجمال عظيمة الأجساد لكن يتحكم فيها الإنسان البسيط فيقيمها ويقعدها بالضرب وهي لا تستنكر ولا تقاوم.

دروس من تجربة شيخ المجاهدين

"ونحن نرقب ذلك اليوم الذي يتحول فيه الحجر بأيدي حماس إلى رصاص، ويتبدل الحجر، وتحل القنبلة والبندقية".

عبد الله عزام – قبل استشهاده بستة أشهر

(1) شيخان

شيخان من فلسطين، ومن حركة الإخوان المسلمين، كان لهما نصيب الأسد من حركة الجهاد الإسلامي في النصف الثاني من القرن العشرين: عبد الله عزام، وأحمد ياسين!

وعزام أصغر من ياسين بأربع سنوات، لكن سبقه إلى الشهادة بخمسة عشر عاما، وكان عزام يلقب قرينه أحمد ياسين بـ "رمز صمود الحركة الإسلامية"[1]، وهما مثلان في علو الهمة وعظمة النفس، فالإنتاج الفكري لعزام ضخم كأنما هو إنتاج شيخ متفرغ للعلم مع أنه شيخ المجاهدين العرب في أعظم ملحمة جهادية في القرن العشرين (حرب أفغانستان)، وأما ياسين فقد صار مثلا في التاريخ: قعيد يؤسس حركة مقاومة في ظروف مستحيلة!

ومن المؤسف أن تراث الشيخين لا يُعامل بالاحترام ولا بالاهتمام اللائق به من شباب المسلمين، وفي القلب منهم شباب الحركات الإسلامية الذين يفورون بالغضب والطاقة، ولئن كان البعض يتهيب الإقدام على الإرث الكبير لعزام، فما هو عذر من يتخلف عن الاهتمام بالحلقات الثمانية الوحيدة التي تمثل خلاصة فكر وتجربة الشيخ أحمد ياسين؟! (وأعني بها: حلقات شاهد على العصر).

والشيخان امتداد أصيل لحسن البنا وسيد قطب، وكلاهما يعترف لكليهما بالفضل والأثر في نفسه وفكره، ولقد كتب عزام كتابا عن قطب سمَّاه "عملاق الفكر الإسلامي"، وكان ياسين يجتهد في شبابه لإدخال وتدريس الظلال إلى قطاع غزة بطباعته ونشره، ومن المثير للأحزان الآن القول: بأن نجاح الشيخين في عملهما هو بمقدار ما فارقا فيه النهج الذي صارت إليه الجماعة الأم في مصر، وهو ما سنرى بعضه بعد قليل، وربما نتعرض لبعضه الآخر في مقالات لاحقة.

وكنا قد وعدنا في المقال الماضي أن نستكمل بعض الدروس من سيرة وخلاصة تجربة الشيخ أحمد ياسين، فالله المستعان.

(2) مرحلة الاستضعاف

لم يقبل الشيخ ياسين أن تكون الحركة الإسلامية في أي وقت من الأوقات تحت تحكم السلطة العميلة أو حتى "رفاق الكفاح" (!!) العلمانيين، لو صحَّ التعبير، صحيحٌ أنه سعى ما وسعه الجهد ألا يثور اقتتال داخلي بين حماس وبين فتح أو سلطة فتح فيما بعد، إلا أنه في الوقت نفسه لم يُرق كرامته وكرامة الحركة الإسلامية سعيا لهذا التوافق ولم يجعل يده الأدنى والأسفل ليشتري سلاما مع فتح ومع السلطة.

لقد دخل الشيخ ياسين مواجهات بعضها دموي مع فتح منذ الثمانينات، وبدأ هذا حين أرادوا وضع شيوعيين ومسيحيين في مجلس أمناء الجامعة الإسلامية (فرع الأزهر بغزة) فوقف الإسلاميون ضد هذه المحاولة وأفشلوها، وكانت جهودهم تلك تصب في صالح محمد عواد العميد القديم للجامعة رغم أنه لم يكن صالحا بل لا يحب نصرة الإسلام كما يصفه الشيخ ياسين، لكن الحفاظ على إسلامية الجامعة كان هو الهدف الأول والأكبر، وهو ما تمّ، وكان هذا في عام (1980م).

بعد ذلك بعامين كانت الحركة الإسلامية تخوض مواجهة أخرى ليكون رئيس الجامعة إسلاميا فيحفظ لها هويتها ومظهرها الإسلامي ورشحوا لها د. محمد صقر المشهود له بالعلم بدلا من رياض الأغا العلماني ذي الفساد المالي والاتصالات مع اليهود والذي تتكرر منه الشكوى، وتمسكت الحركة الإسلامية بمرشحها ووصل الأمر إلى صدام دموي بين الشباب في الجامعات واغتالت فتح واحدا من الأساتذة الإسلاميين، وفي النهاية فرضت الحركة الإسلامية رأيها وفشلت بلطجة فتح في انتزاع الجامعة وتلقى شبابها ما يستحقون، وخرجت الحركة الإسلامية منتصرة في هذه المعركة، وانتهى زمن إجبارها علنا على شيء لا تريده لتبدأ بعدئذ مرحلة التفاهم.

لكن مرحلة التفاهم "العلني" يصحبها كذلك محاولات اغتيال وتصفية سرية، فقد حدث أن أدخلت فتح قناصا تابعا لها إلى قطاع غزة لاغتيال بعض عملاء إسرائيل، فدسَّت في قائمة العملاء أسماء

تابعة للحركة الإسلامية، فلما اكتشف الشيخ ياسين هذا حذرهم وهددهم "أوعى، والله بتحرقوا البلد أنتم"! فكفُّوا وانتهى الأمر.

ثم انتقل الأمر لنزاعات الشباب، وتجرأوا ذات يوم على جرح فتاة في وجهها وإلقاء "ماء نار" على شاب فأصيب بالعمى، فكان الرد جاهزا، يقول الشيخ: "فمش معقول نتحمل أن واحد يفقد عينيه وهم بيتفرجوا عليه، وست طالبة في الجامعة يروحوا يضربوا بالشكل هذا، كلام مش منطقي.. ناخد قرار بضرب عناصر معينة منهم اللي إلها يد في هذا، فهم قاموا بالرد وضربوا عناصر منا.... بس الأغلبية كانت منهم، يعني الضرب منا واحد بس، هم انضربوا كذا واحد، واتكسروا وانتهت بعد هيك بمصالحة يعني ضمنية، تهدئة داخلية بدون صراعات تانية".

والملاحظ في هذه الوقائع جميعا أن الحركة الإسلامية كانت في بداياتها الأولى، أي أنها في "مراحل الاستضعاف" بالتعبير المشهور، لكنها مع ذلك لم تستلذ البقاء في هذه المرحلة ولم تسكت عن كل حق نزولا عند "سمات المرحلة"، وإنما كان الاستضعاف هو التحدي الذي تحاول دائما مغالبته والتخلص منه والتحول عنه.

وقد تطور الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك فيما بعد، وذلك أن حركة فتح منذ أن صار لها سلطة عملت على القضاء على الحركة الإسلامية والانفراد تماما بالساحة، وجرت في هذا الصدد مواجهات أخرى، لكن الشيخ ياسين كان حاسما في عدم السماح بالقضاء على الحركة الإسلامية، وآل الأمر إلى إغلاقات شكلية للمكاتب لكن الأنشطة تظل كما هي.

(3) حدود المواجهة

في المقابل ينبغي أن نذكر كذلك أن هذه المواجهات هي مواجهات محسوبة لا مفتوحة، ومنضبطة لا مندفعة، وهي بغرض الردع لا بغرض إشعال حرب، وهو من فقه المرحلة كذلك، فمثلما ابتلينا بمن استلذ بمرحلة الاستضعاف ابتلينا كذلك بمن يريد القفز من مرحلة الولادة إلى مرحلة التمكين، أو كما يقول أحد إخواننا العقلاء: نحن بين منهج "سلميتنا أقوى من الرصاص" ومنهج "بندقيتنا أقوى من الصواريخ والطائرات والبوارج"!!

إن الشيخ الذي أعد شبابه لمثل هذه المواجهات هو نفسه من منعهم من محاربة السلطة الفلسطينية حتى بعد توقيعها اتفاقية أوسلو لئلا يؤدي هذا إلى حرب داخلية، لا سيما إن كانوا لا يستطيعون حسمها لصالحهم، وهو نفسه الذي عاقب بعض شبابه لأنه في غمرة الحماس هاجم مبنى الهلال الأحمر (وكان حينئذ قلعة الشيوعيين) ودمَّر خمارة وكازينو، وأخبرهم أنهم بهذا أشبه بالعملاء الذين ينفذون رغبة الإسرائيليين بإشعال اقتتال داخلي، بل ويضعون أنفسهم أداة لفتح (التي استثارتهم) في حربها مع الجبهة الشعبية (اليسارية الشيوعية)، وهي معركة يجب ألا تحشر الحركة الإسلامية نفسها فيها، كذلك أخبرهم أن الخمارة والكازينو وغيرهما إنما هو "عدو مؤجل" بينما ينبغي الالتفات لأصل المرض وهو الذي سمح بوجود هذه الخمارات والكازينوهات من الأساس.

وهو نفسه الذي أصرَّ ألا يكون ثمة اقتتال بين فصائل الشعب الفلسطيني ما وسعه ذلك، وقبل أن تناور السلطة سياسيا بالإغلاق الشكلي للمكاتب الإدارية التي تمثل واجهة نشاط الحركة الإسلامية، مع بقاء الأنشطة كما هي.
لكن أمرا هنا ينبغي الالتفات له، وهو حرص الشيخ على الاستفادة حتى من أخطاء شبابه، فأولئك الذين تحمسوا وهاجموا مبنى الهلال الأحمر (قلعة الجبهة الشعبية) ودمروا خمارة وكازينو، أثاروا على الحركة الإسلامية هياجا إعلاميا واتهامات بالعنف والإرهاب ... إلى آخر هذه الترهات، وطُلِب منه أن يصدر بيان استنكار فرفض، وقال: لسنا متهمين حتى نصدر بيانات، فليثبتوا هم أولا أننا نحن من فعلنا. ثم كان تقييمه للحدث (رغم رفضه له) أن له وجها إيجابيا وهو "إظهار قوة الحركة الإسلامية على الساحة".

وهذا درس ينبغي أن يستفيد منه من يعاني من إسهال الاستنكار والإدانة حتى لو لم يكن له أي علاقة بالموضوع لا من قريب ولا من بعيد!!

(4) دروس في بناء التنظيم

كان الشيخ ينفصل عمليا عن تنظيم الإخوان القديم في فلسطين، وكان يعرف أنه يبدأ طورا جديدا من الحركة الإسلامية، أو بتعبيره هو "أنا لا يعنيني الأسماء، أنا يعنيني الجوهر، ويهمني الجوهر، أنا الآن بدي أبدأ طور جديد من الحركة الإسلامية في المواجهة والمقاومة، فسأعطي هذا الطور

من الحركة الإسلامية اسماً جديداً يتمشى مع الواقع، والواقع يحتاج أن يكون هنا مقاومة، ولذلك لابد أن تسمى الحركة بحركة المقاومة الإسلامية".

ومن كان هذا شأنه لا بد أن يؤسس عمله على:

أ. صبر مديد: لا يسع من بدأ في عمل جماعي إلا أن يبذل الكثير والكثير والكثير من المجهود والعنت، مع الصبر والمشقة، وهذا الشيخ القعيد النحيف الضعيف يحكي أنه بدأ العمل بعشرة أفراد فقط، لكنهم بعد وقت صاروا اثنين أو ثلاثة فحسب!! فلم يصبه هذا بيأس أو بتردد وإنما تابع العمل وواصل البناء.

وظل الشيخ ياسين ينتظر ثلاثة عشر عاما حتى تحول عمله إلى تيار، إذ بدأ عمل الأسر منذ سنة 1967، واستمر بلا انقطاع حتى تحول إلى تيار بعد 1980.

ب. مغالبة الأقدار بعضها ببعض: وهي سنة كونية، ولا نحتاج أن نذكرها إلا لأن بعض الشباب في غمرة الحماس يظن أنه سيبدأ المواجهة الآن مع "النظام العالمي" كله، ويظن أنه قادر على اختراق كل الحدود والقيود لمجرد عدم اعترافه بها.. وهو أمر لم تفعله حركة مقاومة من قبل، بل كل حركة تبدأ من واقع هي خاضعة فيه لظروف لا تملك منها فكاكا، فتظل تعمل تحت السقوف القائمة وبالحدود المتاحة وبالقوانين المفروضة عليها، وهي في كل هذا تتحين الفرصة لتعديل وضعها وتقوية نفسها حتى تصل إلى خرق هذه السقوف والحدود والقوانين.

هذا الشيخ أحمد ياسين بدأ العمل في نشاطه الإسلامي "المعلن" بتصاريح من الإسرائيليين، وأسسوا الجمعية الإسلامية بتصاريح من الداخلية الإسرائيلية، وتحالف في بعض الأحيان مع فتح ضد اليسار كما في انتخابات الهلال الأحمر، وكان يلتقي ويتفاوض مع مسؤولين من فتح، وقَبِل بكثير من الأوضاع التي فرضتها السلطة الفلسطينية ومن قبلها الإسرائيلية مما لم يمكنه دفعه، أو كان دفعه يترتب عليه ضرر أشد. وكل هذه أمور يحتاج الشباب المسلم العامل أن يعيها ويفقهها كي لا يكون وقودا لشعارات وعبارات خيالية تحرق الجهود في معارك عبثية وعدمية.

جـ. الشورى الحقيقية والمؤسسية: كان الشيخ ياسين مؤسس التنظيم لكنه لم يكن التنظيم كله، بل إنه في لحظة ما عرف أن التحقيقات الإسرائيلية ستقود إليه فترك التنظيم تماما ليتولاه غيره، فلما اعتقلوه فعلا (1984م) لم يتوقف التنظيم ولم يتأثر بغيابه، ثم لما خرج من الاعتقال أخذ إجازة سنة من التنظيم لئلا يتتبع اليهود أمر التنظيم، ثم لما عاد إلى التنظيم عاد جنديا لا في القيادة.

وكثير من مراحل المواجهة مع فتح أو السعي للتسلح أو غيره تم والشيخ ياسين في السجن أو خارج التنظيم. ولما اندلعت الانتفاضة كرر هذا الأسلوب، يقول: "اعتقلوا قبلي، واعترفوا عليَّ كمؤسس، واللي بدأ الانتفاضة، والسلطة (الإسرائيلية) من هنا وجدت أنه مش في مصلحتها تعتقلني، فسابتني في الخارج لكي تصطاده من حولي، وتعرف الأمور، أنا في تلك الفترة اعتزلت كل العمل، وتركت العمل لآخرين يشتغلوا في عمل الانتفاضة والخطة وكله كل شيء".

د. الانضباط والاتزان: اعتمد الشيخ ياسين نهج رصد وتصفية عملاء الاحتلال قبل نهج العمليات ضد الاحتلال نفسه، فأول عمليات الجهاز العسكري كانت محاولات كشف شبكات العملاء التابعين للإسرائيليين، وكانوا يقصدون القبض عليه والتحقيق معه لكشف شبكة العمالة، وكان التحقيق مع العميل يصوَّر ثم تعرض اعترافاته على لجنة تقوم بعملية التحليل والمحاكمة في نفس الوقت، قبل أن تصدر حكمها عليه، ولم يكونوا يقدمون على ذلك قبل الاشتباه الأكيد في أمره، واستطاعوا كشف العديد من الشبكات ومن أساليب الإسقاط. ومع ذلك، فهم لما قتلوا مشتبها به بالعمالة قبل أن يثبت عليه هذا بشكل قاطع دفعوا الدية لأهله.

ه. السرية: اعتمد الشيخ كذلك نهج السرية، فلم يكن يعلن لا عن تصفية عملاء، ولا في المرحلة التالية عن العمليات التي قاموا بها ضد الاحتلال أو المستوطنات، يقول: "ولم تكن بيانات، كنت أحب العمل وأُبْقي العدو تائها".

(5) درس في طبائع الشعوب

من بين كل كلام الشيخ علق بذهني هذه العبارات التي تمثل بحد ذاتها درسا في طبائع الشعوب التي يجب أن يفقهها العاملون للإسلام، يفقهونها ليعملوا على بصيرة لا لينشغل بعضهم بشتم هذه الشعوب، يذكر الشيخ وهو يصف صعوبة البدايات أن الناس كانت تحب عبد الناصر وتكره الإخوان

المسلمين في ذلك الوقت، حتى أنهم هتفوا لما مات "الله حي وناصر حي"، وذلك لأن "الدعاية المصرية في غرس المقاومة العربية في ذلك الوقت فظيعة جداً .. فظيعة جداً، لا تتصورها قد إيش"، و"كان الناس في ذهول عند موته" حتى إن بعض الخطباء لما خطب ضد عبد الناصر هاجمه الناس، ويحكي الشيخ عن رجل كبير جاءه بعد الخطبة واستنكر عليه عدم ثنائه وترحمه على عبد الناصر، وقال له: ماذا تريد من عبد الناصر؟ يطبق الإسلام أم يحارب إسرائيل، فقال الشيخ ياسين: "الاثنين واحد، إذا لم يأخذ الإسلام سلاحه معناه إنه مهزوم، ولذلك هو لم يؤدي الأمانة اللي ربنا استأمنه عليها".

ويضيف الشيخ أن الدعاية والإعلام يجعل الناس مخدرين، ويضرب مثلا على ذلك بحال الشعب المصري بعد هزيمة يونيو 1967، "كان الشعب المصري اللي طلع يهتف لعبد الناصر بعدما استقال .. طيب ما هو الثاني مخدر خالص، طيب.. واحد حقق هزيمة، وقال: أنا بأتحمل الهزيمة، وبيتحملها وبيرجع يمسك المسؤولية تاني، وبيهتفوله فمعناها برضه إن الشعب مخدر خالص، مافيش في العالم واحد بيتحمل هزيمة وبيرجع على الكرسي تاني، لكن هذا الواقع هو اللي صار في بلدنا".

نشر في ساسة بوست

---

[1] حماس الجذور والميثاق، ضمن "الذخائر العظام" 1/852.

أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة (1)

هذا هو الكتاب الأول من سلسلة "مكتبة الثائر المصري" التي نقدمها عبر مساحة "مدونات الجزيرة"، ونسأل الله التوفيق والإعانة.

يقع هذا الكتاب ضمن المجال الثالث: تجارب المقاومة في التاريخ، وهي من أهم التجارب المعاصرة، بل يمكن القول بأن تجربة حركة حماس هي أنضج تجربة لحركة إسلامية في التاريخ المعاصر، حصل فيها الموازنة بين السياسة والمقاومة، وبين البسالة العسكرية مع النضج والاعتدال الفكري، وبين التربية الانضباطية مع الإبداع والابتكار.

ومؤسسها الشيخ أحمد ياسين هو علامة فارقة في تاريخ المسلمين المعاصر، وهو أسطورة تُروى في التاريخ النضالي الإنساني كله، فهو رجل قعيد مصاب بعدد من الأمراض، وُلِد في زمن هزيمة ساحقة، أسس لحركة مقاومة في بيئة كلها معيقات، أرض مكشوفة جغرافيا بلا عمق دفاعي وبلا داعم إقليمي أو دولي ومحاصرة من القريب أشد من حصارها من قبل العدو، بإمكانيات معدومة، وتحت سلطة محلية عميلة.. ظروف يستحيل فيها تأسيس حركة مقاومة، لكنه فعلها، بل ونجح نجاحا باهرا، وصارت حركته التي أسسها صفحة باهرة في تاريخ حركات المقاومة.

وأصل هذا الكتاب مجموعة من الحلقات التي سجلها الشيخ مع الإعلامي أحمد منصور ضمن برنامج "شاهد على العصر" وبُثَّ على قناة الجزيرة عام 1999م. ونحن إذ نقدم خلاصات من الكتاب فإنه ينبغي قراءتها بعناية شديدة، ثم ينبغي لمن أراد التوسع العودة للكتاب نفسه لتحصيل فهم أعمق وأقوى للتجربة.

خلاصات الكتاب

1. سقطت فلسطين لأن الجيوش العربية سحبت سلاح الشعب الفلسطيني ثم انسحبت أمام إسرائيل، ولو كان بيدنا السلاح لما سقطت فلسطين ولا التزمنا بقرارات وقف إطلاق نار، لكن الشعب الأعزل كان يضطر إلى النزوح حين يسمع بأنباء المذابح التي تجري في القرى المجاورة.

2. كانت الجيوش العربية تهدر ما يحققه المجاهدون المتطوعون من إنجازات وتنسحب من المواقع رغم قدرتها على القتال.

3. كان من شروط إيقاف العدوان الثلاثي أن يصير قطاع غزة تحت إشراف دولي، لكن أهل غزة تمسكوا أن يكونوا تحت الإدارة المصرية.

4. سهولة الانتصار في حرب 1956 فتحت شهية إسرائيل لتكرار التجربة في 1967.

5. اعتقلتُ لأول مرة في ديسمبر 1965، في سجن غزة المركزي وكان تحت إشراف مصري، وكان مسؤول المخابرات فلسطيني، بتهمة الإخلال بالأمن! وبلا مرافق، وكنت أحتاج نصف ساعة لتهيئة فراشي لنفسي لأنام! واستمر لمدة شهر.

6. في عصر عبد الناصر لم يكن طلاب الجامعة في مصر يعرفون أين غزة ولا أوضاعها رغم أنها تحت الإدارة المصرية، وكان منهج الجغرافيا يضع "إسرائيل" كجزء من بلاد الشام.

7. خطب عبد الناصر 1965 في أعضاء المجلس التشريعي الفلسطيني –في مصر- وقال لهم "اللي بيقول لكم عنده مخطط لتحرير فلسطين بيكذب عليكم، ولو قلت لكم عندي مخطط باكذب عليكم". وكان الجنود المصريون الذاهبون إلى غزة لا يعرفون عنها شيئا ولا يعرفون حتى أين يذهبون ولا لديهم فكرة عن الحدود أو مواقع اليهود، وكان الضباط يتربحون من التجارة في غزة التي كانت منطقة حرة.

8. ضُرِب الطيران المصري عام 1967 كأنه حظيرة دجاج، ومن المذهل أن تباد الإمكانيات الهائلة لمصر، خصوصا مع البسالة التي كان يبديها الجنود البسطاء، لقد كنا نجد اثنين من الجنود يواجهون الدبابات والطائرات ولا يستسلمون!

9. كان يوم 5 يونيو مأساويا في غزة، كان الناس يتابعون الإذاعتين: الإسرائيلية والمصرية، يرون منشورات إسرائيل التي تدعو إلى التسليم ويرون ضرب الطائرات الإسرائيلية لدفاعات

الجيش المصري، ثم يسمعون أكاذيب أحمد سعيد فيتضاعف حزنهم، كان الناس يومها كأنهم سكارى!

10. كانت الحركة الإسلامية ضعيفة في غزة لشدة وطأة السلطة المصرية التي كانت تحارب الكتاب الإسلامي، والاعتقالات والإعدامات، فما بالك بالسلاح؟! فكانت هناك رغبة في المقاومة ولكن ينقصها السلاح، وهذا ما أخَّر الحركة الإسلامية عن المقاومة، فاتخذنا قرارا بأن من شاء من الشباب الانضمام إلى الفصائل الأخرى فعل.

11. يتعامل اليهود مع الناس بالحرب النفسية، فمن ذلك أنهم لما وصلوا إلى مخيم الشاطئ جمعوا الناس وقالوا لهم: سلموا الأسلحة وإلا فمن سنجد في بيته سلاحا سنهدم البيت، وبالفعل هدموا بيتا أو بيتين فصار الناس يسلمون أسلحتهم.

12. يتعامل اليهود مع الشعب فرادى فرادى لتسهل السيطرة عليهم، لما احتلوا غزة جعلوا لكل منطقة ضابط مخابرات بيده إعطاء تصاريح لأي شيء، ومن خلال حاجة الناس للسفر أو العمل أو غيره يبدأ في مساومتهم ليكونوا عملاء، ونحن استطعنا أن نفرض على اليهود التعامل بشكل جماعي خصوصا في السجون لكن هذا كان صعبا في الشارع العام.

13. لو كان لدينا تنظيم في ذلك الوقت كنا استطعنا إدارة إضراب كامل عن العمل وأسقطنا الاحتلال، لكن هذا كان مستحيلا في ظل القبضة الأمنية المصرية، فبدأ الناس تحت ضغط الحاجة بالعودة إلى العمل، وأنا في البداية رفضت العودة للعمل كمدرس لكي لا أخدم اليهود، ثم فكَّرت في أني بهذا أخدمهم وأخرب الجيل الجديد، والواجب أن نعلم هذا الجيل ونحافظ عليه ولا نتركه فريسة للجهل.

14. رحَّل اليهود عددا من الشخصيات الإسلامية إلى مصر والأردن ولبنان ليمنعوا تكوين وعي أو مقاومة، وكنت من القلائل الذين بقوا وبدأت في تكوين تنظيم وعمل يدعم صمود الشعب ويساعد الأسر التي ليس لها عائل.

15. رفضت الانضمام لحركة فتح لأنها اعتمدت نهج مقاومة إسرائيل انطلاقا من الدول العربية، وهذه الدول أضعف من أن تواجه إسرائيل أو تحمي المقاومة، بل إن مصر اعتقلت من نفذوا عملية مقاومة في قطاع غزة عام 1965، والأردن ضربت المخيمات الفلسطينية 1970 وسوريا ضربت مخيم نهر البارد في لبنان، لهذا لم يكن العمل المقاوم ممكنا إلا من داخل الأرض المحتلة.

16. استطاعت إسرائيل إجهاض بذرة المقاومة التي أخذت في التكون حتى أنهتها 1972 – 1973، وذلك من خلال وحشية الإجراءات التي كانت تبلغ إزالة وهدم شوارع بكاملها، وكذلك لضعف الخبرة الأمنية للمقاومة وسهولة انكشافها.

17. استغرق إنشاء التنظيم منا خمسة عشر عاما حتى وصلنا إلى لحظة امتلاك وشراء السلاح (1967 – 1982م)، بدأنا بعشر أشخاص وبعدها بعام صار العدد شخصين فقط، وعند ذلك الوقت كان العداء القديم للإخوان قد زال وصار رواسب لدى الجيل القديم، وطبعت الجزء الثلاثين من تفسير سيد قطب ووزعته مجانا فبدأ إقبال الناس عليه، وأسسنا "الجمعية الإسلامية" كتجمع للشباب وكغطاء لأنشطتنا، واستعنا بشيخ كان من الإخوان قديما لكنه صار من الموافقين على كامب ديفيد لكي يتوسط لنا للحصول على التصريح من السلطة الإسرائيلية.

18. عند سماعي لخبر حرب أكتوبر دعوت الله أن تكون "حرب تحرير لا حرب استجداء السلام"، لكن للأسف هذا ما كان، فكُسِر الحصار حول إسرائيل وخرجت مصر من المعركة، لكن الحرب نفسها أشعلت الأمل والنفسية العربية وأثبتت أن النصر ممكن وأن الهزيمة ليست قدرا.

إلى هنا انتهت المساحة المخصصة، ونواصل في المقال القادم إن شاء الله تعالى.

نشر في مدونات الجزيرة

أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة (2)

أطلقنا عبر "مدونات الجزيرة" نداء للمثقفين وأصحاب التخصص أن يقدموا للثوار المصريين خلاصات الكتب التي تعينهم على تنفيذ ثورة ناضجة راشدة تتعلم من الماضي وتفقه سنن السياسة والاجتماع وإدارة الصراع، وسميناه مشروع "مكتبة الثائرالمصري".

وبدأنا باستعراض تجربة تأسيس حركة المقاومة الإسلامية حماس من خلال كتاب "أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة"، والذي نواصل اليوم استعراض خلاصاته:

19. صار لنا وضع وقوة عند 1980، ودخلنا في مواجهة مع فتح لأننا رفضنا محاولتها وضع رئيس مسيحي للجامعة الإسلامية في غزة، وواجهناه بالقوة، ثم دخلنا في اشتباك آخر معهم حين أرادوا تثبيت شخصية مشبوهة في رئاسة الجامعة (1982) وأصررنا على رئيس إسلامي لها، ونجحنا، ولم نسمح أن يمر الاعتداء علينا بلا ثمن، وبادلناهم التهديد بتهديد أشد.

20. بدأ التفكير بالمقاومة العسكرية عام 1980، بمجرد ما صار لدينا قاعدة من الشباب وتعاطف من بعض جهات بالخارج يمكن أن تدعمنا بالمال، استهدفنا إعداد 100 شاب، لكن المحاولة الأولى أُجهضت عبر ضربتين، مرة عبر وشاية تاجر سلاح، والأخرى عبر خطأ تكتيكي.

21. اعتقلت لأول مرة لما اكتشفت سلسلة تسليح كنت مشرفا عليها، بينما ظل بقية التنظيم مجهولا لهم، لكن هذا الانكشاف كان تجربة نتعلم منها وليست مشكلة [تدفعنا لترك المقاومة]

22. كنا شعبيا أقوى من فتح لكنهم يتميزون بتجربتهم القتالية، وإن لم يعودوا يقاتلون، بينما نحن نبدأ الطريق.

23. كانت خطتنا تصفية العملاء قبل العمليات ضد الاحتلال، كنا نحقق معهم تحقيقا مسجلا يُنقل إلى لجنة قضائية تصدر فيه الحكم، وحين تثبت التهمة يُقتل، وأغلب العملاء كانوا يُسقطون غيرهم بالنساء والتصوير المفبرك أو الحقيقي، وكان ضرب العملاء يُحدث ارتباكا فيكشف المزيد، وكانت

فتح تقتل العملاء بغير تحقيق بل تصفيهم في الشوارع لكننا لم نسمح لأنفسنا بالقتل بدون حكم شرعي، ولما وقع خطأ في القتل دفعنا الدية لأهله.

24. سبب إطلاق سراحي بعد الاعتقال الأول أخ دخل السجن وهو من أنصار أحمد جبريل (الجبهة الشعبية) لكنه التزم وحفظ القرآن وصار "رئيس الجماعة الإسلامية" في السجن، ثم خرج قبلي، فجعلني في صفقة التبادل التي نفذتها الجبهة الشعبية.

25. كان اليهود حريصون على إخراج الأسرى خارج فلسطين، وكانت نصيحتي للشباب أن يصروا على البقاء في فلسطين.

26. كان عملنا جماعيا شوريا فلم يتأثر بغيابي، بل ظل التنظيم في حالة الإعداد والتدريب كما هو، وكانت اعترافاتي واعتراف من سبقني إلى الاعتقال منسجمة وتدل على أننا مجموعة صغيرة ولا زلنا في البداية فلم يتوقع الإسرائيليون أن يكون خلفنا تنظيم آخر لم يكتشفوه. وبعد خروجي ظللت سنة في إجازة من التنظيم كي لا يتتبعني اليهود، ولما عدت إليه عدت جنديا.

27. لم نسمح لفتح بالاعتداء على شبابنا، بل رددنا عليهم الاعتداءات، ودخلنا مواجهة دموية حتى انتهت بتهدئة ومصالحة ضمنية.

28. لما بدأنا تنفيذ العمليات ضد جنود الاحتلال والمستوطنين اتخذنا منهج عدم إصدار بيانات تعلن عن الجهة المنفذة ليظل العدو في ارتباك وحيرة، وقد تسبب خطأ أمني في كشف الخلية التي نفذت العمليات الأولى.

29. الأحداث دائما تحتاج من يقودها ويستثمرها، فالانتفاضة كانت حدثا عاديا وانطلقت من جباليا لكن لأنه ليس ثمة تنظيم في جباليا فسرعان ما هدأت الأمور، فنقلناها إلى الجامعة، ولما أغلقت إسرائيل الجامعة نقلناها إلى الشوارع، وهكذا نقلنا الحدث العادي إلى انتفاضة كبيرة بتنظيمنا. للشعوب قدرة عظمى لا يفهمها إلا من جربها.

30. لم يعرف الإسرائيليون من وراء الانتفاضة لكنهم يعرفون أن وراءها إسلاميين فنفوا عددا من أبرز قيادات الإخوان والجهاد والسلفيين، وكانت سياستهم تساعد في اشتعال الانتفاضة.

31. لما وجدت فتح نفسها خارج المشهد ولا تفهم من الذي يقود نزلوا إلى الانتفاضة ودعوا للإضرابات، فحاولنا التنسيق معهم لئلا يتضرر الناس لكثرة الإضرابات لكنهم كانوا ينقضون الاتفاق.

32. تحت التعذيب اعترفت بعض القيادات التي اعتقلتها إسرائيل بأني زعيم التنظيم ومؤسسه، فهددني الإسرائيليون وساوموني على وقف الانتفاضة، فاضطررت لترك القيادة لآخرين كي لا يتوقف العمل، وكنا في ذلك الوقت بدأنا في عمليات تفجير العبوات الناسفة وكانت بدائية في ذلك الوقت.

33. نتخير عناصرنا اعتمادا على الإيمان، مع تنظيم أمني دقيق لا يعرف فيه الواحد غيره إلا في الواقع الميداني، والاتصال يتم عبر النقاط الميتة كيلا ينكشف التسلسل.

34. يكاد التعذيب ألا يصمد له أحد، ولكن ينبغي على الشخص أن يجتهد في أن يعترف على نفسه بأضيق الحدود ولا يفتح عليها ولا على الحركة أبوابا أخرى، ولهذا لما واجهوني باعترافات المعتقلين جعلتُ نفسي في موضع من يعطيهم الفتاوى وبعض الأموال فحسب، وأصررت على هذا لكي لا أفتح على نفسي باب الحركة أو التنظيم العسكري.

35. من يعمل في مجال المقاومة يكون له اتصال بتجار السلاح والمخدرات والسيارات المسروقة واللصوص، ويجب ألا يخطئ خطأ يؤدي لانكشافه، لكن "كل يوم بنتعلم".

36. رغم ظروف السجن إلا أنه فرصة للعلم والتقرب إلى الله، وفي هذا السجن الثاني حفظت القرآن واطلعت على تفاسير وعلوم شرعية، وكنت أقرأ أربعة أجزاء يوميا في صلاة السنن.

37. حافظ الإسرائيليون على حياتي لأنهم يعلمون أن موتي داخل السجن سيفجر ردة فعل عنيفة في الشارع.

38. كانت لنا نقاط ميتة داخل السجون، خلال دورات المياه، نوصل بها الرسائل إلى عموم السجون.

39. لا أحد منا يسلم نفسه، نقاتل حتى الشهادة.

40. أوسلو كان إرادة أمريكية لإنهاء الانتفاضة، لم يكن جادا، مزَّق وحدة الفلسطينيين، وصار التعاون الأمني بين السلطة وإسرائيل ضد المجاهدين علنيا، صحيح نحن لم نوجه سلاحنا للسلطة كي لا تكون حربا أهليا، لكننا أيضا لم نسمح لهم بالقضاء على الحركة الإسلامية خدمة لليهود. ولكن أوسلو والتعاون الأمني ضرب المقاومة ضربة مؤثرة وشديدة.

41. اشترطت قبل الإفراج عني (بعد الصفقة التي جرت عند فشل اغتيال مشعل) أن لا أُبْعد خارج فلسطين، ورضخوا.

42. وجدت مشهدا رهيبا لما خرجت، الناس يحتشدون لي، حماس صارت قوية وشعبيتها طاغية. ومع هذا كان وضع حماس صعبا إذ اعتقلت السلطة ألفا من قيادتها، فبدأ الحال ينتعش بخروجي.

43. في الأجهزة الأمنية 35000 عنصر، لكن هذا لا يخيفنا لأن النفعي لا خطر منه، وهم متناحرون فيما بينهم، وناقمون على بعضهم في التمييز بالأموال والنفوذ، والفساد كبير في جهاز السلطة، والناس ينقمون عليهم كل هذا.

44. محمود عباس هو المرشح لخلافة عرفات لأنه الأكثر طواعية لدى الإسرائيليين، أما دحلان أو الرجوب فليست لهما شعبية أبدا.

45. خيارنا الجهاد، ويمكن القبول فقط بهدنة، وأتوقع زوال إسرائيل عند 2027، حين تكمل ثمانين عاما، فالأجيال تتغير كل أربعين سنة، ففي الأربعين الأولى انتفاضة، وفي الثانية تكون النهاية إن شاء الله.

46. لا يعرف اليأس طريقا إلى قلبي، وأملي أن يرضى الله عني، ورضا الله بطاعته، وطاعته هي الجهاد لإقامة العدل في الأرض وتطهيرها من الفساد.

نشر في مدونات الجزيرة

لماذا صار "المهندس" أسطورة؟!

قال حكيم التاريخ ابن خلدون: "واعلم أنّ الهندسة تفيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في فكره لأنّ براهينها كلّها بيّنة الانتظام جليّة التّرتيب لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر بممارستها عن الخطإ وينشأ لصاحبها عقل على ذلك المهيع وقد زعموا أنّه كان مكتوبا على باب أفلاطون: «من لم يكن مهندسا فلا يدخلنّ منزلنا» وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون: «ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصّابون للثّوب الّذي يغسل منه الأقذار وينقّيه من الأوضار والأدران». وإنّما ذلك لما أشرنا إليه من ترتيبه وانتظامه" [المقدمة 1/639، 640 ط دار الفكر].

وقبل أن تفكر في الاختلاف أو الاتفاق مع ابن خلدون، اعلم أننا لا نسوق كلامه في مدح المهندسين، وإنما نتخذه مدخلا للحديث عن "المهندس" الذي صار أسطورة!

إنه.. يحيى عياش!

تمر بنا هذه الأيام ذكرى استشهاد عياش (6/1/1996م)، المعروف بلقبه وحده "المهندس"، فإذا قيل هذا اللقب في سياق الجهاد والمقاومة انصرفت الأذهان إلى شخصه، دون غيره من أجيال المهندسين الذين تلقي بهم الجامعات أفواجا في كل سنة!

فلماذا صار "المهندس" أسطورة؟!

يذكرني يحيى عياش بالصحابي الجليل سعد بن معاذ رضي الله عنه، فإن سعدًا كان سيد قومه ولم يزل في العشرينيات من عمره بعد حرب بعاث التي أهلكت صناديد الأوس والخزرج، ثم إنه صاحب الفتح الكبير حين أسلم فكان إسلامه سببا لدخول عشيرته في الدين، وهم الذين كانوا بعدئذ الأنصار.. الأنصار الذين نصر الله بهم هذا الدين، والذين أُمِرْنا بحبهم، والذين يتمنى صاحب كل دعوة وفكرة رجالا مثلهم، والذين حملوا الدين حتى استقرت دولته وارتفعت رايته، ثم لم يخرجوا من هذا الجهاد الطويل كله بشيء من متاع الدنيا!

لم يعش سعد في الإسلام طويلا، خمس سنوات فقط أو تزيد، ثم استشهد في غزوة الأحزاب وهو في السادسة والثلاثين، خمس سنوات فقط ولما مات اهتز لموته عرش الرحمن! فأي همة وأي عظمة وأي مكانة هذه! وكم عاش في الإسلام أناس أعمارا مديدة فلا انتفع الإسلام منهم بشيء، ولا اهتز لموتهم جفن في عين!

من هذا الوجه يشبهه يحيى عياش!

لم يكن عمر عياش في الجهاد سوى أربع سنوات (1992 – 1996م) ولما استشهد اهتزت لموته الأمة كلها، بل واهتز –فرحا- أعداء الأمة الذين تخلصوا من هذا الشاب الضئيل النحيل، الذي لم يكمل الثلاثين عاما بعد (ولد 1966 – استشهد 1996م)!

لما وُلِد كان ضئيلا صغيرا لا يحسب من يراه أنه سيعيش، ولما نما تعلق قلبه بالمساجد وصار ملازما لمسجد قريته، وكان حريصا على الصلاة في الصف الأول، تعلم القرآن، وعُرف بهدوء الطبع ولزوم الخجل، فما كان لأحد من غير ذوي الفراسة أن يبصر النفسية العظيمة في الإهاب الخجول، ولا النار المضطرمة في المطلع الهادئ، واندرج في سلك الدراسة وظهر تفوقه ونبوغه، ثم دخل كلية الهندسة، قسم الكهرباء، وتخرج فيها متفوقا، ثم منعه الاحتلال من الخروج إلى الأردن لاستكمال دراسته العليا، فبقي في الداخل ليذيقهم العذاب، حتى ارتقى شهيدا، فكان اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، فلو أنه حصَّل مئات الشهادات العلمية ما كان ليبلغ هذه المكانة!

إلا أن يحيى لم يصر أسطورة بهذا، بل صار أسطورة لما هو آت..

كانت المقاومة الإسلامية لليهود تعاني من نقص في كل شيء، الرجال والمال والسلاح والتنظيم، حتى إن عماد عقل –وهو من رواد المقاومة وبواسلها الكبار قبل يحيى عياش- لما رأى بندقية M16 أخذ يُقَبِّلها ويبكي ويضمها إليه ويقلبها بين يديه كمن رأى كنزا ثمينا، لقد بدأ الأمر ببندقية واحدة تنتقل بين الضفة وغزة، وربما بعض المسدسات الخفيفة التي حُصِّلت من هنا وهناك والتي لا تزيد عن أصابع اليد كما يُفهم ممن أرخوا لتأسيس حماس[1]، ولذلك لم يكن لديهم خيار إلا المهاجمة المباشرة من وضع المواجهة اللصيقة (أو بتعبير العسكريين: من النقطة صفر)، وهذا أشبه بالعملية الاستشهادية مع ضعف النكاية في العدو.

حتى جاء يحيى عياش فصنع قفزة في مسار المقاومة، بتمكنه من تصنيع المتفجرات بأدوات محلية موجودة في البيئة الفلسطينية، كان عياش مخترعا مبتكرا، أقام على ترجمة أبحاث البارود حتى تمكن من الوصول إلى هدفه، وهنا صارت المقاومة تستطيع أن توقع النكاية في العدو مع الحفاظ على عناصرها وكوادرها، أو إن اضطرت فإن العلميات الاستشهادية سيذهب فيها الاستشهادي ولكن بعد أن يوقع في العدو خسائر فادحة.

هنا تغير الميزان بين المقاومة والعدو.. وهنا بدأت أسطورة المهندس في البزوغ!

وجهٌ آخر من أسطورته كامنٌ في قدرته على تضليل الأجهزة الأمنية الإسرائيلية، المدعومة بالأجهزة الأمنية العميلة للسلطة الفلسطينية، فبرغم الرقابة اللصيقة استطاع أن يبقى حرا في الضفة، ثم استطاع الهروب إلى غزة، بل واستطاع تهريب زوجته وابنه إلى غزة، ثم استطاع تهريب والدته فالتقى بها ثم عادت مرة أخرى إلى الضفة، وهذا أمرٌ لا يعرف صعوبته إلا من عاينه وعايشه.

بعد أربع سنوات استطاعت المخابرات الإسرائيلية –بعد مئات الاجتماعات والخطط وتجنيد العملاء- أن تتوصل إلى يحيى عياش من خلال عميل فلسطيني، فسرَّبت إليه هاتفا محمولا مشحونا بمتفجرات خفيفة في بطاريته، وكان الشهيد ينتظر مكالمة من والده فعمل هذا العميل على فصل الخط الأرضي ليضطر الشهيد لاستعمال الهاتف المحمول، وكانت تحوم فوق البيت الذي رُصِد فيه طائرة، فلما تمت المكالمة لم يأخذ الأمر خمس عشرة ثانية حتى تأكد الإسرائيليون من صوت الشهيد ففُجِّر الهاتف، ليتشوه نصف الوجه الأيمن والكف اليمنى للشهيد، ويُكتب ختام الأسطورة!

إن استشهاد عياش كان –للمفارقة- بابتكار هندسي أيضا، بطارية محمول تحتوي متفجرات خفيفة يتم تفجيرها بذبذبات الاتصال، وهو ما يكشف الفارق بين أن تكون مهندسا في ظل سلطة تسعى لنهضة الدولة وبين أن تكون مهندسا في ظل سلطة عميلة!! في الحالة الأولى تستطيع أن تكتب ختام أسطورة تمثل تهديدا خطيرا، وفي الثانية تظل مُطارَدًا مطلوبا حتى ينتهي بك الحال شهيدا أو أسيرا أو طريدا!

لولا العملاء، ولولا السلطة الفلسطينية العميلة التي كان يقودها الهالك المقبور ياسر عرفات، لحققت المقاومة الفلسطينية نجاحات هائلة غير مسبوقة، دليل ذلك أن أهل الضفة ما زالوا يعانون ولا يجدون غير السكاكين رغم أنهم أهل الاستشهاد والفداء، بينما غزة التي تحررت منهم تصنع الصواريخ والطائرات بغير طيار وتنفذ عمليات أمنية في غاية الخطورة ولا يستطيع الوحش الإسرائيلي الذي اغتصب أربعة بلاد عربية في أيام أن يجتاح قطاع غزة الضئيل المكشوف جغرافيا المراقب على مدار الساعة بعد أربعة حروب!! هذا مع أن القطاع مُحاصَر من العملاء في السلطة المصرية والسلطة الفلسطينية، ولولا هذا الحصار لكانت إنجازاته العسكرية والتقنية أكبر بكثير.

استشهاد عياش يفتح ملف هذه الأنظمة العربية العميلة المجرمة التي هي عين العدو وذراعه وسيفه ولسانه، بل هي أشد من العدو، لأنها من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، وهو أمر ينبغي أن يرسخ في يقين الأمة ويقين الحركة الإسلامية، فالواقع الفعلي أن زوال هذه الأنظمة –ولو كان البديل هو الفوضى- أفضل من بقائها، والواقع أن الاحتلال المباشر الصريح لم يفعل فينا ما فعلته هذه الأنظمة، بل لم يستطع أن يستفيد ولا أن يترسخ وجوده إلا بهذه الأنظمة العميلة ذاتها.

هل تعلم مثلا أن حسن سلامة، قائد عمليات الثأر للشهيد يحيى عياش، هو الآن أسير في سجون الاحتلال الصهيوني؟ فهل تعلم أنه كان معتقلا لدى السلطة الفلسطينية أيضا؟ ثم هل تعلم أن هذا الأسير متهم لدى السلطة المصرية بأنه اقتحم الحدود في ثورة يناير وأخرج المساجين، وحاكمه القضاء المصري "الشامخ خدا" ثم حكم عليه بالإعدام؟!!

في بلادنا العربية لا تجد العلماء إلا في القبور أو السجون أو المنافي أو في أحسن أحوالهم يموتون بحسرتهم من العجز والفساد الذي يمنعهم أن يفعلوا شيئا، وأتذكر يوما (ربما في 2002 إن لم تخني الذاكرة) أن قرأت في بريد الأهرام رسالة من أستاذ للهندسة النووية يستعيد فيها ذكرياته حول دفعة قسم الهندسة النووية في جامعة الإسكندرية، ويتذكر كيف صار صديقه الآن أستاذا في أمريكا والآخر في كندا والآخر في استراليا، حتى إذا انتهى طرح السؤال المقصود: ما فائدة قسم الهندسة النووية إذا كان كل خريجيه سيكملون مسيرتهم في الخارج؟

والروايات في شأن من حاولوا اختراع أسلحة أو تطويرها، أو صناعة تطبيقات عسكرية لنظريات مدنية، تفيض بالمآسي المروعة التي لا تُصَدَّق.. لسنا أمة متخلفة ولكن أمة فرضت عليها هذه

الأنظمة العميلة أن تكون متخلفة! بقرار واعٍ وعمد وإصرار لا بمجرد الفساد والغفلة والبلاهة، وهو أمر يعرفه من حاولوا حقّ المعرفة.

والآن، لا يعرف أحد حجم النكبة التي نزلت بمصر إلا إن كان يعرف بعض من ماتوا في رابعة أو بعض من هم الآن في السجون، ولقد كان منهم عباقرة ومخترعون ومن يفيضون طاقة ونشاطا في صناعة المستقبل.

كان سيد قطب، ببصيرته النافذة، قد أوصى أهل القدس في مطلع الخمسينات ألا يفكروا في الاعتماد على الجيوش العربية، بل ليعتمدوا على أنفسهم، وهي الكلمة التي رسخت في ذهن وقلب إبراهيم غوشة مؤسس حماس ووعاها منذ صغره، منذ سمعها من الشهيد.

ولو أنك سمعت حلقات شاهد على العصر للشيخ أحمد ياسين، لوجدته في الحلقة الأولى يصرح بأنه لولا الجيوش العربية لما كانت النكبة، ذلك أن الجيوش العربية كانت تدخل القرى الفلسطينية فتسحب السلاح من الناس، فإذا جاءت المواجهة انهزموا وانسحبوا أمام اليهود فتركوا الناس بلا سلاح!!

يمكن أن نفيض في التاريخ العسكري الأسود لهذه الأنظمة العربية التي لم تحقق ولا نصرا واحدا على عدوها، ولئن كان لها انتصار جزئي هنا أو هناك في معارك فرعية فإنه لم يكن إلا بدعم وجهود المقاومة الشعبية، ولولا ذلك لما فعلوا! بينما لم تكن تتردد هذه الجيوش في سحق المدن والبلاد وتنفيذ المجازر في شعوبها فحسب. وهو ما يعني بالواقع المجرد –لا بمجرد التوقع أو التحليل- أن زوال هذه الأنظمة خير من بقائها في كل الأحوال، وأن المجتمع في أشد لحظات الفوضى لم يأكل بعضه كما كان مأكولا على مذبح هذه الأنظمة!

هذا هو درس الأمة الكبير، الذي يجب ويتحتم على الحركة الإسلامية أن تعيه وتستفيد منه!

ثمة درس آخر.. وهو توظيف المواهب!

إذ يتحتم على الحركة الإسلامية أن تعمل على توظيف المواهب والقدرات، بل أن تسعى في اكتشافها وتنميتها ما استطاعت، ولو أن عياش استهلك في أعمال إدارية أو تنظيمية أو إعلامية أو دعوية أو أي شيء آخر بخلاف موهبته العملية لما صار يحيى عياش، ولما أضاف إلى الأمة ما أضافه.. فالسؤال المرير الآن: كم تقتل الحركة الإسلامية بسوء القيادة من أساطير كان يمكن أن تحقق قفزات كبرى في تاريخها؟ كم يحيى عياش استنزفت موهبته في عمل خيري أو دعوي أو إداري لقصر نظر المسؤولين عنه؟!

لئن كان العدو اغتال المهندس الأسطورة.. فكم أسطورة هي بيننا في حكم الموؤودة؟!!

ويبقى الدرس الأخير لكل صاحب موهبة، لا سيما إن كانت في الجانب العلمي، أن يسعى ليصنع أسطورته الخاصة، وكل موهوب داخله أسطورة تنتظر أن تخرج، لكنها تنتظر بذل الغالي والنفيس من المجهود والأوقات والأموال، ولئن كنا نلوم على من قصر نظره من القيادة فيجب أن نلوم في ذات الوقت من استسلم لقصر النظر وخضع للقرار الخطأ ولم يجاهد ليصنع أسطورته الخاصة فيضع نفسه حيث يرضى الله وحيث تنتفع الأمة على الزمن الطويل والمدى الواسع لا على مستوى التكلفة العاجلة التي يحتاجها التنظيم الآن في القرية أو الحي أو النقابة أو البرلمان.

---

[1] أبرز المصادر في تأسيس حماس كتب:

- حماس.. الجذور والميثاق – عبد الله عزام (في المجلد الأول من المجموعة الكاملة لعبد الله عزام من ص826)
- المئذنة الحمراء – إبراهيم أبو غوشة [من إصدارات مركز الزيتونة]
- حلقات مراجعات – إبراهيم أبو غوشة
- حلقات شاهد على العصر – أحمد ياسين
- حلقات شاهد على العصر – عبد الحكيم حنيني

تجربة حماس.. درس للشيوخ والشباب

استطاعت ضربة جمال عبد الناصر للإخوان المسلمين عند سنة 1954 أن تضرب العمل الجهادي في فلسطين ضربة قاضية، فمن بعد ما كان الإخوان المسلمون في فلسطين هم أقوى الحركات الشعبية في فلسطين بل لا يكاد يكون لهم منافس حقيقي صاروا لا يرجون أكثر من البقاء على قيد الحياة مع الحملة الإعلامية الناصرية العنيفة، بالإضافة إلى أن الإدارة المصرية لقطاع غزة كانت تعمل بجد في كسر المقاومة واستئصال الإخوان، وأسفر الواقع عن نتيجة خلاصتها أن صار توجه الإخوان "المحافظة على النفس والانكفاء على الذات بانتظار ظروف أفضل"[1].

لكن المثير للتأمل هنا أن الظروف الأفضل حين جاءت كانت قيادة الإخوان الفلسطينيين نفسها قد تعوَّدت على هذا الموقع السري المهموم بأمور الدعوة والتربية ومراعاة الأيتام، حتى صارت تستغرب وتستنكر بشدة من يحدثها عن فكرة الجهاد والمقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي!!

لقد كان "التيار العام وسطهم يدعو إلى التريث والتركيز على الجوانب التربوية والإيمانية"، واضطر الشباب الذين يصرون على الجهاد إلى التحرك بعيدا عن مسار الإخوان، وكان من هؤلاء مؤسسي حركة فتح الأوائل، وقد استمر هؤلاء يركزون في تجنيدهم على الشباب الإخواني حتى عام 1962م، إلا أن الافتراق ظل يتسع حتى أصدر إخوان غزة أمرا بالتمايز التام: إما مع الإخوان أو مع فتح. وحتى بعد أن حلَّت نكبة 1967 وشاركت تنظيمات الإخوان بالخارج في "معسكرات الشيوخ" بالأردن فإن "قيادة التنظيم الفلسطيني لم تَتَبنَّ المشاركة في هذه المعسكرات، على أساس أن هذا العمل العسكري سابق لأوانه"[2].

يروي عدنان مسودي، أحد مؤسسي حماس في الضفة، هذه الفترة في مذكراته، فيذكر أنه حين عاد إلى فلسطين (1970م) كان محملا بأفكار الجهاد والمقاومة التي تلقاها في "معسكرات الشيوخ" وفي سوريا، لكنه فوجئ أن فكرة مقاومة الاحتلال تسبب صدمة للإخوان هناك، واكتشف أن الإخوان هناك لم يقرؤوا تراث الحركة الإسلامية نفسها مثل "في ظلال القرآن" و"معالم في الطريق" كلاهما لسيد قطب و"جاهلية القرن العشرين" لمحمد قطب، فعقدت له جلسة خاصة من قيادة الإخوان في الخليل، ودارت فيها نفس الأفكار التي نسمعها اليوم في مصر حول خطورة هذه

الأفكار والعجز عن تحويلها إلى واقع وصدورها عن شاب متحمس لم يختبر شدة العدو وجهازه العسكري، ومسودي من ناحيته يدافع ويقول: لسنا أقل من فتح أو الجبهة الشعبية، ثم انتهى الاجتماع بقرارين؛ قرار من جهتهم برفض ما يقول وبتحذيره من الاتصال "بأحد من الإخوان الذين كنت تعرفهم، فقد يكون هذا الأخ (عميل)!؟"، وقرار من جهته هو بالعمل بعيدا عنهم في تكوين حركة واستقطاب شباب على هذه الأفكار. ومن الطريف اللافت للنظر أنه سمى تلك الفترة بـ "انقلاب قطبي"[3]!

وأما في قطاع غزة فلا خلاف في أن تأسيس حماس كان منفصلا عن الإخوان المسلمين، وقد بدأه الشيخ أحمد ياسين الذي صرح بانتفاء كونه من الإخوان حتى الثلاثين من عمره وإن كان تتلمذ على أفكار حسن البنا وسيد قطب ومحمد قطب ومحمد الغزالي، واستخدم في وصف حماس تعبير "خرجت من رحم الإخوان المسلمين، هذا صحيح، لأنه فكرنا ونشاطنا هو نفس الفكر والنشاط"[4]، وذكر بأن الإخوان في تلك المرحلة لم يكونوا يقاومون "مع إن اللي بيشتغلوا مش الإخوان، الإخوان لسه نايمين، ماعندهمش خبر"، وإنما هم الشباب الذين خرجوا من الإخوان ليقاوموا وأسسوا حركة "فتح"، وكان خلاف الشيخ ياسين مع نهج فتح خلافا في سياسة توسيع منطقة المواجهة لتشمل دولا عربية أو غربية، ولذلك لم ينضم إليهم، وعمل على تكوين تنظيم إسلامي مسلح في غزة والذي بدأ يخرج إلى النور في مطلع الثمانينات. والطريف هنا أن أول ما طبعه الشيخ أحمد ياسين لتعليم وتوجيه الشباب في غزة كانت أجزاء من "في ظلال القرآن" لسيد قطب، كان يطبعها ويوزعها مجانا[5]، فلا نبعد إذا قلنا أن سيد قطب كان هو الأب الروحي الذي انطلقت حركة حماس من أفكاره.

وفي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى تجربة مجموعة أخرى، يرويها أحد أطرافها وهو المهندس إبراهيم غوشة في مذكراته، وخلاصتها أن حركة فتح التي بدأت بشباب من الإخوان انطلقت في اتجاه التسلح والمقاومة، وازداد الافتراق بينها وبين الإخوان، وانحرفت فتح عن الوجهة الإسلامية واتخذت وجها وطنيا علمانيا واستغرفت فيه (وهنا لا يملك المرء إلا أن يتحسر على قرارات قيادية استسلامية تدفع بالشباب الإسلامي إلى العلمانية)، ثم عندما شعرت فتح بتزايد الضغوط السياسية عليها عرضت على تنظيم الإخوان بفلسطين الانضمام إليها وبمواقع متقدمة، فاشترط الإخوان أن "تلتزم حركة فتح بالإسلام" فجاء الجواب بالرفض، وهكذا تم الافتراق وانتهت آمال التحالف والاندماج، وكان هذا في عام (1964م)[6].

لكن صدمة الهزيمة (1967م) دفعت عددا من الشباب إلى القيام بحركة تصحيحية داخل الإخوان المسلمين، إذ لم يُرْضِهم ما أسفر عنه مؤتمر دعا إليه الإخوان في الأردن لكونه توقف عند الوصف والتحليل دون الدعوة إلى بناء جهادي للبدء في العمل، وهنا يقر إبراهيم غوشة بأن قرار حركة فتح لبدء المعركة كان "حكيما وبعيد النظر"، ويقول: "كنا نحن الإسلاميين وقبل حركة فتح يمكن أن نملأ الفراغ بالجهاد"، وهكذا بدأت مجموعة الشباب هؤلاء في مشروع جهادي داخل حركة الإخوان، وكانوا "متأثرين بفكر المرحوم حسن البنا وسيد قطب"، إلا أن الحركة لم تستمر لسببين؛ الأول: نذر المواجهة بين النظام الأردني والمقاومة الفلسطينية الذي انتهى إلى حادثة أيلول الأسود (1970م)، والثاني: أن قيادة الإخوان اكتشفت هذه الحركة وتمكنت من إجهاضها بالشدة واللين، ثم انتهى الشباب إلى "إنهاء هذه التجربة، على أن يُترك للزمن، وللعمل من داخل الصف تحقيق التصحيح المطلوب، حيث في هذه المرحلة الأخيرة خشينا من أن نكون سببا في شق الإخوان المسلمين"[7].

ولم يستطع أولئك الشباب شيئا على الحقيقة، لكن بعضا من أحلامهم بدأ يتحقق بعد ثلاثة عشر سنة (1983) حين أنشأ الإخوان قسم فلسطين، واتفقوا في مؤتمر أن العمل لتحريرها لا يتعارض مع السعي لإقامة دولة إسلامية، إلا أنهم على الحقيقة دعموا حراكا قد تكون على الأرض من خارج صفوفهم التقليدية سواء في قطاع غزة أو في الضفة، وكان الدعم ماليا ومعنويا، فلو نظرنا إلى مسار التاريخ لوجدنا ثلاثين سنة تفصل بين 1954 و1983، هذه الثلاثين سنة أفرزت على الأرض حراكا لم ينشأ ضمن الإخوان المسلمين في فلسطين.

والخلاصة التي نريد قولها في النهاية أن الجيل المهزوم الذي قرر الانتظار إلى حين تتحسن الظروف لم يفعل شيئا حين تحسنت الظروف، بل كان ظرفا سيئا ضمن الظروف المعيقة والمضادة لتجربة المقاومة، المقاومة التي بدأها جيل جديد إما تفلت من هذه القيادة القديمة فأسس كيانات أخرى، أو أتى بعدها فأسس كيانات تجاهلت الجيل القديم وجنَّبْته الحركة، وحسنا فعلوا فإنه أمر لم يعودوا يحسنونه.

والسؤال هنا: هل يستوعب الشباب درس التاريخ فيُقدمون؟ وهل يستوعب الشيوخ فيؤدون أمانة الله ثم أمانة الأمة فيفسحون الطريق ولا يكونوا من المعوقين؟!

---

[1] د. محسن صالح، حركة المقاومة الإسلامية (حماس): قراءة في رصيد التجربة 1987 – 2005، ضمن: محسن صالح (محرر)، حماس: دراسات في الفكر والتجربة، ط2 (بيروت: مركز الزيتونة، 2015م)، ص27.

[2] نفس المصدر ص28.

[3] بلال محمد (محرر)، إلى المواجهة: ذكريات د. عدنان مسودي، ط1 (بيروت: مركز الزيتونة، 2013م)، ص71 وما بعدها.

[4] أحمد ياسين، برنامج: شاهد على العصر، الحلقة الثانية، قناة الجزيرة، بتاريخ 24 إبريل 1999م.

[5] نفس المصدر، الحلقة الثالثة، بتاريخ 1 مايو 1999م.

[6] إبراهيم غوشة، المئذنة الحمراء: سيرة ذاتية، ط2 (بيروت: مركز الزيتونة، 2015م)، ص93، 94.

[7] نفس المصدر، ص107 – 109

تنصيب الأنظمة العربية هو صفقة القرن الحقيقية

في نفس اليوم (28 يناير 2020م) سقطت معرة النعمان بيد قوات نظام الأسد، وأعلن ترمب صفقة القرن واقفا إلى جوار نتنياهو، ونشر خريطة لقطع من الأرض المتمزقة والمتناثرة ومعها خمسين مليار دولار كحلٍّ للقضية الفلسطينية.
يمكن قول الكثير في كلا الأمريْن، وهو ما ستفيض فيه الأقلام لا ريب، لكن الذي يجب أن يلفت النظر في كلا الأمريْن هو الحرص الأجنبي على بقاء السلطة المحلية "الوطنية" في مشهد الصراع، فإذا كانت روسيا قادرة على هزيمة الثورة السورية بتفوقها العسكري الكاسح، وإذا كانت إسرائيل قادرة على احتلال الأراضي الفلسطينية، فلماذا يحرصان على بقاء سلطة الأسد ونظام محمود عباس؟!

إن فهم هذا الحرص قد يكون مفتاح الحل الرئيسي لقضايانا المتعددة، لقد وفَّرت هذه الأنظمة كل ما من شأنه أن يجعل احتلال بلادنا عملية سهلة سائغة قليلة التكاليف للأجنبي المحتل، ومن ثَمَّ فإن بقاءها صار ضرورةً لا يمكن الاستغناء عنها. فلا يمكن لإسرائيل أن تعيش بدون سلطة فلسطينية، ولا يمكن لروسيا أن تخوض حربها ضد الثورة السورية بدون نظام الأسد، ولا يمكن للأمريكان أن يسيطروا على أفغانستان بدون سلطة محلية.. وهكذا!

إسرائيل، أصلا، لم تنشأ إلا بمجهود الأنظمة العربية المحيطة في حمايتها ورعايتها، مهما جعجعوا أياما طويلة ضدها، ولم تكن إسرائيل يوما ما أشد رعبا من يومٍ بدا فيه أن أنظمة هذه الدول المحيطة بها تعاني من تهديد الثورات العربية. وكتب التاريخ مثل صفحات الواقع حافلة بالتفاصيل!

لقد تحولت بلادنا تحت هذه الأنظمة الحاكمة إلى سجون حقيقية، وهذه الأنظمة هي السجَّان، ولكننا نحن –المسجونين- ننفق الكثير جدا جدا جدا من الوقت والطاقة في الجدال حول ما إن كنا في سجن أم لا؟ وما كنا لننفق هذا كله لو تغير أمر واحدٌ فقط: لو كان المحتل أجنبيا صراحة!

لو كان المحتل أجنبيا كنا سنبصر في التو واللحظة أننا في سجن يديره الاحتلال وأنه يجب علينا أن نتحرر منه، أما حيث أن السجان يشبهنا، فقد صار كثرةٌ منا يدافعون عن السجن ويظنونه الوطن، وعن العبودية ويظنونها الوطنية، وعن القيود ويظنونها نظاما، وعن التعذيب ويظنونه عقوبة

عادلة للمتمردين، وعن أباطرة التعذيب ويظنونهم حماة الوطن، ويهاجمون من يحاول التحرر ويظنونه إرهابيا، بل يهاجمون فكرة التحرر أصلا ويظنونها الفوضى!

السيطرة على وعي الإنسان يساوي السيطرة عليه والتحكم فيه! وهذا الوعي الزائف أقتلُ ما أصاب أمتنا وعرقل مجهوداتها نحو التحرر! وذلك أنه نقل قسما كبيرا من أبناء الأمة نفسها ليكونوا جنودا في جيش العدو الأجنبي، يوفرون عليه الدماء والأموال والمجهود!

وإذا نظرنا في تاريخنا قبل أكثر من مائة عام وحسبنا عدد الذين قتلهم العدو وقارنَّاهم بمن قتلتهم الجيوش "الوطنية" وأجهزة الأمن لخرجنا بالنتيجة الفظيعة المرعبة التي تؤكد ما نقول! بل لو أتيح لنا أن نحسب عمليات المقاومة التي أجهضها العدو بنفسه، والعمليات التي أجهضها بفضل أجهزة الأمن "الوطنية" لخرجت لنا النتيجة الأكثر فظاعة وإرعابا!

إن السلطة الفلسطينية هي آخر من ينبغي أن يفكر في تركيب كاميرات مراقبة في شوارع الضفة الغربية، فإنها تعاني من فراغ كل مظاهر السلطة والسيادة، وينتشر فيها الفساد المالي والأخلاقي، ويُفترض أنها في مهمة تحرر وطني إذا صدَّقنا ما تعلنه، ولكنها مع ذلك تمتلك جهازا أمنيا مدربا تدريبا ممتازا، وتحرص على نشر الكاميرات في كل مناطق الضفة، لماذا؟ لأن مهمتها الحقيقية هي حماية إسرائيل، وإدارة شأن الفلسطينين اليومي بما يرفع هذا العبء عن الإسرائيليين!

كذلك، تلقي روسيا حممها من طيرانها البعيد المرتفع، ولكنها لا تحصد شيئا على الأرض إلا من خلال قوات نظام الأسد الذين يهلكون في المعارك، ولا ثمن لهم عند أحد، فإذا وضعتَ نفسك مكان الروسي: فمن أين سيكون لك مئات آلاف الجنود على الأرض إن لم يكن نظام الأسد موجودا؟!

إن تاريخ هذه الأنظمة العربية في دعم إنشاء إسرائيل ورعايتها وتمكينها من الهيمنة تاريخٌ أسودٌ ضخم، ولن يُعرف حق المعرفة إلا حين تزول هذه الأنظمة.. وفي هذا الشهر الماضي وحده بدأ تصدير الغاز الإسرائيلي لمصر!

تصدير الغاز الإسرائيلي لمصر هو مجرد حدث واحد في ملايين الأحداث التي مَكَّنَت بها الأنظمة لإسرائيل، وقد كنتُ سألت بعض الأصدقاء المهتمين بهذا الملف فأخبروني بعدد من المفاجآت ملخصها كالآتي:

حقول الغاز الموجودة في البحر المتوسط تقع ضمن الحدود المصرية، لكن النظام المصري تنازل عنها لإسرائيل، غير أن المشكلة أن إسرائيل لا تمتلك بعض التقنيات الضرورية لبيع الغاز، فجرى الاتفاق على أن تبيع إسرائيل هذا الغاز لمصر، لكن مصر في هذا الوقت لا تحتاج لاستيراد الغاز لأنها تستخرج من حقولها ما يغطي هذه الحاجة، فقررت مصر خفض إنتاجها من الغاز لكي تفسح الطريق للغاز المستورد!

وهكذا ترى كيف أن الأمة خسرت ثلاث مرات: خسرت الأموال الضخمة بالتنازل عن الغاز، ثم خسرت أكثر منها حين تشتريه مرة أخرى بأكثر من ثمنه، ثم خسرت بتعطيل إنتاجها من الغاز. وكسبت إسرائيل ثلاث مرات.. وهكذا تبرعنا بدمائنا لتمكين عدونا، فعلها طبيبٌ يبدو أنه منَّا، وفعلها وهو يقول أنها في مصلحتنا!!

ترى ما شعورك حين ترى طبيبا فقأ عين أبيك ليتبرع بها إنقاذا لعين قاتله، وأنت لا تدري، فتشكره وتمتنُّ له، وتحسب أنه فعله لصالحك!

وهذه قناة السويس الجديدة.. المشروع الأبرز الأضخم لحماية إسرائيل!

قد ذكرتُ في مقالات وبحث سابق أنه ما كان ممكنا أن تنشأ إسرائيل وتتمتع بالبقاء الآمن لولا الحماية التي وفرتها قناة السويس كمانع طبيعي يفصل بين سيناء وبين بقية أرض مصر، ويجعل التواصل بين أهل الوادي وأهل سيناء تحت المراقبة والتحكم، وقد اعترف قادة حرب أكتوبر –بمن فيهم السادات- أن قناة السويس هي أصعب مانع مائي حربي. ومع ذلك كانت سياسة النظام المصري منذ السادات وحتى السيسي زيادة التفريعات في قناة السويس، باستثناء مرسي رحمه الله الذي أراد أن يقيم حولها كثافة سكانية وتجارية تعيد اتصال سيناء بالوادي. فكانت هذه التفريعات تحفر بالأموال المصرية لتزيد من صعوبة واتساع المانع المائي لقناة السويس، فلما جاء السيسي

وصل بين هذه التفريعات بتفريعة هي الأكبر والأضخم، وبها صارت قناة السويس قناتيْن، وتحول المانع المائي إلى مانعيْن، يستحيل أن تتكرر فيهما قصة العبور التي كانت في حرب أكتوبر.

لكن الشاهد المقصود هنا أن هذا كله تم بأموال المصريين، وبحملة جعلتهم يقدمون أموالهم عن رضا وطواعية وانتظارا لمكسب عظيم يعود عليهم منها، واستهلك المشروع احتياط النقد الأجنبي، وأفضى إلى أزمة خانقة في الدولار وترتبت عليه آثار اقتصادية ضخمة.. وبهذا بنى المصريون بأموالهم ودفعوا من مجهودهم وعرقهم تكلفة بناء حماية جديدة لإسرائيل. ما كانت إسرائيل لتحلم بشيء من هذا، فانظر كيف صار الحلم حقيقة عبر النظام الخائن العميل.

إن مواجهة صفقة القرن لن تكون في بيت المقدس، بل هي على الحقيقة في القاهرة ودمشق وبغداد والحجاز، وعبر التاريخ كان فتح بيت المقدس بعد فتح جزيرة العرب والعراق والشام، ولم يصل صلاح الدين إلى بيت المقدس إلا بعد أن تحررت دمشق والقاهرة والحجاز، ثم لم يحتل الإنجليز بيت المقدس إلا بعد أن كانت القاهرة ودمشق وبلاد العرب تحت الاحتلال، ولم تُغرس إسرائيل إلا بعد تنصيب هذه الأنظمة!.. هذه سيرة التاريخ وهي أصدق من كل التحليلات السياسية الخائبة التي تتصور أنه يمكن عقد الأمل على نظام من هذه الأنظمة!

يقولون كيف؟!

نعم إن المهمة ثقيلة، ولكننا لسنا أول أمة تقع تحت الاحتلال والاستبداد، ولسنا أول أمة تعاني من حكم الخونة، ومن ثَمَّ فلسنا أول أمة تفكر في المقاومة وهي في موقع الاستضعاف!

فأول بند في إجابة سؤال كيف: أن نؤمن أن الهزيمة ليست قدرا، وأن النصر ليس مستحيلا، وأن المقاومة واجبة علينا مهما اختلت موازين القوى!

وثاني بند: أن نعلم ما نملكه من الموارد، فنحن بحمد الله نمتلك أصلب عقيدة لا تزال تحير عدونا لشدة ثباتها وأصالتها وعمقها في النفوس وتجددها عبر الأجيال، ثم إننا نملك طاقة من البسالة الهادرة التي أفصحت ثورات الربيع العربي وساحات الكفاح عن جانب منها، ولا تزال تفصح وتكشف!

ثالث بند: أن نعلم مواضع ضعفنا ومن أين نؤتى.. وإن لدينا ضعفا خطيرا في مسألة القيادة ذات الكفاءة التي تستطيع أن تجمع بين فهم الدين وفهم الواقع، بين السياسة والقتال، بين الحلم والحزم. ولدينا ضعفا خطيرا في الجانب الأمني والمعلومات وهو ما يجعلنا على ضعفنا كالملاكم الذي لا يعرف أين يضرب ومتى؟ وهذا الضعف يجعل صفوف الفاعلين غير مؤمنة ضد الاختراقات الأمنية حتى وصل إلى قيادة حركات إسلامية فعالة من هم عملاء لأجهزة الأمن والمخابرات، فكانت ضرباتهم من الداخل أقسى وأقتل من كل ضربات العدو في الخارج. ثم إن لدينا ضعفا خطيرا في جانب المبتكرين والمبدعين، أولئك الذين يستطيعون بفكرة وبشيء من الإمكانيات أن يضيقوا فارق الفجوة العلمية الرهيبة التي تقتلنا قتلا وتحصدنا حصدا؛ فما أشد حاجة أمتنا إلى فكرة تعطل تفوق الطيران فقط، لو امتلكنا هذا لاختلفت نتائج المعارك اختلافا حاسما.

ومع هذا فإنه لا مجال للوصول إلى الحل ومعالجة نقاط الضعف إلا بمواصلة العمل والكفاح، ففي ساحاته ينبت القادة وتظهر الكفاءات، ولأجل ضروراته تنشأ المحاذير الأمنية وتلح الحاجة إلى المعلومات، وتحت وطأته تخرج الأفكار والإبداعات! والحمد لله الذي تعبدنا ببذل المجهود ولم يحاسبنا على بلوغ الغايات.

قد خرج سلمان الفارسي من بيته في فارس وراء معلومة سمعها يوما، فظل ينتقل من فارس إلى العراق إلى الأناضول إلى الحجاز حتى بلغ غايته فلقي النبي، ثم لقي معه الكرامة الكبرى "سلمان منا آل البيت"، ثم رافق النبي حتى كان على يديه نجاة دولة الإسلام بفكرة "الخندق" في أخطر لحظة تهديد للدولة الإسلامية، ثم واصل الجهاد حتى دخل أرض فارس فاتحا وهي التي خرج منها خائفا يترقب. نعم النموذج في الهمة، ونعم النموذج في الصبر والدأب والسعي وراء الحق حتى يدركه.. وما أحوجنا إلى ذلك..

لا يعرف المسلم اليأس.. ولا مشيئة فوق مشيئة الله.. وكم من اتفاقيات أبرمها الساسة الطغاة سحقتها أقدام المستضعفين النحيفة الدامية! ومن كان يدري أن أبا جهل هشام بن عمرو بن المغيرة المخزومي سيد بني مخزوم في قريش تكون نهايته تحت قدم ابن أم عبد، راعي الغنم نحيف الساقين، من كان لا يجرؤ قبل الإسلام أن يرفع عينه في مثل أبي جهل؟!

ثم من كان يدري أن يتعثر الأمريكان، أضخم قوة في الأرض، في أفغانستان التي تبدو متهالكة ضعيفة فقيرة تنهبها المجاعة؟ أو في العراق المنهكة بعد ثلاثين سنة من الحروب ونحو خمسة عشر عاما من الحصار وبعد نصف قرن من الطغيان الذي أهلكها؟!

في التاريخ عبر كثيرة كثيرة.. وما أحوج المهزوم المستضعف إلى أن يتعلم.

نشر في مجلة كلمة حق

بعض ما قدمته مصر لفلسطين

يعزف الإعلام المصري نغمة قديمة مكرورة بأن مصر دخلت أربعة حروب من أجل فلسطين! وقدمت للقضية ما لم يقدمه أحد في الأولين والآخرين، ثم يخلصون إلى المُراد فيقولون بأن واجب المرحلة هو الالتفات للمصالح الوطنية والتي تقتضي –طبعا!- التعاون مع إسرائيل.

لا يكلف أحد نفسه ليسأل السؤال البسيط البديهي: ما هي الحروب التي خاضتها مصر من أجل فلسطين؟.. عندئذ تتبخر الحروب الأربعة فلا تبقى إلا حربا واحدة هزيلة هي حرب 1948، ولقد هُزِم فيها الجيش المصري هزيمة أضاع بها فلسطين، فلو أنهم لم يدخلوا لما وقعت الهزيمة على هذا النحو الكارثي.. وأما بقية الحروب فقد كانت على أرض مصر وكانت هزائم أيضا، والحرب الوحيدة التي يفتخرون بها لم يفكر مخططوها في فلسطين أصلا ثم انتهت في أحسن أحوالها بالتعادل أو بالانتصار الإسرائيلي طبقا لما آلت إليه الأوضاع فيما بعد.

ما لا يقولونه في الإعلام المصري هو ذلك المجهود الذي بذلته السلطة المصرية في إقامة وترسيخ الوجود الإسرائيلي وحمايته من المصريين والفلسطينيين على السواء، منذ بداية التفكير فيه حتى لحظة كتابة هذه السطور.. هذا ما نسوق إليك شذرات سريعة منه:

السياسة المصرية

عندما مرَّ آرثر بلفور صاحب الوعد المشهور بدولة يهودية بالقاهرة في طريقه لافتتاح الجامعة العبرية (1925م) هتف ضده مجموعة من الفلسطينيين، لكن مصيرهم كان الاعتقال على يد وزير الداخلية إسماعيل صدقي!! كان صدقي وزيرا في حكومة أحمد زيور باشا، زيور هو الذي أوفد أحمد لطفي السيد –رئيس الجامعة المصرية حينها- كمندوب من قبل الحكومة المصرية لحضور حفل افتتاح الجامعة العبرية! وأما طه حسين فقد أرسل برقية تهنئة، لكنه فيما بعد زار القدس بدعوة من الجامعة العبرية والسير رونالد ستور "الحاكم العسكري البريطاني للقدس، وأرسل إلى الجامعة العبرية طالبا مصريا لاستكمال الدراسة فيها متحايلا على القوانين التي تمنع هذا!

وحين اشتعلت ثورة البراق في فلسطين (1929م) وقفت الحكومة المصرية برئاسة محمد محمود باشا ضد ثورتهم وهددت صحيفة "السياسة" التي هي لسان الحكومة حينها الفلسطينيين في مصر بالطرد لأنهم يثيرون الفتنة الطائفية ويهيجون الرأي العام.

وفي (1930) شن إسماعيل صدقي –رئيس الوزراء الجديد- حملة واسعة ضد الحركة الوطنية المصرية، فكان من بينها إغلاقه جريدة "الشورى" الفلسطينية التي كانت تصدر في مصر، فيما بقيت صحيفة "إسرائيل" لم يمسسها سوء، وكانت الصحيفة الناطقة باسم الحركة الصهيونية. ثم شاركت حكومة صدقي في معرض تل أبيب الصهيوني (ربيع 1932م) ضاربة عرض الحائط بالنداءات المعارضة، ثم عادت معروضاتها كما هي لم يُبع منها شيء إذ قاطع الفلسطينيون المعرض ولم يشتر اليهود منها شيئا!

وفي ذروة الثورة الفلسطينية الكبرى (1936م) والتي بدأت بالإضراب العام الكبير وافق مصطفى النحاس على سفر مئات العمال المصريين إلى فلسطين لسد العجز الذي تسبب فيه الإضراب.

ولما ذهب محمد محمود، رئيس الوزراء، إلى أوروبا (1938م)، وسأله محرر الديلي ميل عن نواياه في مسألة فلسطين ضمن مفاوضاته مع الإنجليز، فرد عليه قائلا: "أنا رئيس وزراء مصر، ولست رئيس وزراء فلسطين".

وأما الملك، فموقفه لا يختلف عن مواقف الرئيس المصري فيما بعد، هو ينطلق من أنه المحتكر لقضية فلسطين، المهاجم لكل من يحاول الدخول على خطها، لكنه مع هذا لا يفعل لها شيئا، كالمثل القائل: لا يرحم ولا يعجبه أن تنزل رحمة الله. فمنذ أن فشلت خطة فؤاد في التلقب بلقب الخلافة (فبريطانيا ترفض بحسم، وهيجت كل أبواقها الإعلامية العلمانية على اختلاف مشاربها ضده) نزع نفسه من كل سياق إسلامي، ورفض الاشتراك في المؤتمر الإسلامي (1931م) في القدس. وكان موقفه كما عبرت عنه صحيفة القصر "الاتحاد" هو: "وجوب انتقال الداعين [للمؤتمر] إلى مصر لمقابلة أهل الحل والعقد فيها والاتفاق على طريقة الاجتماع وتحديد موعده ووضع برنامجه".

الإعلام المصري!

ولقد كانت الصحافة المصرية تشهد الأصوات نفسها التي نراها الآن في الإعلام المصري، ففي أثناء ثورة البراق كتب عبد الله عنان في جريدة السياسة الأسبوعية يستنكر أسلوب العنف الذي لجأ إليه الشعب الفلسطيني، ونصح كلا من العرب واليهود بالاعتدال (= ضبط النفس!) ودعا العرب إلى الاتحاد والجهاد السلمي المستمر، كما دعا اليهود إلى طمأنة العرب بأن وطنهم القومي ما هو إلا معنى متواضع وفي دائرة محدودة وأنه ينشد إقامة الوئام والتفاهم (= السلام والتعايش!) مع أصحاب البلاد. ومثله تكلم محمد حسين هيكل. وقد تناغمت الصحافة الإسرائيلية مع هذا الخطاب (تماما كما يتناغمون الآن مع يوسف زيدان مثلا) فأرسلت صحيفة هآرتس ردا نشرته صحيفة السياسة تؤكد فيه "أسفها الشديد لأنها أول مرة فقط تسمع صوتا مستنيرا في العالم الإسلامي يشجب سياسة العنف التي يسلكها الشعب الفلسطيني لتحقيق أمانيه"! وردت صحيفة إسرائيل على مقال حسين هيكل واصفة إياه بأنه "خير ما كتب إلى الآن باللغة العربية بأسلوب بريء من الهوى وروح الإخلاص". وقد تبنت جريدة "السياسة" أسلوب النضال السلمي والقانوني واللجوء إلى التحكيم الدولي وترك العنف، ومن ثم أخذت في مهاجمة حركة المقاومة الفلسطينية وصارت ترمي قياداتها بافتقادها لشروط الزعامة وبأنها تضم خليطا من العناصر المفككة المتناقضة وأنه ليس لديها برنامج وطني واضح... إلخ!

وأما جريدة القصر (السراي)، فقد بلغت مرحلة أعلى، حيث اعتبرت أن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين هو الحل لمشكلات فلسطين، حيث سيأتون معهم بالنمو والازدهار ورؤوس الأموال، وأن الحل هو في اتفاق العرب واليهود فيما بينهم ليتم لهم النعيم، بل وزعمت الصحيفة أن الفئات العربية المتطرفة قد بدأت تقتنع بهذا الحل، لا سيما بعدما بدأ الفلسطينيون يعايشون اليهود وصاروا أكثر تقبلا للتفاهم معهم.

الجيش المصري

الحرب الوحيدة التي يمكن القول بأن مصر خاضتها لأجل فلسطين هي حرب 1948، وقد كان إنجاز الجيش المصري "العظيم" فيها أنه انطلق بلا عدة ولا خطة ولا معلومات، توغل إلى تل أبيب بلا مقاومة، ثم جاء اليهود من خلفه فحاصروه وقطعوا الإمدادات عنه، فبقي محاصرا، حتى جاءته أوامر الانسحاب فانسحب.. وأثناء الحصار استولى على الأقوات والطعام والممتلكات من

أهل القرى وجردهم من سلاحهم فتركهم عزلا أمام اليهود. ثم هو لم يدخل إلا بعد 15 مايو، أي بعد إعلان إسرائيل، تحت سمع بريطانيا وبصرها.

فالخلاصة أنه دخل وخرج ليتمم الهزيمة ويرسخ الوجود الإسرائيلي ويعود إلى دوره الجديد: ممارسة الانقلابات.. حيث سيقود عبد الناصر انقلابا وهو يرفع شعار فلسطين ليسحق البلاد والعباد ثم يموت وقد ترك إسرائيل عند قناة السويس!

فصول طويلة ومريرة، وشذرات لا تنتهي.. وقد كنا أشرنا إلى بعضها من قبل في مقالات سابقة، تكرم بمطالعتها هنا وهنا وهنا وهنا وهنا وهنا.

مصادر المقال:

- **د. عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، ص91 وما بعدها، 107 وما بعدها.**
- **سوزان طه حسين، معك (مذكرات زوجة طه حسين)، ترجمة: بدر الدين عروكي، مراجعة: محمود أمين العالم، ط1 (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2015م)، ص80، 154.**
- **مجلة النذير، العدد 9، 27 جمادى الأولى 1357 (= 25 يوليو 1938م)، ص6، 7.**

نشر في مدونات الجزيرة

مصانع الخيانة

روى الدكتور وليد سيف في مذكراته[1] أنه حين كان طالبا في لندن تعرف على عجوزٍ كان في شبابه جنديا بريطانيا خدم في فلسطين، يقول عنه: "صار بوسعه الآن بعد أن تحرر من التزامات الوظيفة أن يعبر عن تعاطفه مع الشعب الفلسطيني ويقر بدور بريطانيا في خلق نكباته ومآسيه... وإذ أجزم بصدق مشاعره في تلك اللحظات، فإني أجزم كذلك أنها ما كانت لتردعه أيام خدمته شابا في فلسطين عن النهوض بواجبات وظيفته بإخلاص وإتقان، مهما تكن جائرة بحق الشعب الفلسطيني. فالإنجليزي يُحسن الفصل بين عواطفه ومواقفه الفردية الذاتية من جهة، وبين مقتضيات وظيفته مهما تكن متعارضة مع الأولى من جهة أخرى. فالإخلاص لدولته ولعمله فيها مُقَدَّم على أي اعتبار ذاتي. وحديث الضمير مؤجل إلى ما بعد إنجاز المهمة. وليس عليه أن يلوم نفسه فيما لا يدخل في نطاق إرادته ومسؤولياته وتخصصه. فسياسة الدولة وقرارات الحرب والسلم من عمل الزعماء والساسة. واحترام الاختصاص والتراتب الوظيفييْن من عقائد الدين المدني. وكل ذلك نتاج حداثة غربية اندمجت فيها مفاهيم العقلانية (أو الترشيد) بالبيروقراطية (ومعناها الأصلي: التجرد من الاعتبارات الشخصية وتحكيم اللوائح والنظم في العمل والإدارة. وذلك بخلاف ما آل إليه المعنى عندنا إذ يفيد التعقيدات الإدارية المفرطة)، والاحترافية، والتخصص الوظيفي المجتمعي. وبقدر ما أسهمت هذه المفاهيم مجتمعة في تقدم المجتمع الغربي وقوته، أسهمت كذلك في قسوته وجفوته ووحشته. فمطلب الكفاءة في الإنجاز يمكن أن يُضَحِّي أحيانا بالاعتبارات الإنسانية والأخلاقية التي تلابس المهمة"[2].

هكذا طوَّرت "الحضارة" الغربية نظاما يمكن فيه للجندي أن يرتكب المذابح بكل وحشية (أو: بكل كفاءة) ثم إذا بلغ سنّ المعاش سمح لنفسه أن يتعاطف مع من ذبحهم بكل إخلاص (أو: بكل إنسانية)!!

***

هذه الصورة على بشاعتها وقبحها قد تبدو مفهومة في ميزان النظرة المادية المتجردة من كل اعتبار أخلاقي، لكن كيف يمكن أن يُقبل في أي ميزان أن يكون صاحب هذه المذابح رجل من أهل البلد نفسها، يعمل في خدمة المحتلين بكل وحشية (أو: بكل كفاءة؟!).. فلئن كان الإنجليزي يسمع

ويطيع لحكومة هو انتخبها واختارها وهي تجعله في عافية ورفاهية وتؤمن له مستقبله ومستقبلا لأولاده، فما هي حجة وعذر من يفعلها من أبناء البلد المحتل؟!!

ما هي حجة فلسطيني يفعلها خدمة للإنجليز؟ أو جزائري خدمة للفرنسيين؟ أو مغربي خدمة للإسبان؟!.. وأيضا: ما هي حجة أي إنسان يفعلها خدمة لنظام جاء بالقهر والعنف والدبابة ومن ورائه جاء برغبة النفوذ الأجنبي المهيمن على بلادنا؟.. ثم ما هي حجة أي إنسان يفعلها وهذا النظام لا يُؤَمِّن له ولا لأبنائه طعاما نظيفا ولا تعليما مفيدا ولا طبا صحيحا ولا حياة طبيعية؟!

أحسب أني أعرف الإجابة: لقد فعلها هؤلاء جميعا لأن "الدولة" استطاعت صناعة عقيدة غرستها في النفوس.. لا يخلو الأمر من مكاسب يتمتع بها الخونة على سائر الناس لكن مجرد المكاسب لا تفسر وحدها هذا الإخلاص وتلك الوحشية (أو: الكفاءة) في خدمة النظام المحتل أو النظام المستبد.

لم يعد أولئك الذين يفعلون هذا يرون أنهم يخونون أو يظلمون، بل صاروا يحسبون أنهم يقومون بالواجب الوطني.. ومنهم من تفانى فيه حتى أهلك نفسه، وهو مقبل غير مدبر!!

***

هذه الصورة رواها د. خليل حسن خليل في مذكراته الروائية، وقد سُجِن في عهد عبد الناصر من بعد ما كان يعطي المحاضرات لعناصر الاتحاد الاشتراكي بل ومن بعد ما كان منتدبا للعمل في رئاسة الجمهورية، فسجل حوارا بينه وبين ضابط السجن الذي كان تلميذا له من قبل، سأله:

- هل تشترك في تعذيب المعتقلين؟

بهت الضابط عند سماع السؤال. تردد في الإجابة. ثم قال بصوت لا انفعال فيه ولا حسرة:

- طبعا!

-أنت؟! الإنسان الرقيق. التلميذ النجيب، ابن صديقي الحميم. لقد رباك أبوك تربية مهذبة طيبة.

- كل هذا اختفى أثناء تدريبنا في الكلية. ثم تلاشى تماما حينما وضعوا النجمة على كتفي!

- هل لا يدمى ضميرك، هذا التعذيب البشع الذي تباشره على الإنسان؟

- وهل يتعذب ضمير عشماوي حين يقصف برقاب المحكوم عليهم بالإعدام؟

- عشماوي يعدم الذين قضت المحاكم بإعدامهم.
- الفرق ليس كبيرا!
- ألهذه الدرجة؟
- نحن ضباط، نأكل العيش والجاتوه من هذه الوظيفة، ونتيه بها على الخلق. ونؤمر بالتعذيب فنستجيب.
- أتنفذون أوامر التعذيب بالضبط، أم تضيفون إليه؟
- أنا أنفذ العلاج الذي يضعه القادة بالضبط. أعطي للمريض الجرعة والحقن دون زيادة أو نقصان.
-كم أنت عادل!
- أنا أؤدي واجبي.
- وزملاؤك؟
- لا شأن لي بهم.
- علمت أن بعضهم ينهش لحم المعتقل، ويمصمص نخاعه، وكأنه وحش يستمتع بالوليمة.
- لا أريد أن أتحدث عن غيري. إنما لأنك أستاذي، وكنت تعطيني دروسا خصوصية بالمنزل مجانية، بحكم صداقتك لوالدي، سأقول لك:

التعذيب يثير في الإنسان غريزة غريبة. فبعض المعذبين يتشفى في المعتقل وكأنه عدوه، وكلما ألهب ظهره أو نفخ أحشاءه، كلما تملكته هذه الغريزة الحيوانية، وكلما اقترب من حرفة الجزارة! بفارق واحد، أن الخروف أو العجل يذبح ثم لا يحس بتقطيع أعضائه. وتبلغ الوحشية ذروتها، إذا بدت من المعتقل إشارة أو احتجاج أو تأفف. هناك يعتبر المعذب أنه أهين إهانة شخصية! لحقت بكرامته وعظمته وعظمة أسرته. فيتملكه سعار بربري، يصب أواره على المعتقل، وقد نفق كثير من المعتقلين بهذه الطريقة!
- أنت تستخدم كلمة "نفق"؟
- في مثل هذه البيئة يستوي الحمار والإنسان[3].

***

خطر لي مرة وأنا أقرأ التحقيقات مع الثائر البطل أحمد عرابي أن أفتح ملفا لأحفظ فيه أسماء الخونة الذين حققوا معه، فقد كانوا يبذلون في التحقيق جهدا واضحا في المحاصرة والتضييق وانتزاع الأقوال! فما أكملت لحظة حتى عرفت أن المهمة ثقيلة والأسماء طويلة وكثيرة..

لقد صار الظلم والخيانة مؤسسة وجهازا ودولة، منذ عهد الطاغية الجبار محمد علي، حتى صارت وظائف كالشرطة والعسكر والقضاء والمخابرات والإعلام هي بنفسها معاقل لتفريخ وإنتاج وتصنيع الخيانة والعمالة للاحتلال الأجنبي والاستبداد الداخلي.. حتى إن النادر القليل منهم مَنْ لم يتلوث بالمشاركة في هذه الأوحال! وأندر منهم من استقال من تلك المؤسسات فنجا بنفسه، وأندر من كل هؤلاء من فكر في المقاومة والإصلاح..

ذلك أن هذه الدولة وهذه المؤسسات جعلت الخيانة والعمالة والتعذيب والتزوير والبشاعة مدرسة فكرية، وجهة نظر، فلسفة ومنهجا، دينا متبوعا.. لقد أنتجت هذه الدولة ومؤسساتها عقيدتها التي جعلت كل هذا ينتقل من معنى الخيانة والعمالة والظلم إلى معنى الواجب الوطني والنظام والشرف! نعم.. صارت مهمة ثقيلة طويلة أن نتتبع أسماء من قبضوا على الوطنيين ومن حققوا معهم ومن حاكموهم ومن عذبوهم ومن شوهوا صورتهم بالأشعار والأغاني والمقالات.. قائمة لا تكاد تحصى ولا تُحصر ولا تنتهي..

وإن بعض العزاء أن التاريخ يصحح سيرته بعد سنين طويلة، كما قد أبقي اسم عرابي علما على الثورة والجهاد، وأبقى اسم الخديوي توفيق علما على الخيانة والعمالة!

***

لقد أنشأ الاحتلال وما زرعه في بلادنا من أنظمة تابعة له، أنشأ أجيالا تؤدي واجبها في حرب أبناء البلد دون هوادة، وبعض أولئك يقرأ الآن هذه السطور، لا بغرض التأمل في معانيها بل بغرض رصد وتحليل ما تحمله من أغراض ورسائل! ولقد ضرب الله مثلا بكلماته وله المثل الأعلى فأخبرنا أن الآية نفسها يضل بها كثيرا ويهدي بها كثيرا، وأن القرآن ينزل على بعض الناس هداية ويزيد الآخرين كفرا وفجورا. وما ذلك إلا لأن البعض نظر فيها يطلب منها الهداية والآخر نظر فيها يبحث عن مواضع الجدل ويلتمس النقص والعيب وإثارة الشبهات.

في لحظة كتابة هذه السطور تشن حرب محلية على أبسط مظاهر الدين، أغلقت السلطات في موريتانيا جمعية تكوين العلماء التي أنشأها الشيخ محمد الحسن ولد الددو، وهي جمعية تخرج من يتأصلون علميا بحفظ القرآن والسنة ومتون العلم، وبعدها بساعات صدر قرار من الحكومة الليبية التي لم يستقر لها قرار ولا تملك توفير رواتب للناس بعدم استقبال طلاب الابتدائي لمدراس التعليم الديني، وقبل ذلك عصف محمد بن سلمان بسائر الأنشطة العلمية والدعوية في مساجد بلاد الحرمين.. وأنى نظرت إلى بلد رأيت مثل هذا أو شيئا منه.

هذه الغارات العنيفة يقوم بها من يقولون بأنهم مسلمون، تحت عنوان مكافحة الإرهاب والتطرف، هذا مع أن سائر هذه الأنشطة والمؤسسات تبتعد تماما عن كل ما قد يثير حساسية الأنظمة والحكومات وأوليائهم، بل هي لم تنشأ أصلا إلا بموافقات وتصاريح أمنية ولم تمارس عملها إلا برقابة وتشديدات أمنية أيضا، أي أنها أبعد ما تكون عن هذه التهمة. وعندئذ لا يبقى لنا إلا تفسير من اثنين: إما أن هؤلاء القوم (تذكر دائما أنهم منتسبون للإسلام) يرون القرآن نفسه كتاب تطرف وإرهاب، وأنه مادة يجب مطاردتها وملاحقة تدريسها وتحفيظها. أو أنهم لا يفكرون في هذا أصلا وإنما يقومون بعملهم (بكفاءة) كما أُمِروا به، وطالما أنهم يقومون بوظيفتهم بكفاءة فلا معنى لأن يفكروا في شيء، ومن كان ينوي التفكير فليؤجله إلى لحظة سن المعاش كي يتعاطف مع من سجنهم وضربهم وآذاهم!

قبل أن ينشأ في بلادنا "صنم الدولة"، كان أهل العلم والفقه أصحاب مكانة وهيبة وتوقير، لا يجرؤ عليهم إلا من انخلع عامدا من الدين والأدب، ولا يتجاسر عليهم إلا من عرف من نفسه وعرف الناس منه السقوط والانحطاط.. أما حيث جاء صنم الدولة وانتصب معبودا فوق كل شيء، فلا ريب أن رغباته أوامر، وأن كل فرد في جهاز هذه الدولة إنما هو "عبد المأمور"!

إن أمام المجاهدين عملا طويلا ثقيلا لكسر هذا الصنم، وإعادة المرجعية العليا لتكون لله ورسوله، والعلماء هم أوائل المسؤولين عن إرجاع حجم "الدولة" لتكون خاضعة لله ولرسوله ولشريعته، وعليهم بذل المجهود كله في إفهام الناس أن كل ما خالف الدين هدر لا قيمة له ولا كرامة ولا احترام ولو صدر من الدولة، ولو قرره برلمانها ولو طبل له إعلامها..

إن حقيقة الصراع في كونه صراعا على السيادة، على المرجعية العليا، هل تكون لله أم لغير الله! وسيظل أهل العلم والدين والجهاد يتعرضون لإيذاء هذه الدولة مهما حاولوا الابتعاد عنها، فإنها تعرف أن عملهم في حقيقته هو تعظيم الدين ليكون مرجعية فوقها، ولتكون هي خاضعة له.. وهذا أمر لا يسمح به صاحب الباطل إلا مضطرا!

وهذا هو حقيقة التحرر والتحرير، وحقيقة الإخلاص والتوحيد.. أن يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد، وألا يكون أحد من الناس عبدا لنظام أو ملك أو رئيس أو وظيفة، يضطر معها إلى إلغاء عقله وتجميد ضميره لتنفيذ الأوامر بكل كفاءة!! أو يضطر معها للإيمان بأفكار رؤسائه وابتلاع كلامهم كي لا يعيش تعذيب الضمير وإلغاء العقل إذ ينفذ أوامرهم بكل كفاءة!!

حقيقة التوحيد والتحرر ألا يصرف الإنسان طاعته إلا لله.. وإعادة غرس هذا في الناس مهمة عظيمة بعد تضخم أجيال آمنت "بالدولة" حتى حاربت في سبيلها أخلص أبنائها وصفوة عقولها.

****

لئن كان بعض العزاء أن التاريخ سيصحح مسيرته بعد تبدل القوى وتغير الحال، إلا أن العزاء كله، وهذا هو ما يشفي الصدر حقا، أن الحساب الأخير عند الله تعالى، الله الذي لا يغفل ولا ينام ولا تخفى عليه خافية ولا يفلت منه أحد ولا تغيب عنه هفوة.. فهذا هو العزاء حقا.. وهذا هو شفاء الصدر حقا.. وتلك هي الطمأنينة حقا!

فسبحان الله.. الحق العدل المبين..

سبحان الذي قال:

{أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا، وأنكم إلينا لا ترجعون؟}
{ووضع الكتاب، فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون يا ويلتنا، مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها}

{يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين}
{عالم الغيب، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين}

ألا إنه لولا الله ولولا الدار الآخرة لكان نعيم هذه الدنيا في الانتحار والخروج منها.. فلله الحمد الذي جعل لعباده آخرة وحسابا وميزانا دقيقا، فلا يفلت منه عقوبته ظالم ولا من عدله ورحمته مظلوم.

نشر في مجلة كلمة حق، العدد الخامس عشر، أكتوبر 2018

---

[1] وهو لمن لم يعرف أفضل من كتب في الدراما التاريخية على الإطلاق، وهو قبل هذا أستاذ جامعي وأديب وشاعر ومفكر، وهو فلسطيني من

[2] وليد سيف، الشاهد المشهود، ص404، 405.

[3] د. حسن خليل حسن، الوارثون، ص369، 370

مذكرات الشيخ رفاعي طه (11)

من مؤسسي الجماعة الإسلامية المصرية

هكذا شاهد جيلنا حرب أكتوبر وانكسرت أحلامه في التحرير

- هتفنا في أول لحظات الحرب: لا وقف للحرب إلا بعد تحرير فلسطين
- لم نكن في غمرة الانتصار نصدق وسائل الإعلام المصرية
- كان الانتقال من القرية والمدرسة إلى المدينة والجامعة صدمة كبيرة

سجلها عنه وحررها: محمد إلهامي

لقراءة الحلقات السابقة:

حين أتذكر اليوم الأول من حرب أكتوبر أتذكر أن أول بيان صدر من القيادة العسكرية المصرية يقول: قامت طائرات من العدو الإسرائيلي بضرب قواتنا شرق (!) وغرب القناة، وأن طائراتنا المصرية قد تصدت لهذا العدوان وطاردت الطائرات الإسرائيلية حتى فوق سيناء.

كانوا فيما يبدو قد بدأوا يتعلمون فن صياغة البيانات التي تمهد للفكرة أو التي تجعل الموقف العسكري يبدو قانونيا منطلقا من حق الدفاع عن النفس، فكانت الصياغة تحمل معنى أن الأمر بدأ

دفاعا لكنه تطور إلى مطاردة الطائرات الإسرائيلية حتى شرق القناة فوق سيناء، وبعد زمن جاء البيان الثاني الذي يتحدث عن نجاح قواتنا في ضرب قوات العدو، وأنها الآن موجودة في سيناء وأنها تمكنت من عبور قناة السويس. هذا البيان هو الذي كان بمثابة الإعلان عن اشتعال الحرب وهو الذي أشعل الروح المعنوية في صفوف الشعب المصري، وانطلقت الحناجر تهتف باسم القدس ولرفض إيقاف الحرب قبل تحرير فلسطين.

سرى هذا النداء الفطري التلقائي بين الناس في اللحظات الأولى، كأن ثمة شعورا خفيا يجمع بينهم في أن هذه الحرب ستتوقف قبل القدس!! ربما يعود الأمر إلى الثقة المفقودة بين الشعوب العربية وحكامها وهو الأمر الذي يدفعهم لئلا يصدقوا حتى في لحظة الحرب أنها حرب صادقة وحقيقية وستستمر إلى بلوغ هدفها، وربما لهذا الأمر تفسيرات أخرى نتركها لعلماء الاجتماع وعلم النفس السياسي.

لكن المهم هنا أنني وجدتني مع ثلاثة أو أربعة من الطلاب من كليات مختلفة: هذا في كلية العلوم وهذا في كلية التجارة وهذا في كلية الهندسة، وجميعنا في اليوم الأول من الجامعة، وفي لحظة المعنويات المرتفعة، ومع ذلك، فسرعان ما اتفقنا على أن ننظم غدا مظاهرات بالجامعة تطالب باستمرار الحرب، لكن وقفت أمامنا مشكلة غير متوقعة: أن الحرب مستمرة بالفعل! جاء اليوم التالي والحرب مستمرة، ثم اليوم الثالث والحرب مستمرة.. وهكذا لم يعد للمظاهرات التي تطالب باستمرار الحرب أي معنى لأن الحرب مستمرة بالفعل!

طفق الناس يفكرون فيما ينبغي لهم فعله خلاف التظاهر، ومن نافلة القول أن الهبة الشعبية فعلت في الساعات الأولى ما كان ميسورا لها، لقد تدفق الناس كالسيل على المستشفيات للتبرع بالدم، كان الناس يتبرعون بدمائهم بانهمار غريب يمكن حتى وصفه بالجنون، إن التهاب المشاعر جعل الذين لم يحاربوا يسارعون في "سفك" دمائهم –إن صحَّ التعبير- تضامنا مع أولئك الذين يجاهدون الآن في سيناء.. ومع مرور الأيام الثلاثة والحرب مستمرة والناس تتبرع بالدم ظهرت وانتشرت وسادت أفكار التطوع للقتال ومساندة الذين على الجبهة!

ومع هذا كله فلقد كان جدار الثقة لا يزال غير مكتمل، كان الناس يتابعون الأخبار عبر الإذاعات الأجنبية، يتأكدون من حقيقة العبور وانتشار القوات المصرية من إذاعات لندن وأمريكا ومونت

كارلو، بعضٌ من أثر الخديعة الإعلامية في 1967 لا يزال حيًّا في النفوس، لكن الأمر يبدو وكأنه حقيقي هذه المرة، ها هي القوات المصرية تتوغل بعمق عشر كليومترات في شرق سيناء، وها هي الجولان تتحرر ويتقدم فيها الجيش السوري، وتفيد الأنباء أن القوات المصرية تستعد لمواصلة زحفها إلى ممرات متلا!

رغم أن القوات المصرية –كما عرفنا فيما بعد- لم تخطط ولم تنو أن تتقدم بعد هذه الكيلومترات العشر، ولم يكن في خطتها أصلا الوصول إلى ممر متلا إلا أن الإذاعات الأجنبية نقلت أحيانا خبر الزحف أو الوصول إلى ممرات متلا، حتى تلك المصادر لم تكن دقيقة، أو لعلها أرادت إعطاء المبرر والزخم لمعركة الدبابات التي كانت إسرائيل تحشد لها. فالصورة التي كانت تصلنا أن قواتنا في تقدم إلى وسط سيناء وأن إسرائيل تحاول عرقلتها ومدافعتها.

وقد عرفنا فيما بعد أن مصر لم تكن تمتلك أكثر من أربعمائة دبابة، لكن الأخبار والإذاعات كانت تتحدث عن أكبر معركة دبابات تدور الآن، عن ألف دبابة مصرية تواجه ألف دبابة إسرائيلية في سيناء، وكل هذا كان يعطي مزيدا من الزخم للمعنويات المرتفعة في الشعب المصري، والتي تسكب عليها الشعوب من نفسها مبالغات أخرى. ثم تنتهي معركة الدبابات هذه بأسر القائد الإسرائيلي عساف ياجوري والذي عُرِضت صورته وصورة بعض جنوده على الصحف والشاشات في مصر مما بلغ بمعنويات الناس عنان السماء، وأثبت لهم أن الأمور تسير على ما يرام أو حتى تسير بأفضل من المُتَوَقَّع.

لا شك أنه سقطت من ذاكرتي أشياء مهمة عن هذه المرحلة، لكن الذي أتحقق منه أن معنويات الناس ظلت في ارتفاع حتى خطاب السادات الذي ألقاه في مجلس الشعب (16 أكتوبر) بعد عشرة أيام من الحرب، وفيه طرح مسألة السلام وعقد مؤتمر سلام. هنا انكسرت معنويات الناس ودخلنا في مرحلة أخرى جديدة، مرحلةٌ صرنا نسمع فيها قول الناس: سنخسر دماء الشهداء ونحوها من العبارات التي تصب في نفس المعنى.

لم يلبث الأمر إلا ساعات بعد خطاب السادات إلا وبدأت تتسرب أنباء الثغرة، وبأن القتال صار عند حافة قناة السويس بعدما كانت الآمال تتابع تقدمه من وسط سيناء إلى ما وراءها، وبدأت الإذاعات تنقل أنباء استعادة الإسرائيليين لمناطق الجولان مرة أخرى، بدأ ميزان المعركة ينقلب وبدأت

إسرائيل تستعيد زمام المعركة، ثم جاءت الأنباء بأن القتال يحدث في السويس، ونقلت الشاشات والإذاعات أن جولدا مائير تزور قواتها في الجبهة وتعلن أنها تقاتل من قارة إفريقيا!!

خرج السادات مرة أخرى على الإعلام وقلَّل من أهمية الثغرة، والإذاعات تنقل أن قوات مصرية شرق القناة في سيناء ولكن ثمة قوات إسرائيلية أيضا غرب القناة، إذن فعلى الأقل لم نعد منتصرين والأمر ليس محسوما، برر السادات هذا الوضع وقال بأنه تكتيك وأن ما حققه الإسرائيليون ليس انتصارا استراتيجيا وأنهم محاصَرين أكثر مما هم مُحاصِرين، وأكد على الوضع المتفوق للقوات المصرية.

لكن الذي أستطيع تأكيده أن البيانات العسكرية كانت مهتزة بوضوح في أيام 22 و23 و24 أكتوبر، وكان يتضح فيها استصراخ العالم لوقف إطلاق النار، كان الشاب منا في تلك الفترة يستطيع أن يميز بسهولة حالة الهلع التي كان عليها الإعلام المصري آنذاك، ولست أدري ما إن كانت هذه هي الحالة العامة الموجودة في الجيش آنذاك أم لا، إلا أنها على كل حال –وكما عرفنا فيما بعد- كانت تعكس الحالة على الأرض، إذ كانت القوات الإسرائيلية قد استطاعت التقدم على طريق السويس واستطاعت حصار الجيش الثالث في جنوب غرب سيناء، وكان النظام المصري ملهوفا على وقف إطلاق النار. وبدا بشكل لا ريب فيه أن إسرائيل امتصت الضربة الأولى وأنها استعادت زمام الموقف.

ذلك ما أتذكره بوضوح من تلك الأيام، بالإضافة إلى الحالة النفسية العامة التي تدهورت بعد قبول وقف إطلاق النار، وبعد تسرب الخلافات التي كانت موجودة في قيادة الجيش كما عرفنا تفاصيلها بعد ذلك مما كان بين رئيس الأركان سعد الدين الشاذلي وبين وزير الحربية أحمد إسماعيل والسادات، وما سوى ذلك لا أستطيع الآن تذكره بوضوح.

منذ لحظة وقف إطلاق النار، بل منذ لحظة بدأ السادات الحديث عن السلام، وبدأت المعارضة تتصاعد ضده، وكانت الجامعة واحدة من أهم المسارح التي شهدت المعارضة الشرسة للسادات.

قاد التيار اليساري حملة ضخمة تنكر أن يكون السادات بطل حرب أو حتى بطل سلام، وأنه إنما سيبيع القضة للأمريكان، وقد دُعِم هذا الكلام حين خرج السادات فيما بعد وصرَّح قائلا بأن 99%

من أوراق اللعبة بيد الأمريكان، ثم دُعِم أكثر حين زار نيكسون الرئيس الأمريكي القاهرة في ربيع عام 1974م كنوع من الدعم والتأييد لموقف السادات، لكنها الزيارة التي أثبتت أن مصر قد تحولت إلى المعسكر الأمريكي وتخلت تماما عن المعسكر السوفيتي، وأن حرب أكتوبر التي استبشر بها الجميع قد انتهت إلى النتيجة التي لم يتوقعها أحد، وهنا تختلف التفسيرات: هل كانت من البداية حرب تحريك لا تحرير وكان مصيرها هذا مخطط سلفا عند قادة السياسة الكبار؟ أم أنها بدأت حرب تحرير ثم انتهت حرب تحريك وتمهيد لإنهاء ملف الصراع مع إسرائيل بل ولفتح ملف التطبيع والسلام معها؟.. هذا أمر نتركه للمؤرخين.

والشاهد أن دخولي إلى الجامعة ارتبط بهذه الحرب، وارتبطت أيامي الجامعية بالمعارضة التي انبثقت في أرجائها اعتراضا على سياسة السادات، ولقد كان ذلك يمثل لي تطورا دراميا شديدا، لقد كان خروجا من عصر عبد الناصر الذي كانت معارضته تكلف كثيرا في قرية نائية إلى عصر السادات الذي كانت معارضته ممكنة وصاخبة في ساحة ضخمة ومركزية كالجامعة.

وقد ترافق هذا مع تطور درامي آخر على مستواي الشخصي، فهذا ابن القرية النائية المغمورة وجد نفسه فجأة في مدينة ضخمة مثل أسيوط، نقلة أشبه بالصدمة الحضارية، وهذا ابن المدرسة الصغيرة المحددة الحصص والمحكومة النظام وجد نفسه في الجامعة الفسيحة المتراخية النظام والقيود، وهذا ابن الفصل الصغير يجد نفسه في المدرج الواسع المهيب، وهذا التلميذ الذي قد اعتاد التعامل مع أستاذ الفصل في المدرسة يجد نوعا آخر من الأساتذة في شخصية وأسلوب وطباع أستاذ الجامعة، وهذا ابن القرية المنضبطة أخلاقيا والتي ينتصب فيها حاجز واضح بين الرجال والنساء يجد هذا الاختلاط بين الشباب والفتيات في الجامعة وفي ظل انعدام رقابة أبوية لطالما اعتاد عليها حتى شكَّلت جزءا من نفسيته وتفكيره وإذا هي الآن غائبة مفقودة.

لولا وجود "السيكشن" لانتفى كل شبه بين المدرسة والجامعة، لكن هذه "السكاشن" ذَكَّرتنا بفصول المدرسة الصغيرة وأعداد الطلاب المحدودة.

كنت أحتاج وقتا حتى أستوعب هذا التغير في حياتي وأتعرف على هذا المجتمع الجديد كليا على تصوراتي، لكن الحياة لا تترك لأحد وقتا، وسرعان ما دخلت في المعمعة، ووجدتني في أيام الجامعة الأولى أخوض اشتباكا مع أستاذ القانون حول الشريعة الإسلامية!

نشر في **مجلة كلمة حق**

زوال جيوش العرب خير من بقائها

عمل الخبير العسكري الأمريكي نورفيل دي أتكين زمنا في مراقبة تدريبات الجيوش العربية، لاستخلاص استنتاجات حول طرقهم في القتال، كان يعمل ملحقا عسكريا للولايات المتحدة في عدد من الدول العربية، وعمل ضابطا للمساعدات الأمنية، وله تجارب شخصية مع الجيوش العربية.

في مطلع ديسمبر 1999م، نشر نورفيل ورقة بحثية في غاية الأهمية بعنوان "لماذا يخسر العرب الحروب"، وضع فيها خلاصة تجربته، تقول الخلاصة بأن جيوش العرب لم تظهر كفاءة في العصر الحديث؛ فالجيش المصري أخفق أمام مقاتلي عصابات في حرب اليمن، والجيش السوري لم يستطع السيطرة على لبنان إلا باستعمال الأسلحة والأعداد الساحقة، والجيش العراقي لم يحقق نجاحا أمام الجيش الإيراني وقتما كانت تمزقه اضطرابات الثورة الإيرانية، ولا أمام مقاتلي الأكراد لثلاثين سنة، فضلا عن أن كل مواجهات الجيوش العربية مع إسرائيل كان أداؤهم فيها رديئا.

الدراسة وإن كانت مهمة، إلا أني لم أشعر بإهانة كالتي شعرت بها حين قال: "يعامل معظم الضباط العرب الجنود المجندين كفئة أقل من البشر. عندما حملت رياح مصر يومًا ما حبيبات رمل حارقة من الصحراء أثناء استعراض لكبار الشخصيات الأمريكية الزائرة، رأيت فرقة من الجنود يسيرون ليشكلوا صف واحد لحماية الأميركيين؛ بعبارة أخرى، يُسْتَخدم الجنود المصريين أحيانًا كأنهم لا يزيدون عن مصدات الرياح"!!

هنا يطرح السؤال نفسه: ما فائدة الجيوش العربية إذن؟

هل تصدق أن الجيوش العربية لم تحقق نصرا واحدا على عدو للأمة؟!! ولا نصرا وحدا؟! ولا حتى حرب أكتوبر 1973 التي انتهت في الحقيقة بهزيمة واستسلام مصري بعد استعادة إسرائيل لزمام الأمور واستيعابها للمفاجأة العسكرية التي جرت في الأيام الأولى للحرب.

المعارك الوحيدة التي انتصروا فيها كانت على بعضهم، أو على شعوبهم، فهنا تنطق الأسلحة وتصهل المدافع وتزمجر الدبابات وتهدر الطائرات، تحصد العرب والمسلمين وتسكب دماءهم غزيرة فياضة، تملأ وديان أرض العرب المنكوبة!

من المفهوم أن تشتري كلبا للحراسة، لكن ماذا لو صار الكلب مسعورا لا ينهش إلا أصحاب الدار؟! فماذا لو أنه مع ذلك إذا حضر اللص ترك له الدار وجرى لا يلوي على شيء؟!! ثم ماذا لو صار الكلب دليل اللص يفتح له الدار ويقلب له الأثاث والمتاع حتى يحصل اللص على ما يريد ثم يمضي آمنا؟!!!

أصحاب الدار هؤلاء.. هل بقاء الكلب خير لهم أم زواله؟!!

قبل أيام صرَّح ماجد فرج، رئيس مخابرات السلطة الفلسطينية، ضمن فضائح كثيرة، بأن أجهزة الأمن أحبطت 200 عملية ضد الإسرائيليين.. فأيهما أفضل: أن يكون للفلسطينين جهاز مخابرات وسلطة أم لا يكون؟!

قارن هذا بغزة التي لما تحررت من هذه السلطة عجزت إسرائيل عن اجتياحها بأربعة حروب، رغم الحصار والتجويع والتفوق التقني والعسكري الكبير لصالحها، وعلى يد كتائب لا تتلقى رواتب من دماء الفلسطنيين وأموالهم كما يفعل جلاوزة السلطة العباسية العرفاتية في الضفة.

وسلطة الضفة ليست تختلف عن أخواتها في باقي بلاد العرب، ولسنا الآن في حاجة إلى تحليلات أو استنتاجات، بل نحن الآن في عصر الاعترافات والتسريبات، فيكفي أن نجلس ونبحث لنرى الفضائح بالصوت والصورة:

1. **هل تعلم مثلا أن اللواء محمد العصار، عضو المجلس العسكري المصري، افتخر بأن الجيش المصري عنصر مهم للأمن القومي الأمريكي؟ (فيديو).**

2. **فهل سمعت ثناء إيهود باراك –رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق- على السيسي وحث الأمريكان على دعمه، لأن إظهار الدعم الإسرائيلي له يُحرجه؟! (فيديو).**

3. هل رأيت رعنان جيسين –مستشار شارون، والمتحدث الأسبق باسم الحكومة الإسرائيلية- وهو مندهش، يبدي ندمه على أنه حين كان يفاوض على الانسحاب من سيناء أصرَّ ألا يكون فيها قوات للجيش المصري، بل يبقى البدو والجِمال فقط.. هو الآن يقول: يا إلهي، لو عادت بي الأيام لقلت: خذوا البدو والجمال واتركوا لنا الجيش المصري؟ (فيديو).

4. ماذا لو علمت أن الجيش المصري احتفل بذكرى مشاركته في الحرب العالمية الأولى لحساب الإنجليز ضد السودانيين والليبيين والدولة العثمانية؟ وهي الحرب التي سقطت فيها القدس بمشاركة الجيش المصري لتظل تحت الاحتلال الإنجليزي حتى خرجت إنجلترا وسلَّمت القدس لإسرائيل؟ (صور منشورة على صفحة المتحدث الرسمي للعسكر المصري).

5. ماذا لو سمعت بأذنيك عميدا في الجيش المصري وبعد يومين من الانقلاب العسكري يقول بوضوح أن السبب في الانقلاب هو سياسات مرسي تجاه إسرائيل ورفضه هدم الأنفاق مع غزة؟ حتى لقد اندهش المذيع الإنجليزي صاحب الحوار وقال له: هل معنى هذا أن الجيش الذي يزعم أنه تحرك رغبة لإرادة شعبية إنما تحرك حماية لإسرائيل؟! إنه الرئيس من حقه أن يحدد سياسته تجاه حماس أو غزة (استمع).

6. ماذا لو قرأت الغزل الإسرائيلي في السيسي على صفحات يديعوت أحرونوت؟

7. أو رأيت رئيس الأركان الأمريكي ديمبسي وهو يقرر نجاح "الاستثمار الأمريكي في الجيش المصري" وأن العسكر المصري "مُمَكِّن للسياسة الأمريكية" ولا خوف أبدا على المصالح الأمريكية من قِبَله، بل إنه "شريك قوي" للأمريكان وللإسرائيليين، ولذلك فهم "يستحقون الاستثمار فيهم" (فيديو).

8. وهذا فيديو آخر يقول فيه القائد العسكري الإسرائيلي: إن 30 سنة من العمل (الاستثمار في الجيش المصري) لم تضع هباءً!!

9. ثم ماذا لو رأيت فرحة هانتر فاريل، مدير البعثات التنصيرية العالمية للمشيخة البروتستانتية، بتشجيع العسكر المصري لمنظمتهم لنشر التنصير في مصر، وكيف أعطتهم السلطة المصرية أرضا ليبنوا عليها كنائس ومدارس لأول مرة منذ افتتحوا هذه المشيخة في مصر قبل مائة وخمسين عاما؟! (فيديو).

10. بل ماذا إذا سمعت المنصرين فرحين بما يقوله السيسي لمشايخ الأزهر ويعتبرونه نطق بلسانهم عما يريدون قوله؟ (فيديو 1، فيديو 2، فيديو3).

وإن عشرة من هذه الفضائح لكافية لمن كان له قلب، بل من كان له قلب يكفيه واحدة من هذه الفضائح.

وإذا اتضح هذا الحال، فلنا أن نكرر السؤال مرة أخرى: هل بقاء هذا العسكر خير لمصر؟ أم بقاؤها بغير جيش أفضل؟!!

الجواب عند الإمام الجويني رحمه الله، وهو مع كونه فقيها أصوليا راسخا، إلا أنه مفكر استراتيجي باصطلاح هذه الأيام، وكتابه "الغياثي" في السياسة الشرعية أقرب ما يكون لما يُسمى الآن في علوم البحث: توقع سيناريوهات المستقبل.

يقول فيه:

"إذا تواصل منه العصيان، وفشا منه العدوان، وظهر الفساد، وزال السداد، وتعطلت الحقوق والحدود، وارتفعت الصيانة، ووضحت الخيانة، واستجرأ الظلمة، ولم يجد المظلوم منتصفا ممن ظلمه، وتداعى الخلل والخطل إلى عظائم الأمور، وتعطيل الثغور، فلا بد من استدراك هذا الأمر

المتفاقم ... وذلك أن الإمامة إنما تعنى لنقيض هذه الحالة. فإذا أفضى الأمر إلى خلاف ما تقتضيه الزعامة والإيالة، فيجب استدراكه لا محالة، وترك الناس سدى، ملتطمين لا جامع لهم على الحق والباطل أجدى عليهم من تقريرهم على اتباع من هو عون الظالمين، وملاذ الغاشمين، وموئل الهاجمين، ومعتصم المارقين الناجمين".

انتهى كلام الجويني رحمه الله!

نشر في ساسة بوست

مائة عام على مولد يوشع براور ومحمد الغزالي

في عام 1936، وهو عام اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى، أي قبل الإعلان عن دولة إسرائيل باثنتي عشرة سنة، وصل إلى فلسطين شاب يهودي من بولندا في التاسعة عشرة من عمره، واتخذ قرارا بالاستقرار في "إسرائيل"، وهناك عكف على البحث والتنقيب في عصر الحروب الصليبية لكن من زاوية تندر فيها المؤلفات، ولم تمض خمسة أعوام حتى صدرت دراسته الأولى "دور اليهود في تجارة العصور الوسطى" (1941)، وظل يوالي البحث والتأليف لنصف قرن بعد هذه المدة، وقد انتقل للاستقرار في القدس الشرقية بعد الاحتلال الصهيوني لها (1967م)، حتى صدرت آخر مؤلفاته في القدس، وهو "تاريخ بيت المقدس: الحملات الصليبية والحقبة الأيوبية" (1991)، وهو ذات العام الذي توفي فيه.

هذا الشاب هو يوشع براور، مؤسس وزعيم مدرسة المؤرخين الإسرائيليين المتخصصة في دراسة الحروب الصليبية، وهو أبرز مؤرخ إسرائيلي في هذه الحقبة، وتلاميذه هم أهم المؤرخين الإسرائيليين في هذه الفترة، مثل: سلفيا سكين وبنيامين كيدار وأرييه جرابوا وغيرهم. وقد صدر له بعد وفاته كتاب تكريمي احتوى على 22 دراسة في التأريخ للحملات الصليبية ومملكة بيت المقدس كتبها أبرز مؤرخي تلك الحقبة في العالم، ومنهم ستيفن رانسيمان ورايلي سميث وكلود كاهن وغيرهم.

وضع براور كافة طاقته في خدمة الشروع الصهيوني، ليس فقط من حيث التأليف العلمي الحافل، وإنما بمشاركته منذ أيامه الأولى في القتال والمعارك، فقد انضم مطلع قدومه إلى العصابات الصهيونية، وأصيب في بعض معاركها، وعاصر سائر الحروب التي خاضها الكيان، ومات وهو يشهد الانتفاضة الفلسطينية، فختم حياته بذات المشهد الذي افتتحها به: مشهد المقاومة الفلسطينية المستمرة. وما بين البداية والنهاية عمل مستشارا للحكومة الإسرائيلية في التعليم، وفي مناصب أخرى ساهمت في تشكيل الوعي الصهيوني صغارا وكبارا، بل إنني وجدت ضمن خبر منشور (هاآرتس: 28 نوفمبر 2016) أن مريم زوجة رئيس الوزراء الصهيوني ليفي أشكول عملت كباحث مساعد مع يوشع براور.

أجاد براور خمس لغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية إضافة إلى العبرية، وكتب مؤلفاته بالعبرية والإنجليزية والفرنسية، مما أكسبه اطلاعا واسعا على مؤلفات الحروب الصليبية المصدرية، وكان حريصا على ترجمة بعض الكتب وإعادة نشرها بعد نفاد طبعاتها القديمة مثل كتاب مؤرخ الكنيسة الإيطالي مارينو ساوندو تورسيللو، ومتابعا للجديد الذي يصدر في هذا المجال. إلا أن الذي تميز به براور عن سائر السابقين له هو تركيزه الكبير على التكوين الداخلي لمملكة بيت المقدس، وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وطبيعة سكانها والعلاقات بينهم، كذلك التوفر على دراسة الينابيع وموارد المياه، ودراسة القلاع التي بناها الصليبيون من حيث كونها مستعمرات للاستفادة بخبرتهم وتجنب ما قد يكونوا أخطأوا فيه، وله دراسات أخرى عن الحدود الجنوبية والشمالية لمملكة بيت المقدس.

ومن اللافت للنظر أنه نشر عام 1956 دراسة عن عسقلان، ثم نشر عام 1967 دراسة بعنوان "إعادة الاستقرار اليهودي في بيت المقدس الصليبية"، وهو دليل على أن الرجل لم يكن منظرا أجوف ولا كان عمله مجرد التنظير، بل كان عمله ضمن المشروع الصهيوني الذي يجري تطبيقه على الأرض، ومن ثم رافق بحثه عن عسقلان العدوان الثلاثي على مصر كما رافق بحثه عن تهويد القدس احتلال القدس الشرقية.

لا يتسع المقام لأكثر من هذا عن يوشع براور ومدرسته، ويمكن الرجوع إلى المزيد عنه ضمن كتاب "المؤرخون الإسرائيليون والحروب الصليبية" للدكتور محمد مؤنس عوض، وعن هذا الكتاب استفدت ما كتبته هنا، وكذلك إلى مقدمتي ترجمتي كتابيه إلى العربية: "عالم الصليبيين" بقلم: د. قاسم عبده قاسم، و"الاستيطان الصليبي في فلسطين: مملكة بيت المقدس" بقلم: د. عبد الحافظ البنا.

والشاهد المقصود من إيراد كل ما سبق لفت النظر إلى الاهتمام الإسرائيلي المبكر جدا للاستفادة من التجربة الصليبية، تجربة بدأت قبل الإعلان عن إسرائيل نفسها، لقد استوعب صانعو المشروع أهمية التأسيس العلمي، كما استوعب العلماء أهمية أن يدرسوا للعمل والتطبيق لا لمجرد المتعة العلمية وإعادة إنتاج وتوليد نفس الأفكار بعبارات أخرى أو بترتيب آخر.. وهو درس لا بد من استيعابه في حركتنا لتحرير بيت المقدس.

والواقع أن ما يتسرب من الإنتاج العلمي الإسرائيلي ليشهد بقوة ونضج ومجهود ممتاز، ولا نزال في العالم العربي لا نرى شيئا منه، وأحسب أنها مهمة تقع بالمقام الأول على عاتق من يجيد العبرية سواء من أبناء فلسطين أو ممن يتخصصون في اللغة العبرية.. ونحن على الحقيقة لن نستطيع خوض صراع مع إسرائيل دون معرفة دواخل مجتمعاتهم والاطلاع على دراساتهم.

لقد كنت قبل أسبوعين في المؤتمر الدولي السابع عشر لدراسات بيت المقدس، والتقيت فيه أحد إخواننا من عرب الـ 48، وجرى بيننا حوار حول عبء الترجمة عن العبرية الواقع عليه وعلى أمثاله، فقال لي بأن المهمة ضخمة حقا، وأن الدراسات الإسرائيلية عن ينابيع فلسطين وحدها بالعشرات، وعن نباتاتها بالمئات، وعن جغرافيتها بالآلاف، فضلا عن الدراسات المتعلقة بالفرص والمخاطر الحربية والمواقع العسكرية وغيرها.

المهمة عظيمة حقا.. ولكن الموارد والإمكانات البحثية في العالم العربي قادرة عليها، وتظل المشكلة الرئيسية الكبرى التي هي أصل وجوهر كل المشكلات: مشكلة الأنظمة العربية التي تعرف أن مهمتها حماية إسرائيل وتدمير مقومات الأمة، ولذلك تتعطل كل المجهودات وتتكسر على تلك الصخرة العتيدة.

وهو ما يعيدنا إلى القول المكرر دائما: نجاح الثورات العربية هو الطريق الوحيد لإزالة إسرائيل.

***

قبل أيام انتهت في اسطنبول ندوة مئوية الشيخ محمد الغزالي رحمه الله (وُلِد في 1917م)، وكانت ندوة مباركة سعى فيها وبذل لها وتابعها الأستاذ الكريم د. وصفي عاشور أبو زيد، وهو من تلامذة الشيخ الغزالي المهتمين به والمتخصصين فيه، وهو يرفعه فوق كل طبقة عصره وله نحوه عاطفة حارة.. وأحسب أن الله علم صدق نيته فهيأ له الجهود التي تكفلت بإقامة الندوة وطباعة أوراقها العلمية في مجلدين أنيقين، وكان من عجائب ما وقع فيها أن تلاميذ الشيخ انبروا في الكتابة عنه حتى إن الشيخ الأسير د. صلاح سلطان كتب خلف القضبان دراسة في مائة ورقة عن المناهج العلمية والأصولية للشيخ الغزالي في كتاب "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"، وكتب د. جمال عبد العزيز بحثا عن "الغزالي لغويا" من ثلاثين صفحة في ليلة واحدة. وقد شهد المجلدان

حضورا لأعلام الفكر والدعوة المعاصرين بأوراقهم كالشيخ القرضاوي ود. محمد عمارة والمستشار طارق البشري ود. عماد الدين خليل والشيخ مجد مكي ود. حلمي القاعود ود. خالد فهمي وغيرهم من العلماء والدعاة والباحثين، ومن ثم فقد كانت فرصة ثمينة لأمثالي من شباب وصغار الكتاب والباحثين مجاورة هذه الأسماء.

لكن يلفت النظر أن مئوية الغزالي لم يكن ممكنا أن تحتضنها مصر وهي بلده، ولا السعودية التي درس فيها وتوفي فيها مدافعا عن الإسلام وهو مدفون بها، ولا الجزائر التي درس فيها فأثمر وكان ميزانا اعتدلت به الحالة الإسلامية ولم يزل تلاميذه الجزائريون أسرع الناس إلى الاحتفاء به.. ولا دولة أخرى من بلاد العرب! لقد تحولت تلك البلاد إلى عواصم حرب على الإسلام وأهله أو في أحسن الأحوال تتجنب أن يُنسب إليها شيء من نصرة الإسلام وأهله وإحياء ذكرى مشايخه.

ومن عجيب الاتفاق أن كلا الرجلين: الشيخ الغزالي ويوشع براور وُلِدا في نفس العام (1917)، لكن شتان ما بين ما فعلت إسرائيل في الحفاوة برجلها ومؤرخها، وبين ما فعلت بلاد العرب بشيخها وداعيتها.

نشر في مجلة كلمة حق

محمد علي باشا مؤسس إسرائيل

يُعرف محمد علي باشا الكبير بأنه مؤسس مصر الحديثة، والحق أنه مؤسس الدولة العلمانية العسكرية التي لا نزال نعاني منها حتى الآن، ودولته هي بداية النفوذ الأجنبي الكبير في الشرق الإسلامي، حتى إن الأجانب صاروا ينزلون بجيوشهم وأساطيلهم للدفاع عن نفوذهم الذي تأسس في مصر (كما حدث في ثورة عرابي) بل وتمكنوا من تغيير الجغرافيا المصرية والمشرقية حين شقُّوا قناة السويس فكان هذا بلاءً وبيلا تحملته مصر والعرب ولا تزال تعاني من ويلاته حتى الآن.

إلا أن جانبا لم يزل غير مشتهر عن حقبة محمد علي، تلك هي السنوات العشر التي حكم فيها الشام، تلك السنوات التي شهدت البذور الأولى لتأسيس دولة لليهود في فلسطين، إلا أن القدر لم يمهل هذا المشروع ليكتمل، غير أن المشروع نفسه تأسس وبدأ التفكير فيه جديا في ذلك الوقت، وهو ما سنعرض له خلال هذا المقال والمقالات القادمة.

لم ترحل آثار حكم محمد علي برحيله من الشام عام 1841م، وإنما استطاعت القوى اليهودية –المالية على وجه التحديد- والقوى السياسية الأجنبية البناء على ما تركته هذه الفترة من تغيرات في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم تتمكن السلطنة العثمانية من إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه من قبل.

ونحن نعتمد في هذه المقالات على المصادر الأساسية لتواريخ تلك الفترات من شهود العيان أو من الطبقة التالية لمؤرخي هذه الفترة، بالإضافة إلى الوثائق المحفوظة لذلك العهد والتي استخرجها الدكتور أسد رستم في عمليْه الكبيريْن "المحفوظات الملكية المصرية" والواقعة في أربعة مجلدات وهي عبارة عن وصف لكل وثيقة محفوظة متعلقة بالشام في الأرشيف المصري، و"الأصول العربية لتاريخ سورية" الواقعة في خمسة مجلدات.

لقد كانت مدينة بيت القدس جزءا من الشام الذي وقع تحت هذه السياسة، ولذلك لا يمكن فصل ما جرى في بيت المقدس عما جرى في عموم الشام، غير أن القدس بما لها من مكانة خاصة حظيت ببعض الإجراءات الخاصة في التمكين لليهود والمسيحيين –الرعايا والأجانب- ورفع شأنهم مع خفض شأن المسلمين والإزراء بهم.

وبالرغم من أن كاتب هذه السطور له موقف مضاد تماما من حكم محمد علي وأسرته في مصر والشام، إلا أنني التزمت بالاعتماد على المصادر المعجبة بتلك الفترة والتي تكيل الثناء الكبير لمحمد علي وولده إبراهيم باشا سواء ما كان منها مصريا أو ما كان من مصادر نصرانية شامية، بالإضافة إلى الوثائق، وإلى المصادر الأجنبية التي تنحاز عموما إلى جانب محمد علي و"إصلاحاته"! ولم أنقل عن مصدر وحيد كان له موقف مضاد لهذه الفترة.

وبداية يجب التنبيه إلى خطأ تسمية هذه الفترة بأنها "الحكم المصري" للشام، وهو الاسم المشتهر عنها، ذلك أن الشعب المصري كانوا -كإخوانهم في الشام- مقهورين تحت هذه السلطة، لم يختاروا سياستها ولم يوافقوا عليها، وإن دعمها كثيرون باللسان أو بالسنان بحكم غلبة السلطة وتمكنها واستقرار دولتها لقرن ونصف القرن.

محمد علي والبلاط الأجنبي

استحدثت سلطة محمد علي عددا من الإجراءات التي كان جماعها فتح أبواب الهجرة الأجنبية إلى الشام وإلى بيت المقدس على وجه الخصوص، وذلك عبر الرفع الدائم من شأن الأجانب الذين اتسع نفوذهم اتساعا واسعا وصارت لهم الكلمة العليا في معظم شؤون الحكم ما مثَّل انقلابا حقيقا في ميزان العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الأجانب وبين أهالي البلاد.

لقد كان بلاط محمد علي أجنبيا، وكان رجال حكمه من الأجانب، الفرنسيين خصوصا، وكانت دولته محسوبة على فرنسا في الصراع العالمي بين الإنجليز وفرنسا ذلك الوقت، وقد نقل المؤرخ إلياس الأيوبي المعجب بمحمد علي أن لفرنسا يد في توليته حكم مصر، إذ لما فشلت حملة نابليون أرادت فرنسا أن تبحث في العساكر العثمانيين عن رجل تمهد له حكم البلاد فيكون رجلها، فقام تييه ديليسبس –القنصل الفرنسي- بهذه المهمة واستطاع "اكتشاف" محمد علي، ثم أتم السفير الفرنسي في الآستانة سبستياني المهمة بالضغط على السلطان لتوليته حاكما لمصر، ولا ينقص هذا من مهارة ودهاء محمد علي الذي أدار معركته بين القوى المصرية حتى جعل نفسه مطلبها الذي أصرت عليه في وجه السلطان العثماني[1].

ولئن كان مفهوما كثرة الفرنسيين في بلاط محمد علي إلا أن المثير للشكوك هو استكثاره من اليهود، فلقد كانت "نظرته العملية وتطلعاته الإصلاحية كانت في صالح اليهود، فلقد استخدم اليهود في الإدارة، وحررهم من الابتزازات المالية التي فُرِضَت عليهم في الماضي، بل إنه شجع هجرة اليهود إلى مصر"[2]، واليهود من ناحيتهم لم يتأخروا بل بدؤوا في التدفق على مصر ليشاركوا بقوة في النشاط الاقتصادي، حتى صارت مصر الموضع الوحيد في الدولة العثمانية التي فيها "شارك اليهود بشكل كامل في حركة الإصلاحات بتحفيز من ذلك المستبد (محمد علي)"[3].
انعكست هذه السياسة على الوضع في الشام، فقد اتخذ إبراهيم باشا عددا من الإجراءات التي قلبت الموازين، من أهمها أربعة أمور:

أولا: تشجيع الحجاج اليهود والنصارى على التدفق إلى بيت المقدس، من خلال إلغاء كافة الضرائب التي تؤخذ منهم، وإنشاء المرافق الخاصة لرعاية الحجاج إلى بيت المقدس، وجعل ما يدفعونه من أموال خالصا للرؤساء الدينيين مما مكنهم من تحقيق استقلال مالي واسع ومستغرب بالنسبة لرجل كمحمد علي يؤسس دولة حديثة قائمة على نظام اقتصادي احتكاري وعلى ضرب الأوقاف وأعيان البلد.

ثانيا: تقديم التسهيلات التجارية للأجانب في منطقة الشام، إذ كان الأجانب ممنوعين من التجارة في داخل الشام وتقتصر أنشطتهم التجارية على الموانئ فحسب، فسمح محمد علي لهم بالتجارة في سائر المناطق، بل وضايق على السفن التجارية العثمانية، مما قلب الميزان الاقتصادي –ومن ثم الاجتماعي- بين المسلمين وغير المسلمين، وبين الرعايا والأجانب.

ثالثا: تضخيم نفوذ القناصل الأجانب، وبداية إنشاء القنصليات الأجنبية في بيت المقدس، وهي الأمور التي تطورت فيما بعد نحو تأسيس محميات ومناطق مستقلة اقتصاديا وسياسيا، إذ اتخذت القنصليات مهمة حماية الرعايا من اليهود والأرثوذكس والكاثوليك، وكانت القنصلية البريطانية أول ما أنشيء في بيت المقدس وأقوى ما أنشيء من النفوذ الأجنبي.

رابعا: إنشاء المشاريع الزراعية والصناعية لترسيخ النفوذ الأجنبي في منطقة الشام.

بهذه الإجراءات التي سارت بوتيرة محمومة، وبدأت منذ اليوم الأول، تحولت فكرة توطين اليهود في سيناء إلى فكرة واقعية تدخل مجال السياسة من بعد ما كانت محصورة في خيال المتدينين اليهود وبعض الأدباء والحالمين، لقد صارت تُنشر في الصحف وتُطرح في كتب سياسية وتُرفع بها تقارير إلى أروقة السياسة، وهنا وجدت أوروبا أنه من الممكن التخلص من مشاكلها دفعة واحدة بتوطين اليهود في فلسطين.

في المقالات القادمة بإذن الله تعالى سنناقش كل إجراء من تلك الإجراءات بتفصيل، اعتمادا على الوثائق والمصادر الأجنبية والمعجبة بمحمد علي وابنه إبراهيم باشا، لنرى كيف يستحق محمد علي لقب أن يكون المؤسس الأول لدولة إسرائيل.

نشر في ساسة بوست

---

[1] انظر: إلياس الأيوبي، تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل، ط2 (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996م). 1/328 وما بعدها. وهو ينقل هذا عن مذكرات فريدناند ديليسبس ابن القنصل الفرنسي المذكور، وصاحب امتياز قناة السويس.

[2] ميخائيل فنتر، علاقات اليهود مع السلطات والمجتمع غير اليهودي، ضمن: يعقوب لانداو (تحرير)، "تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية"، ترجمة جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد، تقديم ومراجعة: محمد خليفة حسن، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000م) ص522.

[3] Stanford J. Shaw, The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic, (Hampshire: Macillan Press LTD, 1991), p. 158.

كيف سهل محمد علي باشا تدفق اليهود على فلسطين

بدأنا في المقال الماضي حديثا من جراحات التاريخ العميقة التي لا تزال غير مشتهرة، وهي دور محمد علي باشا حاكم مصر ومؤسس الدولة العسكرية العلمانية في إنشاء إسرائيل، وقد قسَّمنا مناقشة الأمر في أربعة عناصر، نناقش في هذه السطور العنصر الأول منها وهو دوره في جذب وتسهيل تدفق اليهود والنصارى على بيت المقدس، ودعم وجودهم وإقامتهم، مع إهانة وازدراء والإزراء بأحوال المسلمين.

ما إن دخل إبراهيم باشا إلى بيت المقدس حتى أذاع أمرًا عامًا، وجهه إلى قاضي القضاة وشيخ مسجد عمر والمفتي والنائب وسائر السلطات، أزال به كل الضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج المسيحيين واليهود إلى بيت المقدس، هذا نصه:

"في القدس معابد وأديرة وأماكن للحج تأتي إليها من أبعد البلدان كل الشعوب المسيحية واليهودية من مختلف الطوائف الدينية. وكانت ترهق هؤلاء الحجاج إلى الآن ضرائب ضخمة في أداء نذورهم وفرائض دينهم. ورغبة منا في استئصال هذا العسف، نأمر كل متسلمي إيالة صيدا وسنجقيْ القدس ونابلس بإلغاء هذه الضرائب على كل الطرق بلا استثناء. يقيم في أديرة القدس وكنائسها رهبان ومتعبدون لقراءة الإنجيل وأداء الطقوس الدينية لمعتقداتهم. والعدل يقتضي أن تعفى من كل الضرائب التي فرضتها عليها السلطات المحلية بشكل تعسفي. ولهذا نأمر بأن تلغى إلى الأبد كل الضرائب التي تُجبى من أديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة في القدس من يونانيين وفرنجة وأرمن وأقباط وغيرهم، وكذلك الضرائب القديمة والجديدة التي يدفعها الشعب اليهودي. ومهما كانت الذريعة أو التسمية التي تؤخذ بها هذه الضرائب هدية عادية وطوعية أو إلى خزينة الباشوات أو في مصلحة القضاة والمتسلمين والديوان وما شابه ذلك، فإنها جميعا ممنوعة منعا باتا. وتلغى على حد سواء الكفارة التي تجبى من المسيحيين عند دخول كنيسة قبر السيد المسيح أو عند التوجه إلى نهر الشريعة (الأردن). وعليكم، ما إن نقرأ هذا البيورلدي (الأمر)، أن تسارعوا إلى تنفيذه كلمة كلمة، وتوقفوا فورا جباية كل الضرائب المذكورة أعلاه وغيرها من الضرائب القائمة على العادة وكل مطلب من أديرة القدس ومعابدها العائدة إلى مختلف الشعوب [الأديان]

المسيحية واليهودية، شأن الكفارات، كأمر مناف للقانون. بعد إعلان هذا الأمر سيُعاقب بصرامة كل من يطلب أقل إتاوة من المعابد والأديرة المذكورة والحجاج"[1].

وطبقا لرواية قسطنطين بازيلي السفير الروسي في يافا –وهو من أصل يوناني ومعجب بإبراهيم ومحمد علي- فقد أعلن إبراهيم باشا فيما بعد أن اليد التي تأخذ نقودا من الحجاج في جبال اليهودية سوف تُقطع، وبالفعل قطع يد اثنين أو ثلاثة، "فلم يعد أحد يجرؤ على انتهاك قانونه"[2].

وإلى هذا فقد وجَّه محمد علي إلى إصلاح أديرة رهبان الروم في يافا وقيسارية، وبنى محجرا صحيا في يافا للحجاج الروم القادمين إلى بيت المقدس، ثم وجه إلى شريف باشا بوجوب تقديم المساعدات الإدارية اللازمة لمدير الحجر الصحي، وجعل ما يدفعه أولئك الحجاج تحت تصرف رهبان الروم والأرمن[3]، وهو إجراء يدل على حرصه أن يكون لهم استقلال مالي! وهو أمر غريب على سياسة رجل يؤسس دولة حديثة ونظامه الاقتصادي احتكاري!!

ولم يكن أمر إبراهيم باشا خاصا ببيت المقدس وحده، بل كان برنامجا لسياسة إبراهيم إزاء المسيحيين السوريين"، وكانت كلماته "تشكل عصرا جديدا بالنسبة إلى المسيحيين في الشرق"[4].

انتعش وضع اليهود والنصارى الأجانب وغير الأجانب، وقد أعيد ترميم وبناء كُنُسٍ جديدة[5]، بلغ عددها تسعة معابد لليهود وصفتها وثيقة بأنها "أُنْشِأت من جديد بالقدس"[6]، وهذا أمر "لم يُعهد له نظير في الإمبراطورية العثمانية أن يُمنح المسيحيون الحرية لتجديد معابدهم وأديرتهم في كل مكان، وحتى لبناء الجديد منها دون أن يشتروا شهادات من المحكمة الإسلامية (إعلاما) بضرورة أعمال التصليح والبناء ولا إذنا من السلطات المحلية"[7]، وقد وقع الخلاف أحيانا بين اليهود أنفسهم حول بناء معابد جديدة أم استثمار الأماكن في بناء مساكن لاستيعاب اليهود المهاجرين المتدفقين الذين لا يجدون مأوى لهم[8]. بمعنى أن بيت المقدس عانى يومذاك من فائض في المعابد اليهودية وفائض في الهجرة اليهودية.

ومع كل هذا الاهتمام بمعابد وكنائس اليهود والنصارى فإن المساجد تعرضت لاستفزازات قاهرة، فقد انتزعت بعض المساجد وحولتها إلى منازل للعساكر "حتى المسلمين كادت تفقع مرايرهم"

وهم عاجزن لا يستطيعون فعل شيء[9]، وهذا غيض من فيض إذ أن سياسة إبراهيم باشا تجاه المسلمين وأهالي البلاد حافلة بالغرائب والفظائع غير أنه أمر لا يدخل في نطاق بحثنا هذا.

كذلك فقد سُمِح لليهود والنصارى بما لم يكن لهم قبل ذلك مثل زيارة قبر النبي يعقوب[10]، وهذا كله كان يعني انقلابا في خرائط القوى الاقتصادية والاجتماعية والدينية في البلاد.

وفي النهاية أدت تدابير إبراهيم وإسقاطه أي ضرائب على الحجاج الأجانب القادمين إلى القدس ثمارها، إذ "فتحت للحجاج الطريق إلى فلسطين، ففي السنتين الثانية والثالثة من الحكم المصري بلغ عدد اليونانيين والأرمن الذين توجهوا من كل المناطق التركية إلى القدس 10 آلاف شخص"[11]. ثم تضاعف هذا العدد في السنة التالية (1834م) وفيها أمر إبراهيم بفتح "درفة الباب الثانية أي درفة باب القيامة لأن من عهد سيدنا عمر الخطاب [هكذا[12]] لم انفتحت وأمر أن لا يكون غفار (خفر) في الدروب ولا ورقة في باب القيامة وأن الزاير لا يحط (شيئاً) لا كلي ولا جزئي [أي: لا ضرائب] فبهذا السبب اجتمع زوار كثير"[13].

وقد فتُحت هذه التسهيلات دون أي استعدادات أو إجراءات تنظيمية، حتى أن الحجاج تزاحموا على كنيسة القيامة إلى درجة أن أهلك بعضهم بعضا، وقُتِل منهم مائتين وكاد إبراهيم باشا نفسه أن يهلك لولا أن أُنْقِذ بصعوبة[14]. وهو ما يثير الحيرة والشك حول مغزى هذا الاستعجال في إعطاء كل تلك التسهيلات التي لا تتحملها البنية التحتية للمدينة المقدسة.

لكن الأمر لم يقتصر على الحجاج فحسب، بل فُتِحت بيت المقدس للأجانب ولو بغرض التنزه والسياحة، ثم تحميهم بمجموعات عسكرية، وهو أمر اندهش له اليوناني الذي يعمل قنصلا لروسيا، ورأى فيه مجرد إهانة للمشاعر الدينية للشعب بلا فائدة، يقول: "عوضا عن أن يقتصر الباشا على اللجم الحكيم لتعصب الشعب، أهان بلا فائدة شعور الشعب الديني نفسه، وسُمِح للكثير من الرحالة الأوروبيين بزيارة مسجد عمر في القدس الذي يعتبر قدس الإسلام الثاني بعد حرم مكة. لا شيء كان في وسعه أن يثير وساوس أشد لدى سكان القدس المتعصبين. لقد نشج خدم مسجد عمر المسنّون لهذا الانتهاك الذي لم يعهد له نظير من قبل في العالم الإسلامي، وفي كل مرة عند زيارة الأجانب للمسجد كان على السلطات المحلية أن تحيط نفسها وضيوفها بفصيلة عسكرية لدرء فورة التعصب في المشاهدين"[15].

ومما هو مثير للدهشة أن إبراهيم باشا وهو مهزوم ومنسحب ومضطر لتسليم البلاد، جَمَعَ أعيان دمشق ليختاروا الحاكم الذي سيسلم له المدينة ثم أعلن فيهم "ألا يمسوا النصارى واليهود بسوء، فإذا هم لم يرعوا أوامره يرتد إليهم بقوة من جيشة ويحل بهم أشد العقاب"[16]!

أثمر كل هذا تضخما كبيرا في أعداد اليهود والنصارى مقارنة بعدد المسلمين في مدينة بيت المقدس، وطبقا لإحصائية غربية فقد بلغ تعداد سكانها في العام (1850م): 535 مسلمون، 3650 مسيحيون، 6000 يهود[17]. أي أن اليهود صاروا أغلبية ساحقة بينما صار المسلمون أقلية صغيرة، من بعد ما كان المسلمون يشكلون ما بين 75 إلى 85% من سكان المدينة[18].

نشر في ساسة بوست

---

[1] قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة: طارق معصراني، (موسكو: دار التقدم، 1989م) ص114؛ داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام 1832م، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2014م)، ص35.

[2] قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص116.

[3] أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، 3/134. (وثيقة رقم 4637 بتاريخ 16 ربيع الأول 1252هـ = 1 يونيو 1836م)

[4] قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص115، 162.

[5] مما يثير الانتباه هنا أن استيلاء إبراهيم باشا على بيت المقدس كان بتاريخ (3 رجب 1247ه = 8 ديسمبر 1831م)، ونجد وثيقة مؤرخة بـ "أوائل رجب" فيها تصريح من قاضي بيت المقدس إلى حاخام اليهود برترميم كنيس اليهود في بيت المقدس، أي أن ترميم معابد اليهود كان أولوية أولى لدى إبراهيم سابقة حتى على تمكين سلطته في باقي أنحاء الشام، إذ لم تكن عكا قد سقطت أمامه بعد، وهي في ذلك الوقت عاصمة الإقليم ومركز قوته، وفيها الجزار باشا وجيشه.

انظر الوثيقة في: أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، 1/136، (وثيقة رقم 364).

[6] أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، 4/296 وما بعدها، (وثيقة رقم 6206 بتاريخ بتاريخ 4 محرم 1256هـ)، 4/385 (وثيقة رقم 6341 بتاريخ 16 ربيع الآخر 1256هـ).

[7] قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص162. وينبغي لفت النظر إلى ما أشار إليه المؤلف نفسه من أن التقييدات القانونية إنما كانت في حالة تشابك القضية بين المقدسات الإسلامية والمسيحية واليهودية خصوصا في بيت المقدس، أما ما كان شأنا داخليا بين أهل الدين الواحد فلم يكن يحتاج لهذه التقييدات.

[8] كارين أرمسترونج، القدس: مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، (القاهرة: سطور، 1998م)، ص564.

[9] مجهول، مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا، تحقيق وتقديم: أحمد غسان سبانو، (نسخة إلكترونية)، ص66.

[10] أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، 2/326، (وثيقة رقم 3015 بتاريخ محرم 1249هـ).

[11] قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص117.

[12] كتاب مذكرات تاريخية هو مصدر معاصر في غاية الأهمية لكنه مجهول المؤلف، ويكثر في عبارته العامية الدمشقية والأسلوب اللغوي الركيك، ولذا ننبه أننا لم نتدخل في العبارة إلا حيث يتحتم التوضيح بين معقوفين [ ]، مع إضافة بعض التشكيل وعلامات الترقيم عند الضرورة.

[13] مجهول، مذكرات تاريخية، ص69.

[14] مجهول، مذكرات تاريخية، ص70.

[15] قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص165.

[16] داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص185؛ قسطنيطن بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص259.

[17] كارين أرمسترونج، القدس، ص567.

[18] بحسب ورقة بحثية قدمها الباحث التركي د. مصطفى أوكسوز في مؤتمر "العثمانيون وبيت المقدس" السادس عشر، والذي انعقد في اسطنبول (ديسمبر 2016م)

كيف حوّل محمد علي باشا إسرائيل من حلم إلى مشروع

هذا هو المقال الثالث الذي نفتح فيه هذا الباب غير المشتهر عن دور محمد علي باشا في تأسيس دولة إسرائيل، وقد التزمنا فيه بأمريْن: ألا ننقل معلومة بغير مصدر، وألا ننقل عن مصدر له موقف سلبي من محمد علي، فكل مصادر هذه الدراسة إما كتب مؤرخي بلاطه وبلاط أسرته الموضوعة أساسا لمدحه والثناء عليه، وإما وثائق دولته المحفوظة بالأرشيف، وإما مصادر أجنبية معجبة بمحمد علي.

وضعنا في المقال الأول تمهيدا للموضوع وعلاقة محمد علي القديمة بالأجانب -ومنهم اليهود- والاستكثار بهم في أعمال الدولة، وذكرنا في المقال الثاني كيف بذل محمد علي جهده لجذب الهجرة اليهودية إلى فلسطين وأسس لهم اقتصاديا وقانونيا –وبالتالي: اجتماعيا- ما يشجعهم على البقاء فيها.

والآن نفتح بابا آخر، وهو التسهيلات السياسية والاقتصادية والقانونية التي قدمها محمد علي لترسيخ الوجود الأجنبي في الشام مما جعل فكرة الدولة اليهودية تنتقل من أحلام المتدينين والدراويش والأدباء اليهود لتصير مشروعا سياسيا تتناوله أروقة الساسة والمفكرين والصحافة.

ثانيا: تقديم التسهيلات للأجانب

كان من أول ما فعله إبراهيم في الشام أن "أذن للتجار الأجانب بأن يبتاعوا ويبيعوا في داخل البلاد، وقد كان محظورا عليهم الإتجار مع غير بعض المواني في الساحل"[1]، وتظهر الوثائق أن محمد علي سمح للإنجليز ولغيرهم من الأوروبيين بتجارة التنباك بغير تدخل ولا إشراف من الدولة، برغم أن مستندهم في هذا فرمان مبهم غامض[2]، كذلك فقد فتح إبراهيم باشا "أبواب دمشق للأوروبيين، وكان دخولها محرما عليهم"[3].

ويروي داود بركات، في كتابه الذي ألفه لمدح إبراهيم باشا، أن الحكومة المصرية "سَهَّلت قدوم الإفرنج من مرسلين وتجار وسواهم، فأنشأوا المدارس"[4]، لكن الذي كتمه ولم يظهره كشفته دراسات يهودية أخرى تحدثت عن المدارس التي أسسها اليهود الأوروبيون أمثال موسى مونتفيوري وأدولف كريمييه وسلومون مونك الذين قصدوا إلى إنشاء مدارس حديثة يتعلم فيها الشباب اليهودي بالمعايير الحديثة[5]، ليتحقق لهم نوع الاستقلالية التي تجعلهم "ليسوا بحاجة لليهود الغربيين للدفاع عنهم"[6].

وبعد أن كانت الوظائف العليا الحساسة محظورة على غير المسلمين، قلدت الحكومة المصرية "من المسيحيين الوطنيين والإفرنج الوظائف في الجيش والدولة، ومنحتهم الرتب والألقاب"[7]، حتى في بيت المقدس صار الأجانب مشاركين في الحكم والإدارة، فقد رُتِّب "مجلس شورى القدس" الذي يتولى التنظيم الإداري فيها على نمط لا سابقة له، إذ صار مكونا من أربعة عشر عضوا فيه ممثل عن اليهود "الخواجه رونه"، وممثل عن الأجانب "يوسف" وممثل عن الأرمن "ياقوب حاسر"، وكان القائم على خزينة بيت المقدس "الخواجه أنطون أيوب"[8].

وصاروا يطالبون بالترخيص بمشروعات اقتصادية، وقد سُمِح للحاخام الإسرائيلي بإنشاء طاحون كبير، كما سُمِح لليهود بتعليم الجنود صنع العباءات[9]، وطلبوا كذلك الترخيص "لهم بمشترى الأملاك وأراضي الزراعة وتعاطي الحرث والزرع وتعاطي البيع والشراء وبيع الأغنام والأبقار، وتعاطي مَصَابِن ومعاصر[10] بناء يدفعوا المرتب للميري مثل الرعايا، هذا مضمون استعلامهم" وأرفق بهذا الطلب رأي مجلس شورى القدس الذي يرفض الموافقة على هذا المطالبات التي "ما سبق لها أمثال" والتي هي تصرف في أراضي "ميرية ووقفية، فالتماسهم بذلك لا يوافق حكم الشريعة ما عدا تعاطي البيع والشرا بالتجارة التي يجلبوها من بلادهم من أنواع التجارة"[11].

ثالثا: إنشاء مشاريع لترسيخ النفوذ الأجنبي

لا شك أن المآل الطبيعي لانفتاح دولة محمد علي على الأجانب ثم حربها الدائمة مع العثمانيين كان يميل بالاقتصاد والمشاريع في منطقة الشام إلى كفة الأجانب، وفي الوقت الذي سمح إبراهيم باشا بكل ما سبق من تسهيلات للأجانب، فإنه اتخذ قرارا بمنع السفن التركية من النزول بموانئ الشام، ومنع القوافل الآتية من الأناضول من دخول الشام تخوفا من أنها تحمل البارود مددا للثائرين

عليه، مما سبب أزمة تجارية شديدة[12]. هذا مع أن القناصل سيمدون الثوار على إبراهيم باشا في مرحلة لاحقة حين أريد طرده من الشام، ولن يستطيع أن يفعل معهم مثلما فعل مع سفن العثمانيين.

لكن المحاولة الأخطر كانت مع رجل المال اليهودي الأشهر موسى مونتفيوري، الذي استقبله محمد علي بالبشاشة والترحاب في القاهرة، وهذا الرجل هو صاحب أهم وأقوى محاولة لتوطين اليهود في فلسطين قبل هرتزل، وكان له طموح واسع ومعلن[13] نحو استيطان اليهود لفلسطين من خلال شراء الأراضي الواسعة لزراعتها، وكانت أمانيه المنشورة تدل على ضخامة الآمال التي فجرتها سياسة محمد علي لدى اليهود، فهو يريد منه "أن يؤجر لنا مائة أو مائتي قرية لمدى خمسين سنة في مقابل عشرة أو عشرين في المائة تدفع في الإسكندرية من قيمة الإيجار تدريجيا، ويجب أن تكون هذه القرى حرة مجردة من كل مانع ومحذور، أي طليقة من قيود الضرائب والإتاوة كل مدة الإيجار. وللزارعين الحث في بيع تلك الحاصلات في أي بلد من بلدان العالم"[14]، ومع هذا فإن الرواية اليهودية تقول بأن استعداد محمد علي كانت أعلى من طموحات مونتفيوري نفسه لكن المشكلة كانت في أن السلطان هو وحده المخول بالتصرف في الأراضي على هذا النحو، أما محمد علي فقد تعهد لرجل المال اليهودي "بالترخيص لليهود في شراء أية مساحة يستطيعون أن يجدوها في ربوع سورية[15]. ويرغب السلطان في أن يمنحها لهم بمجرد طلبهم. وقال: يمكنكم والحالة هذه أن تنتخبوا حكاما يقع اختياركم عليهم للإشراف على مقاطعات فلسطين بأسرها. وإنني لا أدخر وسعا في سبيل معاونتكم وشد أزركم في إنجاز هذا المشروع الحميد المفيد"[16].

كذلك أراد مونتفيوي تأسيس عدد من البنوك في سلطان محمد علي كجزء من خطته لإعادة توطين اليهود في فلسطين[17]. وكان بالمرستون –وزير الخارجية البريطاني- صاحب النفوذ الواسع في حكم محمد علي حريصا على تحقيق أوضاع مريحة لليهود في الشام، وكان يرتب لمونتفيوري اللقاءات بالشخصيات التي يمكنها أن تحقق له أحلامه[18].

كان غرض مونتفيوري "توفير وضع متميز لليهود وقدر كبير من الاستقلال الذاتي وتنمية المشاريع الزراعية والصناعية في فلسطين حتى يحقق اليهود الاعتماد على الذات. وفي المقابل اقترح مونتفيوري تأسيس البنوك في المدن الرئيسية في المنطقة لتقدم التسهيلات الائتمانية

للمنطقة بأكملها، وقد ساهم مونتفيوري في تأسيس بعض المستوطنات الزراعية في الجليل ويافا، وأسس أول حي يهودي خارج أسوار مدينة القدس، كما أسس بعض المشاريع الصناعية"[19].

لكن مشاريع مونيفوري قُضِيَ عليها مع انتهاء الحكم المصري للشام وعودته تحت سلطة الخلافة العثمانية[20]، إلا أن ما أسس له من مشاريع عمليا، وما تمتع به من نفوذ لدى الإنجليز، وما نشأ في الأذهان من خطة توطين اليهود، كل هذا جعله ينجح في "إقناع السلطان العثماني بمنح الامتيازات التي كان يتمتع بها الأجانب لليهود في جميع أرجاء الإمبراطورية، وهو ما ساهم بدون شك في تحويلهم إلى عنصر أجنبي منبتّ الصلة بالمنطقة وذي قابلية خاصة للتحول إلى جماعة وظيفية استيطانية"[21].

ولم يكن مونتيفوي وحده الذي أيقظت أحلامَه سياسةُ محمد علي، بل لقد نشر شارل فورييه كتابه "الصناعة الزائفة" عام (1835 - 1836)، وهو يقترح فيه التخلص من المشكلة اليهودية بطردهم إلى بلاد الشام وتوطينهم في فلسطين وسوريا ولبنان، وكان شارل فورييه من أهم المفكرين الاشتراكيين، وهو يرى أن التجارة هي مصدر شرور العالم وأن اليهود تجسيد للتجارة وأنهم بلا ولاء ولا انتماء إلا للمال، ولا بد للمجتمع أن يتخلص منهم بالدمج أو بالطرد[22].

كذلك فقد نشر شافتسبري (1838م) في مجلة كوارترلي ريفيو (وهي من أكثر المجلات نفوذاً في ذلك العصر) عرضاً لكتب أحد الرحالة إلى فلسطين، ليتوصل منه إلى القول بأنها أرض مناسبة يُنقل إليها اليهود كأيدي عاملة ومهارات تمارس زراعة المحاصيل التي تحتاجها انجلترا، ويكون القنصل الإنجليزي في القدس هو المشرف على هذا الشأن وهو الوسيط بين اليهود وبين السلطان العثماني، وبعدها بعامين كتب هو نفسه وثيقة قدمها إلى بالمرستون (25 سبتمبر 1840م) يسهب فيها في فائدة هذا المشروع لبريطانيا[23].

إن تأمل تاريخ تلك الفترة يقضي بأن فكرة إنشاء وطن لليهود في فلسطين لم تكن لتتوقد لولا ما أتاحته سياسة محمد علي من آمال، فلقد فكرت أوروبا –وعلى رأسها بريطانيا- في ذلك الوقت أن تتخلص من مشاكلها الثلاثة الكبرى دفعة واحدة بهذا الحل "توطين اليهود في فلسطين"، فتتخلص بهذا من المشكلة اليهودية الداخلية، ومن الدولة العثمانية "المسألة الشرقية" بتقسيمها وزرع كيان معاد في قلبها، وقطع الطريق على التمدد الروسي في الشرق. وحاول بالمرستون تسويق

المشروع عند السلطان العثماني بدعوى أن إيجاد كيان يهودي يقطع الطريق على أطماع محمد علي أو أي من خلفائه في التمدد نحو الشام!!

ولهذا ففي تلك الفترة انتشرت مسألة الصهيونية بين السياسيين حتى من غير اليهود من بعد ما كانت منحصرة في الأدباء والعاطفيين والمبشرين الإنجيليين، وكتبت التايمز أن المسألة "أصبحت قضية حقيقية مطروحة على المستوى السياسي، كما "نشرت جريدة جلوب اللندنية (القريبة من وزارة الخارجية) مجموعة مقالات عام 1839/1840 تؤيد فيها مسألة تحييد سوريا (وضمنها فلسطين) وتوطين أعداد كبيرة من اليهود فيها. وقد حازت المقالات موافقة اللورد بالمرستون. وقد نوقش في مؤتمر القوى الخمس الذي عُقد في لندن عام 1840 مسألة تحديد مستقبل مصر. وفي ذلك العام، كتب بالمرستون خطابه إلى سفير إنجلترا في الأستانة يقترح فيه إنشاء دولة يهودية حماية للدولة العثمانية ضد محمد علي. وقدَّم الكولونيل تشرشل عام 1841 مذكرة لموسى مونتفيوري يقترح تأسيس حركة سياسية لدعم استرجاع اليهود لفلسطين لإقامة دولة محايدة (أي في خدمة الدول الغربية)"[24].

نشر في ساسة بوست

---

[1] داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص133.

[2] أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، 3/135، (رقم الوثيقة 4642 بتاريخ 22 ربيع الأول 1252هـ = 7 يونيو 1836م).

[3] داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص132.

[4] داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص189.

[5] Stanford J. Shaw, The Jews of the Ottoman Empire, p. 158.

[6] Jonathan Frankel, The Damascus Affair: 'Ritual Murder', Politics, and the Jews in 1840, (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), p.376.

[7] داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص189.

[8] أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، (بيروت: منشورات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأمريكية في بيروت) 5/224، 226.

[9] أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، 2/326، (وثيقة رقم 3012، 3015 بتاريخ محرم 1249هـ).

[10] جمع مصبنة من صناعة الصابون ومعصرة.

[11] أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية، 3/65، 66. (وثيقة بتاريخ 24 محرم 1253هـ)

[12] محمد فريد، البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية، تحقيق: د. أحمد زكريا الشلق، ط2 (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2005م)، ص165.

[13] أفصح عنه بوضوح في جريدة تصدر في صفد 24 مايو 1839 (أي في ظل الحكم المصري) كما نقل ذلك إيلي ليفي أبو عسل.

[14] إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، ص144 وما بعدها.

[15] كان يُطلق اسم سورية في ذلك الوقت على جميع الشام.

[16] إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، ص150، 151.

[17] Ben Halpern and Jehuda Reinharz, Zionism and the Creation of a New Society, (Oxford: Oxford University Press, 1998), p. 43

[18] Jonathan Frankel, The Damascus Affair, p.376.

[19] عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط1 (القاهرة: دار الشروق، 1999م)، 6/177.

[20] إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، ص171.

[21] عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 6/177.

[22] عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 3/167.

[23] عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 6/161.

[24] عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 6/153 وما بعدها

كيف أسس محمد علي باشا للأجانب في بيت المقدس

هذا هو المقال الرابع والأخير من هذه الورقة البحثية التي تتناول دور محمد علي باشا في تأسيس إسرائيل في فترة السنوات العشر التي حكم فيها الشام، وقد ألزمنا أنفسنا في هذه المقالات ألا ننقل معلومة إلا عن مصدر مؤيد لمحمد علي أو وثيقة رسمية من أرشيف دولته أو مصدر أجنبي (والمصادر الغربية معجبة بمحمد علي كذلك)، وقد رأينا في المقالات الثلاثة السابقة كيف استكثر محمد علي من اتخاذ اليهود في حاشيته وفي أعماله حتى الحساسة منها، وكيف سهل لهم التدفق والهجرة والإقامة في فلسطين، وكيف سمح لهم بالتسهيلات التجارية والاقتصادية والقانونية التي ترفعهم فوق أهل البلاد وتقلب الميزان الاجتماعي للشام. (راجع المقالات تفضلا: الأول، الثاني، الثالث).

والآن نختم بدوره في تأسيس النفوذ الأجنبي وتضخيم صلاحيات القناصل الأجانب، حيث بدأت القنصليات الأجنبية تغزو القدس وتهيمن بحمايتها على غير المسلمين، وهو الأمر الذي كانت له آثار بعيدة، ولم تستطع الدولة العثمانية أن تلغيه فيما بعد.

رابعا: تضخم نفوذ القناصل الأجانب

افتتحت القنصلية البريطانية في القدس لأول مرة في عهد سلطة محمد علي (1839م)، وهي القنصلية التي ستتولى حماية اليهود والبروتستانت المسيحيين في بيت المقدس والشام، وستبذر في هذه الأرض البذور الأولى للصهيونية بما كان لها من النفوذ، وكان ويليام تيرنر يونج أول قنصل في القدس، و"قد اهتم على وجه خاص بيهود الإشكنازيم، وأيضا كانت بريطانيا تود إنشاء "محمية" لها في القدس احتذاء بفرنسا وروسيا حيث إنه لم تكن هناك طائفة بروتستانتية يسبغ القنصل عليها حمايته، فقد وجد أن اليهود الأوروبيين كانوا دون كفيل أجنبي، ومن ثم نَصَّب نفسه راعيا لهم... وبحلول شهر ديسمبر من عام 1938، ونتيجة لمساعي يونج الحميدة تم السماح للجمعية اللندنية لترويج المسيحية والتي تُعرف أيضا "بجمعية لندن لليهود" بالعمل في القدس. وبدأت طلائع المبشرين البروتستانت في الوصول إلى المدينة المقدسة"[1].

لقد أسست سياسة إبراهيم لنفوذ القناصل الأجانب، إذ كانت القوانين تدفع بالأموال –ومن ثم النفوذ والعلاقات الاجتماعية- لتستقر في حجر القناصل، لقد "أتيح للأجانب ولقناصل الدول أن يكونوا أحرارا في البلاد، وأن يتَّجروا بلا عائق ولا مانع مع أن تجارتهم كانت محصورة ببعض الموانئ، ولكن القناصل الذين اتخذوا الامتيازات تكأة لهم أَلَّفوا من أنفسهم دولة في الدولة، وكانوا يعطون الحماية لمن أرادوا. وبما أن متاجر الأجانب كانت تدفع 3 بالمائة ومتاجر الرعية كانت تدفع 20 بالمائة، فقد أخذ القناصل أكثر التجار تحت حمايتهم ليعفوا من زيادة الرسوم الجمركية"[2].

وقد استثمر اليهود هذا الوضع المريح فأقدموا على محاولة الاستيلاء على حائط البراق من المسجد الأقصى، وأعانهم على هذا القناصل، وقد احتفظت لنا السجلات بوثيقة تتضمن شكوى شيخ المغاربة في بيت المقدس إلى إسماعيل عاصم حكمدار حلب من أن اليهود ما زالوا يتعاظم أمرهم ويزيدون في الإيذاء عند حائط البراق، فمن بعد ما كانوا يزورون الحائط زيارة عادية هادئة صارت تتعالى أصواتهم وتتكاثر أعدادهم ويزيدون طقوسهم حتى كأنه صار كنيسا لهم، ثم أرادوا أن يُبَلِّطوا الأرض التي أمام الحائط، وهو أمر جديد لم يسبق لهم أن تجرأوا عليه، ثم إنه سيؤدي إلى إغلاق طريق مؤدٍ إلى وقف إسلامي آخر بتلك المنطقة، وقد دُعِمت شكوى شيخ المغاربة بقرار من "مجلس شورى القدس"، ومن ثَمَّ قرر إسماعيل عاصم منع اليهود من إحداث شيء جديد، لكن ما لبث أن جاء أمر من القنصل الإنجليزي إلى متسلم القدس بأن يسمح لليهود بما أرادوا، فأصدر متسلم القدس أمرا بالسماح، ثم اعترض مجلس شورى القدس، فرُفِع الأمر لإبراهيم باشا الذي لم يبال به وفوض إسماعيل عاصم في القرار، وهو ما مآله عمليا إمضاء رغبة اليهود المدعومة بقوة القنصل الإنجليزي[3].

وكان القناصل يستخدمون نفوذهم في الدفاع عن غير المسلمين من أهالي الشام، ومن غريب ما وقع في مثل هذا الأمر أن المسلمين كانوا يتخذون زي اليهود ليتخلصوا من التجنيد الذي لم يكن يشمل اليهود والنصارى، فانتبه إلى هذا المكلف بجمع، أو بالأحرى: خطف، الشباب للتجنيد فأخذ يجمع الكل، فأخذ ضمن من أخذهم جملة من اليهود والنصارى، ورغم أن الخطأ لم يستغرق سوى ساعات إذ بدأ شباب اليهود والنصارى يعودون في عصر اليوم نفسه إلا أن السلطة عاقبت اليوزباشي الذي لم يتحقق في جمعه أُخِذ منه سيفه ونيشانه وضُرِب بالسياط أمام القنصل الفرنسي بودين وأُنْزل رتبتيْن[4].

وذات يوم وقعت جريمة قتل لأحد رهبان النصارى (حادثة الباديري)، فجندت لها سلطة الشام كل طاقتها للبحث عن الفاعلين، واتخذت التعذيب سبيلا حتى على يهودي مشتبه فيه، ومع هذا فقد حضر إليهم يهودي إفرنجي تدل الدلائل على معرفته بالمجرمين وحاول التشفع في اليهودي المُعذَّب، ثم خرج ولم يُعتقل أو يُحقق معه ولم يُتَتَبَّع، رغم أن خروجه كان لإنقاذ القتلة الذين لم يعترف عليهم بعد اليهودي المقبوض عليه! ثم وبعدما ثبتت التهمة عليهم بالاعتراف والإقرار جاء قرار سيادي من محمد علي بالعفو عنهم لما تحرك إليه اليهود الأوروبيون[5]!

ولقوة نفوذ القناصل كان إبراهيم باشا رغم قسوته العنيفة على من يتمردون عليه لا يستعمل نفس تلك القسوة مع غير المسلمين، فمن ذلك أنه حين خرَّب الكرك أمهل النصارى ثلاث ساعات يخرجون فيها من البلد وينقلون منها ما استطاعوا من أرزاقهم، ثم اجتاح البلد ونفذ فيها مذبحته فكان عساكره يقتلون من لقوه وينهبون ما وجدوه ثم جعل البلد ركاما[6]. وتسجل وثيقة عسكرية جملة غريبة ترد في أمر موجه إلى خفتان باشا في جهة دمشق يقول: "نظرا لقيام النصارى في جبل الدروز اجمعوا الهناديين وامكثوا بأثقالكم حيث أنتم وليس لكم أن تعتدوا عليهم في هذه الآونة لأني أريد أن أخمد فتنتهم دون أن أمسهم"!! ثم نجد وثيقة أخرى بأمر عسكري آخر إلى سليمان باشا "بإبداء النصح والعظة إلى الثوار"، ويتكرر هذا الطلب بالنصح والعظة[7]!!

ومما يُرثى له أن المسلمين اضطروا أن يمتهنوا أنفسهم للقناصل للنجاة من بطش سلطة إبراهيم، وذلك أن قوانين التجنيد الإجباري –التي كانت في ذلك الوقت استعبادا لا رحمة فيه ولا أمل في النجاة منه- كانت تشمل المسلمين ويُعفى منها المسيحيون واليهود، فكان المسلمون "ذوو المقام النبيل يعملون قواسين وخدما وسواسا عند القناصل الأوروبيين، وحتى عند وكلائهم وتراجمهم من أتباع السلطان، ومن الرعايا المحتقرين ليتجنبوا خدمة الصف استنادا إلى المعاهدات التي تضمن حصانة العاملين في القنصليات"[8].

لقد أهين الشعور الديني للمسلمين بشدة –كما يقول قسطنطين بازيلي- حتى كان بعضهم يقول لبعض "الدولة صارت دولة نصارى خلصت دولة الإسلام"[9]، وقد بلغ الحال في ثورة الشام الأولى أن شابا تركيا ذهب من يافا إلى نابلس حيث صنع صليبا من الخشب، وصعد إلى مأذنة الجامع الكبير في نابلس وبيده ذلك الصليب، فأخذ يصيح من فوق المأذنة: هل ذهب دين محمد

وانقضى؟ هل ارتفع الصليب على الهلال؟ من كان منكم مسلما فليقاتل هذا النصراني إبراهيم باشا[10].

ويمكن اختصار الانقلاب الذي تم في أحوال الأجانب والقناصل في قصة المستر فارين القنصل الإنجليزي، فقبل حقبة محمد علي لم يكن يستطع أجنبي "التجول في البلاد إذا لم يكن مرتديا بالملابس الوطنية أو يحرسه الجند، حتى إن إنكلترا عينت المستر فلرين قنصلا لها في دمشق في سنة 1829، فلم يستطع دخول دمشق وأقام في بيروت"[11]، وظل مقيما أربع سنوات حتى استولى إبراهيم باشا على دمشق، فرتَّب له دخولا أسطوريا أورده مؤلف "مذكرات تاريخية" على هذا النحو:

"كان ترتيب دخوله (هكذا) طَلَع لملاقاته عمر بك أمير اللواء، واستنظره في قصر عبد الرزاق باشا الذي بالمرجة، وصُحْبته ألف عسكري نظام، وكان برفق القنصل حاضر من بيروت أربعة وعشرون خيال في بيارق النظام، وقواصته عدة ثمانية وعبدين وتراجمين ثلاثة وكيخية وخزندار، وحول في قصر عبد الرؤوف باشا عند عمر بك وتفكجي باشي واستقام مقدار نصف ساعة، وقام ركب، ومشيوا قدامه ألف عسكري نظام في الموسيقا، وبين باشي وبعده ثلاثين قواص من قواصه الوزير، بعده الخيالة الذين حضروا معه من بيروت ببيارقهم، وبعده التفكجي باشي وجماعته، وبعده قواصته لابسين طقومة وردي جزايرلي مقصب، وبيدهم عصي فضة مكوبجين (ذات قبضة) على كسم صليب، وبعدهم التراجمين في الشالات الكشمير في الخيل المنظومة، وبعدهم القنصل راكب على راس خيل من الخيول الجياد، عدته مشغولة في الصرما، ولابس على راسه برنيطة محجرة بالألماس، وفي راسها جملة ريش أبيض وأحمر، ويرمي سلام، ووراه كيخية وخزنداره وعبيده، وتنظر العالم [أي: وترى الناس] منتشرة من عند قصر المرجة شي لا ينحصى. وحكم طريقه على الدوالك، على بيت يوسف باشا، على باب السرايا، على سوق الأروام وسوق الجديد، على باب القلعة، على باب البريد، على سوق الحرير، على البزورية، على ماذنة الشحم، على الخراب، على طالع القبة، على حمام المسك، على باب توما، على حمام البكري، على زقاق القميمم (القميلة)، على بيته، فكانوا قبل بمدة آخذين له بيت قزيها الذي قدام قناية الحطب، ودخلوا العساكر جميعها لعند بيته فحالاً رفعوا له البنديرة فوق باب البيت على راس السطوح، وثاني يوم وضع فوق باب البيت نيشان المملكة (الآرما) مصور فيها تاج الملك وحصان وسبع، وكان يوجد قدام

باب بيته على مدة سبعة ثمانية أيام مثل فرجة الحاج (بكثرة) الناس فوق بعضها بعض هذا ما كان من مادة دخول القنصل"[12].

وهكذا صار القناصل قوة فوق قوة السلطة نفسها، وقد استمر إنشاء القنصليات الأجنبية التي أسس محمد علي لوجودها حتى بعد رحيل سلطته؛ فلقد صار النفوذ الأجنبي قوة حقيقية قائمة، وصار ذلك النفوذ موضع تنافس غربي لا تقوى الدولة العثمانية في حالها آنذاك على اقتلاعه، "فخلال السنوات الخمس عشرة التالية كانت فرنسا وبروسيا وروسيا والنمسا قد فتحن قنصليات لها في المدينة المقدسة، وأصبح هؤلاء القناصل ذوي حضور بالغ الأهمية في المدينة... بيد أنه كان لكل منهم أجندته السياسية، وكثيرا ما أدى ذلك إلى الصراع في المدينة المنقسمة على نفسها بالفعل. ووجد السكان المحليون أنفسهم طرفا في صراعات القوى الأوروبية"[13].

نشر في ساسة بوست

---

[1] كارين أرمسترونج، القدس، ص565، 566.

[2] داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص143.

[3] أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، 4/294 وما بعدها، (رقم الوثيقة 6205 بتاريخ 4 محرم 1256هـ)

[4] مجهول، مذكرات تاريخية، ص80، 81.

[5] مجهول، مذكرات تاريخية، ص117، 121، 122؛ وانظر: إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، (القاهرة: مطبعة النظام، 1934م)، ص154.

[6] مجهول، مذكرات تاريخية، ص78.

[7] أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، 4/356 (وثيقة رقم 6312 بتاريخ 3 ربيع الآخر 1256هـ).

[8] قسطنطين بازيلي، سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ص162.

[9] مجهول، مذكرات تاريخية، ص59، 60.

[10] داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص139.

[11] داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص189؛ مجهول، مذكرات تاريخية، ص25.

[12] مجهول، مذكرات تاريخية، ص68، 69.

[13] كارين أرمسترونج، القدس، ص565

قناة السويس كخط جيوسياسي استراتيجي لإسرائيل

مقدمة

بعد أكثر من مائة وخمسين عاما من إنشاء قناة السويس يبدو مستغربا الحديث عنها باعتبارها مشكلة سياسية جغرافية استراتيجية اقتصادية أيضا، ولا يعرف الكثيرون أن التفكير في إنشاء قناة السويس تزامن مع التفكير في إنشاء دولة إسرائيل في الوقت المعاصر، رغم أن جذور الفكرتين تمتد لآلاف السنين، وفي تلك السنين رفضت جميع القوى المسيطرة على مصر والشام حفر القناة الواصلة بين البحرين كما رفضت تحقيق الحلم اليهودي.

يبدو الربط بين القضيتين غريبا للوهلة الأولى، لكن الواقع أن قناة السويس مثلت إسنادا في غاية الأهمية للدولة الإسرائيلية العازلة، ويعزو بعض السياسيين والمؤرخين أن إسرائيل نفسها كانت إسنادا لقناة السويس كما في القول الشهير المنسوب لكامبل بضرورة وجود دولة عازلة قرب قناة السويس لحماية المصالح الغربية، وأيا ما كان الأمر فالواقع أن كلا القضيتين دعم وجود الأخرى، فإسرائيل لم يكن لها أن تستطيع احتلال سيناء لولا وجود المانع المائي الذي وفر لها حماية جغرافية وخطا أمنيا متقدما منع تدفق المقاومة المصرية الشعبية إلى سيناء، وأعاق عبور الجيش المصري حتى صار الإنجاز العسكري في أكتوبر هو "عبور القناة".

ومنذ وقعت معاهدة السلام حرصت إسرائيل والسلطة المصرية على مضاعفة العازل المائي وتوسيعه وزيادة تفريعاته وهو ما يستحيل معه تحقيق عبور ثان، فضلا عن التفريغ السكاني المستمر لسيناء والحفاظ عليها كمنطقة عازلة خالية من السكان والقوات العسكرية، وهو ما يعطي إسرائيل عمقا استراتيجيا واسعا كما يعطيها مساحة فارغة ألهمت الكثير من المخططين أن تكون هي الحل لتفريغ فلسطين.

ولا تزال قناة السويس تمثل أساسا جغرافيا وخطا استراتيجيا وعمقا أمنيا للكيان الإسرائيلي، وهو جزء حساس من عقيدته الأمنية العسكرية. كما تمثل معضلة أمنية وسياسية كبرى أمام أي حكومة وطنية مصرية.

التشابه والارتباط بين قضيتي: إسرائيل وقناة السويس

ثمة ثلاثة تشابهات وارتباطات كبرى بين قضيتي إسرائيل وقناة السويس؛ أولها: العمق التاريخي، فكلاهما مشروعان ضاربان في عمق التاريخ، فحلم الربط المباشر بين البحر الأحمر والأبيض يعود لعصر الفراعنة، وحلم إعادة إنشاء إسرائيل يمتد لثلاثة آلاف سنة! وثانيها: الإرادة الاستعمارية الأجنبية التي عملت على إنشاء كليهما، فعندما استطاع الغرب احتلال الشرق على يد نابليون ظهر المشروعان معا، فنداء نابليون لإنشاء إسرائيل[1] رافقته دراسة هندسية لحفر القناة بين البحرين. وثالثها: أن كلا المشروعين نُفِّذا بالعقل والإرادة الأجنبية المهيمنة وبيد السلطات والحكومات المحلية التابعة للمحتل والتي سخرت لكلا المشروعين الموارد المالية والبشرية للشعوب العربية الإسلامية، ولولا هذه الثنائية ما كان ممكنا قيام واحد منهما.

وباعتبار أن قصة إسرائيل معروفة ومشتهرة، وكذلك باعتبار أن قناة السويس هو موضوع الورقة الرئيسي، فإننا سنركز في معالجة تلك العناصر الثلاثة على مشروع قناة السويس.

1. العمق التاريخي

كانت فكرة ربط البحرين الأبيض والأحمر قديمة، إلا أنه لم يوافق عليها أحد ممن حكموا مصر طوال تاريخها، بينما كانت الفكرة البديلة المعتمدة منذ عصر الفراعنة هي ربطهما عبر النيل، بقناة تمتد من البحر الأحمر إلى النيل الذي يصب في البحر المتوسط. وقد تكرر طمر تلك القناة وتجديدها في عصور الفراعنة والبطالمة وبعيْد الفتح الإسلامي جدد عمرو بن العاص تلك القناة وسمَّاها "خليج أمير المؤمنين"[2].

وفي عصر هارون الرشيد، في ذروة التاريخ الإسلامي طُرحت فكرة الربط المباشر بين البحرين، إلا أن وزيره ومستشاره يحيى بن خالد البرمكي حذَّره من خطورتها، حيث ستسمح تلك القناة

بدخول أسطول الروم من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر، فتهدد الحجاز والحرمين، فأحجم عنها الرشيد[3].

وتكشف هذه النصيحة بوضوح الفارق بين إنشاء قناة تربط بين البحرين مباشرة، وإنشاء قناة تربط بينهما عبر النيل، ذلك أن أي غزو عسكري يحاول الوصول إلى الحجاز سيكون مضطرا إلى العبور في الدلتا من أحد فروع النيل حيث الكتلة البشرية الضخمة ذات القدرة الكبيرة على المقاومة، فضلا عن تعدد التضاريس والمسالك، بينما الربط المباشر بين البحرين يمرّ من منطقة صحراوية مفتوحة قليلة السكان ضعيفة المقاومة. كما يكشف هذا النص أن الدولة الإسلامية في عصر تفوقها الدولي الكاسح امتنعت عن تنفيذ الفكرة لشعورها بالتهديد الاستراتيجي البعيد المدى.

وفي زمن الدولة العثمانية، وهي أعظم فترة سيطرة إسلامية على البحر المتوسط، في عهود: سليم الأول وسليمان القانوني وسليم الثاني، برزت فكرة شق قناة السويس لتسهيل عبور الأسطول العثماني إلى البحر الأحمر للقيام بواجب الجهاد في الخليج العربي وخليج عدن والمحيط الهندي ضد البرتغاليين والإسبان، وثمة وثيقة عثمانية يطلب فيها سليم الثاني (930 - 982هـ/1524-1574 م) دراسة وافية عن تكاليف المشروع وفوائده، إلا أن الفكرة لم تنفذ[4]، مما يحملنا على الشكّ بأن السبب هو نفسه ذلك التفكير الاستراتيجي، لأن البحريْن المتوسط الأحمر حينها كادا أن يكونا بحيرتان إسلاميتان تماما!

وقد حاول الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، في النصف الثاني للقرن السادس عشر، ثلاث مرات مع السلاطين العثمانيين لحفر قناة السويس، إلا أنه أخفق فيها جميعا، رغم أنه كان معتمدا في مطلبه على فكرة مهندس تركي، أي أن الفكرة كانت معروضة في أروقة العثمانيين ولم ينفذوها ولا استجابوا لإلحاح حلفائهم في تلك الفترة بتنفيذها[5].
هذا الرفض المطرد تاريخيا قرين الرفض الدائم للمحاولات اليهودية المستمرة إنشاء كيان في فلسطين.

2. الإرادة الاستعمارية

بدأت أول محاولة تنفيذ جادة مع أول تمكن أجنبي من احتلال مصر إبان الحملة الفرنسية، فقد سعى نابليون لتنفيذ المشروع إلا أن مهندسي الحملة الفرنسية قدَّروا أن البحر الأحمر مرتفع عن مستوى البحر المتوسط مما يعني أن شق القناة قد يؤدي لغرق مصر، فتوقف المشروع. إلا أن مهندسين فرنسيين آخرين ممن ملأوا مصر في عصر محمد علي أعادوا الدراسة وتوصلوا إلى أن البحريْن مستويان وأنه يمكن إنشاء القناة، لكن محمد علي رفض الفكرة متعللا بالرفض البريطاني القاطع[6]، وقد كان يعلم أن حفر تلك القناة يعني "بسفورا ثانيا يجعل مصر واستقلالها عرضة للخطر"[7] ويزيد من المطامع الاستعمارية فيها، لا سيما وقد صار الأجانب ملوك البحار، وتلك الفترة هي نفسها التي بدأ فيها العمل لتأسيس دولة يهودية في القدس[8].

ثم بلغ اليأس الفرنسي من تنفيذ المشروع غايته في عهد عباس الأول الذي كان يكره الفرنسيين، ورفض تماما شق قناة السويس، وأنفذ مشروعا بديلا يحفظ المصالح المصرية ويُرضي البريطانيين، وهو تمهيد الطريق بين القاهرة والسويس وإنشاء خط سكة حديد الإسكندرية القاهرة، وهو ما يسهل نقل البضائع والبريد والسياحة البريطانية إلى الهند، ويحفظ لمصر الاستفادة من الحركة التجارية العابرة فوق أراضيها. إلا أن عباسا اغتيل ولم يكمل السنوات الثلاث في منصبه، وجاء سعيد باشا عاشق فرنسا والفرنسيين وربيب الرجل الخطير المشهور: فريدناند دي ليسبس[9]!

كان فريدناند دي ليسبس ابنا لماتييه ديليسبس القنصل الفرنسي الذي مهد لمحمد علي حكم مصر، وبعد سبع وعشرين سنة من ولاية محمد علي جاء فريدناند كنائب للقنصل الفرنسي في الإسكندرية فاستقبله محمد علي بحفاوة بالغة وأولاه رعاية سابغة وعهد إليه بتربية ابنه الصغير سعيد! ومن هنا نشأت علاقة متينة بينهما أثمرت فيما بعد أن يتولى عرش مصر أول حاكم غربي الروح والهوى والمزاج، فكانت لهذا آثار بعيدة على العالم الإسلامي كله[10].

3. التنفيذ الأجنبي عبر الحكومات التابعة

أثمرت العلاقة بين دي ليسبس وسعيد عن واحدة من أبشع قصص التاريخ: قصة قناة السويس، لقد استطاع الثعلب الفرنسي إقناع ربيبه الغر بالإقدام على ما رفضه كل من حكموا مصر من قبله، ومن فرط ثقة سعيد به تركه يكتب بنفسه عقد الامتياز الممنوح له لحفر القناة، فكتب عقدا مدهشا

وفريدا في تاريخ التعاقدات استلب به موارد مصر من الأرض والأموال والرجال مقابل ثمن ضئيل مؤجل، بل الواقع أنه عقد إنشاء دولة (شركة قناة السويس) داخل دولة (مصر)[11]، وقد وقعه سعيد دون أن ينظر فيه!! ثم إن دي ليسبس فشل في جمع رأس المال اللازم فأكمله سعيد بالأموال المصرية (ويبلغ النصف تقريبا)، ثم استرضى الإنجليز –المعارضين للمشروع- بمنحهم امتيازات كبرى في مصر سياسية واقتصادية، ثم مات بعد عشر سنوات من توليه العرش دون أن يرى مشروعه النور، وقيل أنه مات من الهم والغيظ والكمد بعدما صار يشهد بعض نتائج اتفاقه هذا[12].

وهكذا كان أول حاكم رباه الغرب هو أول حاكم يوافق على حفر تلك القناة.

حاول خلفه إسماعيل باشا، وهو أيضا فرنسي الروح والهوى والمزاج[13]، أن يعدل من شروط العقد فإذا به يلقى معارضة غاية في العنف والشراسة، لا من دي ليسبس وحده، بل من فرنسا نفسها التي شنت عليه حملة إعلامية، ثم حَكَم نابليون الثالث بحكم لا يكاد يوجد له مثيل في باب استنزاف الموارد المالية، خلاصته أن مصر دفعت ثمن القناة مرتين كتعويض للشركة عن موارد لم تخسرها ولم تنشئها وعن عمال لم تعد في حاجة إليهم، فضلا عما دفعته من الدماء والخسائر في الموارد والبشر وما دفعته من الاستقلال والسيادة منذ تلك اللحظة حتى الآن[14].

كان يستحيل إنشاء قناة السويس دون مجهود السلطات المحلية وتسخيرها الموارد البشرية والمالية لحساب المشروع، وهو الأمر نفسه في حال إسرائيل التي كان يستحيل تأسيسها بدون مجهود السلطات في الدول المحيطة، والتي كانت جيوشها وسياستها تمهد لإسرائيل وتوفر لها أسباب الانتصار والاستمرار، وتكبح محاولات المقاومة.

آثار حفر قناة السويس على المنطقة قبل إنشاء إسرائيل

تحقق ما خشي منه كافة من رفضوا حفر القناة في العصور السالفة، وانفتحت المياه العربية الإسلامية للسفن والأساطيل الاجنبية دون توفر أدنى قدرة على مواجهة تهديداتها، واتصلت مستعمرات الغرب في الشرق والغرب عبر طريق أقصر من رأس الرجاء الصالح فاشتد ساعد الاستعمار بارتباط شبكة مواصلاته لا على المنطقة الإسلامية وحدها بل على سائر الشرق الأدنى

والأقصى، وازدادت الأطماع الاستعمارية في المنطقة فوق ما كانت لأنها تحولت إلى مغنم ضخم وطريق مفتوح إلى مغانم أخرى.

لكن أخطر وأبرز ما عزَّزَتْه ورَسَّخَتْ له فكرةُ القناة في العقل الاستعماري هو ضرورة الحفاظ عليها بإنشاء دولة تابعة لهم على مقربة منها، كقاعدة عسكرية واستعمارية متقدمة، فقد تحدث بالمرستون في منتصف القرن التاسع عشر عن ضرورة هجرة اليهود إلى فلسطين "بقصد إيجاد حاجز بشري استعماري للحيلولة دون قيام دولة موحدة تجمع مصر والمشرق العربي"[15].

وهكذا كانت القناة بحد ذاتها وسيلة استعمارية، ثم كانت الدولة العازلة وسيلة أخرى ودعما وحماية للوسيلة الاستعمارية الأولى، وهما نقطتان نلقي الضوء عليهما في هذا المبحث:

قناة السويس كمركز للشبكة الاستعمارية

تطور علم الجغرافيا حتى استطاع رسم خريطة دقيقة للقارات وسواحلها والطرق البحرية، وكانت القوتان العُظْمَيان في القرن الثامن عشر هما بريطانيا وفرنسا، وبقدر ما تكون القوة البحرية لدولة أوروبية تكون قدرتها على احتلال مناطق بعيدة وجمع ثروات أكبر. وإذا نُظِر للخريطة من وجهة نظر بحرية ستكون بريطانيا أفضل في الموقع الجيوسياسي من فرنسا بقربها من السواحل الأمريكية ومن طريق رأس الرجاء الصالح.

وفي ظل التنافس الاستعماري كان طبيعيا أن تنبثق فكرة قناة السويس ومشروعها في العقل الفرنسي الذي يبحث بكل وسيلة عن تحسين موقعه الجيوسياسي، إن "مصر تهيمن على الطرق البرية إلى بلاد العرب والهند، وقد لقي مشروع شق قناة من السويس إلى البحر المتوسط من اهتمام لويس الرابع عشر ما حمله على أن يقترحه على الباب العالي في ثلاث مناسبات دون الوصول إلى نتيجة في واحدة منها"[16]، وبعد قيام الثورة الفرنسية انطلق نابليون ذو الطموح الاستعماري ليعمل على تنفيذ المشروع قسرا إبان الحملة الفرنسية، وهو ما تحركت بريطانيا ضده حتى أفشلت الحملة كلها، وسكن الأمر إلى حين.

وقبل حفر قناة السويس كان الرحالة الإنجليزي الشهير ريتشارد بيرتون في مصر، وسجل في رحلته –الغامضة الأهداف- جملة استعمارية واضحة: "فلو وقعت مصر في أيدي الغرب سهلت السيطرة على الهند، ومَكَّنت من فتح إفريقيا الشرقية كلها بشق قناة للسفن تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عند السويس"[17].

بهذا صارت فكرة قناة السويس فكرة استعمارية مركزية، حيث باتت قناة السويس مركزا للشبكة الاستعمارية الممتدة حول العالم، تصل بين الاستعماريين في الغرب والشعوب المستعمرة في الشرق، ومن سيسطر عليها سيضاعف من قوته ونفوذه وفارق قوته عن المنافسين.

يقول المؤرخ البريطاني جورج يانج: "من الوجهة السياسية فربما كان يكون خيرا لمصر لو أن سعيدا أنفق تلك الأموال كلها في زخرفة حجرة الاستقبال. لأن امتياز قناة السويس قد ترتب عليه أن مصالح بريطانيا في مصر بعد أن كانت مجرد إحساس معنوي غامض بما يُحتمل أن يكون لمصر من الأهمية في نظر سياسة الإمبراطورية البريطانية، قد تحولت إلى اعتبارات مادية جدا لها ارتباط بالمسائل العسكرية والتجارية مما يؤثر أكبر تأثير في قوة بريطانيا البحرية وسيادة إنجلترا في الهند. ثم إن بريطانيا كانت إلى هذه اللحظة قانعة بمنع الفرنسيين من أن تكون لهم السيطرة على القاهرة كما منعت من قبل سيطرة الروس على الآستانة. ولكن مصلحتها الحيوية صارت من الآن فصاعدا تتطلب انفرادها بالسيطرة على القاهرة دون سائر الدول الأخرى"[18]، وحين وقع الاحتلال الإنجليزي كانت القناة أعقد مسألة تمنع استقلال مصر أو خروج بريطانيا مهما بُذِل لها من ضمانات مصرية بحرية الملاحة في القناة، وجورج يانج حتى وإن أظهر تعاطفه مع المصريين إلا أنه يؤيد بقاء الإنجليز إلى جوار القناة لأنها مركز الشبكة الدولية، يقول: "غير خافٍ أن ما للقناة من الأهمية العظمى في سير العلاقات الدولية كان ولا يزال يعتبر إحدى الصعوبتين الرئيسيتين اللتين تحولان دون حصول مصر على سيادتها التامة. أما الصعوبة الثانية فهي طبعا ما للمصريين من مصالح إمبراطورية في السودان. فالقناة إذن أهم عامل في سبيل وضع مصر تحت الإدارة البريطانية مدة ربع قرن كامل. لذلك نرى من حق الإنجليز أن يعلنوا على رؤوس الأشهاد أنهم لم يلزموا مصر بحفرها"[19].

وهكذا بات على المنطقة عموما، وعلى مصر خصوصا، أن تدفع الثمن الاستعماري كاملا!

أخطار وأضرار قناة السويس على مصر

يرى عبد الرحمن الرافعي أن حفر القناة نكبة استعمارية على مصر تساوي في ضررها الحملة الفرنسية، ويقرر "مصر لم تستفد شيئا من فتح قناة السويس، بل كانت القناة شؤما عليها"، وأن مصر بعد حفر القناة صارت "ضحية قناة السويس، تلك حقيقة واقعة"، وأنها "أكبر غلطة" في تاريخ سعيد باشا قصير النظر المخدوع الذي توهم أنه سيدخل التاريخ بهذه الخدمة للإنسانية بينما الحقيقة الواقعة أن الأمم لا تضحي باستقلالها ومصالحها في سبيل "وهم" خدمة الإنسانية، الذي هو على الحقيقة خدمة للدول الاستعمارية فحسب[20].

لقد تحملت مصر تكاليف إنشاء القناة، بشريا واقتصاديا وعسكريا وسياسيا:

1. فأما بشريا: فقد ساهم في حفر القناة مليون مصري سيقوا بالسخرة إلى الحفر في ظروف مأساوية مات منهم مائة وعشرون ألفا من الجوع والعطش والمرض وسوء المعاملة في قصة مريرة ليس هنا محل بيانها.

2. وأما اقتصاديا فقد "كان حفر قناة السويس ضربة قاضية لتجارة الترنزيت في القاهرة"[21]، إذ "كانت لها تجارة برية واسعة فقدتها كلية، وتمر السفن محملة ببضائع وفيرة خلال القناة التي تشق الصحراء شرق أراضيها الزراعية، ولكنها لا تعود على مصر بالفائدة كما كانت تمر خلال البحر الأبيض المتوسط"[22]، لقد تحول طريق التجارة بين أوروبا والشرق "من داخل مصر إلى القناة المائية التي أصبحت ملكا لشركة أوروبية. فخسرت مصر الأرباح التي كانت تعود عليها من مرور المتاجر في وسط الدلتا بطريق النيل أو السكك الحديدية المصرية. وانتقلت هذه الأرباح إلى شركة القناة (الأجنبية)"[23]، وهذا هو الأثر الاقتصادي بعيد المدى، أما مجمل ما تكلفته مصر بأثر الخداع والتعويضات فيبلغ 16 مليون جنيها من 17.3 مليون جنيه هو مجمل تكلفة القناة! بخلاف عشرات آلاف العمال الذين ماتوا جوعا وعطشا[24].

3. وأما عسكريا فمنذ اللحظة الأولى ولتوفير أعداد للحفر قضى الخديوي سعيد على الجيش فأنقص عدده من ستين ألفا إلى ثمانية أو عشرة آلاف، وكانت القناة حاضرة في كل كارثة حربية نزلت بمصر، فهي السبب الأهم في هزيمة عرابي واحتلال الإنجليز لمصر (1882م) الذي كاد

يردم القناة لمنع نزول القوات الإنجليزية القادمة من البحر الأحمر لولا أنه خُدِع بتأكيد دي ليسبس أن القناة ممر محايد محمي بالقانون الدولي يُحْظَر استخدامه في الأمور الحربية[25]، وعلى يد تلك القوات هُزِم عرابي واستمر احتلال مصر لسبعين سنة فاصلة على كل المستويات، يقول الرافعي كلمة مريرة كتبها (1932م) "لئن عادت القناة يوما إلى مصر فلا يمكن أن ننسى أن مصر خسرت فيها ثمنا باهظا وتضحيات جسيمة... ثم حرمت ما هو أعز من المال، وهو الاستقلال، وعندما تسترد مصر استقلالها تاما فستكون قد حُرِمَتْ استقلالها بسبب القناة ردحا طويلا من الزمن"[26]، واستمرت الخسائر العسكرية بعد الجلاء الإنجليزي (1956م) بدخول إسرائيل على الخط، وهو ما نتناوله في المبحث القادم.

4. وأما سياسيا فمنذ حُفِرَت القناة صار يُنظر إلى المسألة المصرية كأنها "هي مسألة قناة السويس، فكأنها اندمجت فيها، وتبدلت أوضاعها تبعا لهذا الاندماج"[27]، وكانت القناة عقبة رئيسية في كل مفاوضات جلاء، وفي آخر زمن الاحتلال تحول الإنجليز من قلب القاهرة وتمركزت قواتهم عند القناة، ومنذ تلك اللحظة ومصر لم تزل فعليا تحت النفوذ الأجنبي، إذ يُعامل مجرى القناة باعتباره ممرا دوليا تتكفل مصر بحمايته وضمان حرية الملاحة فيه، مهما كانت حمولة السفن العابرة أو وجهتها، وهي لا تتكفل بذلك بمعنى القيام به، بل بمعنى دفع تكاليف حمايته لشركات الحماية والأمن الأجنبية.

ولا يزال نزيف الخسائر مستمرا على تلك المستويات الأربعة حتى لحظة كتابة هذه السطور، بل ولا تبدو آفاق لنهاية ذلك النزيف.

قناة السويس كخط جيو سياسي – استراتيجي لإسرائيل

وجدت إسرائيل عند قيامها وضعا أمنيا لم يتمتع به محتل نزل تلك المنطقة من قبل، لقد صنعت قناة السويس حاجزا طبيعيا بين وادي النيل ذي الكثافة السكانية التي لطالما أمدت الشام بالجيوش التي حررتها من الصليبيين وتصدت للمغول، وبين سيناء القليلة السكان، ثم إن قناة السويس نفسها تتمتع بحماية القوى العظمى بما يجعل منها مسألة دولية. ومنذ نشأة إسرائيل وحتى الآن مثَّلت القناة دعما لا يقدر بثمن لإسرائيل وخسارة فادحة لا توازيها خسارة بالنسبة لمصر والمنطقة.

وليس من شك في أن السياسة المصرية منذ نشأة إسرائيل وحتى الآن كانت في سياق الدعم للوجود الإسرائيلي، ومكافحة أية حركة مقاومة ضدها، إلا أننا في سياق بحثنا هنا لن نتعرض للمشكلة السياسية بقدر ما يهمنا إلقاء الضوء على الوضع الجديد الذي مثلته القناة جغرافيا وعسكريا. فحتى لو افترضنا وجود حكومات وطنية فستكون النتائج أفضل بكثير لكن مع صعوبة واضحة يفرضها وقع القناة، تلك الصعوبات هي ما سنركز عليها الحديث في هذا المبحث.

حرب 1956: قناة السويس كتهديد خلفي للقوات المصرية

لم يكن عبد الناصر يفكر في حرب إسرائيل بشهادة صديقه وأمين أوراقه هيكل[28]، وكان في أشد أوقات الهزيمة موافقا على صناعة سلام لا مجرد إنهاء حالة الحرب رغم أن ما يعلنه على خلاف ذلك[29]. ولا يهمنا الآن البحث في دوافع قراره غير المدروس بتأميم القناة، فالمهم أن قراره أثار عدوانية الدول الثلاث: إسرائيل وبريطانيا وفرنسا، فأما إسرائيل فقد كانت تريد أن تنتزع حق الملاحة في خليج العقبة وتجهز لحربها قبل قرار التأميم، وأما بريطانيا وفرنسا فقد كانتا تتطلعان للعودة إلى منطقة الشرق من بعد ما طُردا منها بيد الأمريكان والروس باعتبارهما ورثة المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية.

تكشف مباحثات الدول الثلاثة أن إسرائيل لم تكن تريد أن تبدأ الحرب خوفا من سلاح الجو المصري المتفوق –وقتها- على سلاح الجو الإسرائيلي، ولم تكن بريطانيا وفرنسا تريدان بدء الحرب تخوفا من الموقف الأمريكي الداعم لعبد الناصر والرافض لعودتهما إلى المنطقة، فأرادتا أن تبدأ إسرائيل الحرب لتتوفر لهما الذريعة للتدخل، وانتهى الأمر على أن تخوض إسرائيل المغامرة وتبدأ الحرب قبلهما معتمدة على أن الجيش المصري لن يرد ولن يهاجم فتأتي قوات بريطانيا وفرنسا فتحطمان سلاح الجو المصري، وهو ما كان!

لا ريب أن القرار السياسي والعسكري كان مثالا في السوء، لكن وضع قناة السويس ضاعف من صعوبة الموقف، فهي قد وفرت للدولتين نزولا بحريا في بور سعيد ودخولا إلى القناة فتكون جيوشهما تهديدا خلفيا وحصارا حربيا للقوات المصرية في سيناء والتي تواجه الاجتياح الإسرائيلي، فصنعت القناة ممرا بحريا عازلا بين القوات في سيناء وما يمكن أن يدخل إليها من خطوط الإمداد ثم تحول هذا العازل إلى خط مواجهة مواجهة خلفي.

خسرت مصر سيناء والقناة معا في أيام، ولولا أن الموقف الدولي -والأمريكي بوجه خاص[30]- كان حاسما في الاحتفاظ بمصر ضمن النفوذ الأمريكي وقطع الأمل في عودة الاستعمار الإنجليزي والفرنسي لتجدد زمن الاحتلال مرة أخرى.

حرب 1967: قناة السويس كحدود متقدمة لإسرائيل

بعد أحد عشر عاما نفذت إسرائيل توسعها الجغرافي الأكبر، وكانت أول قوة احتلال تستطيع أن تدخل من جهة الشمال الشرقي لمصر دون أن تتكلف المغامرة بمواجهة القوة المصرية، فقد صنعت قناة السويس حاجزا جغرافيا يُمكنها من الاحتفاظ بسيناء وإقامة خطوط دفاعية على طولها، كذلك إقامة ساتر ترابي يمنع محاولة عبورها، وصارت المهمة الإسرائيلية في الاحتفاظ بحدودها حتى القناة تتمثل في المراقبة الجيدة للقناة، وتفوق السلاح الجوي الذي يُمكنها من التعامل مع أي محاولة عبور لها.

لو أنه لم توجد قناة السويس لما خاطرت إسرائيل باحتلال مصر؛ فإما أنها ستكون مجبرة على التوغل في عمق الأراضي المصرية، (وهذا في وقته في حكم المستحيل عليها بشريا وماليا وعسكريا) وإما توقفت قبل الحدود المصرية لئلا تجر مصر إلى الحرب، أو في أسوأ الأحوال توقفت عند منطقة المضايق في سيناء التي توفر لها نوع حماية طبيعية ولكنها لا تُقارن على الإطلاق بالمزايا التي وفرتها قناة السويس كمانع مائي سهل أتاح لها إنشاء ساتر ترابي وخط دفاعي على حدوده، وهو ما لا يمكن حدوثه في منطقة المضايق.

وصارت القوات المصرية بدورها في وضع هو الأول من نوعه في التاريخ، إذ لم تعد سيناء ممرا بريا واصلا بين آسيا وإفريقيا، بل تحولت بوجود قناة السويس إلى شبه جزيرة تحيطها المياه من ثلاث جهات وممرها البري الوحيد تحت السيادة الإسرائيلية الكاملة، وشريط القناة (أضعف جهاته البحرية) تحول إلى خط حربي متعدد الموانع، وصفه السادات بقوله "أكبر عائق مائي في تاريخ الحروب لأن شواطئ القناة مصنوعة من الحجر وهناك أيضا الساتر الترابي الذي يبلغ ارتفاعه 17 مترا"[31]، حتى إن موشي ديان بعد اطمئنانه لقوة الموانع قال "لكي تستطيع مصر عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف فإنه يلزم تدعيمها بسلاحي المهندسي الروسي والأمريكي معا"[32].

حرب 1973: قناة السويس كعائق منيع للقوات المصرية

كان التفكير العسكري المصري منصبا وللمرة الأولى حول "كيفية عبور قناة السويس"، والسبق إلى تحطيم أو السيطرة على الوسائل الدفاعية الإسرائيلية الممتدة على طول القناة. فالعبور هو الجزء الأهم في كل المعركة، وهو مفتاح استرداد سيناء.

هنا يبدو واضحا كيف تحولت قناة السويس إلى مشكلة حربية عويصة، يسجل قائد حرب أكتوبر سعد الدين الشاذلي في مذكراته "كانت قناة السويس ـبما أضافه العدو إليها من موانع صناعية كثيرة- تقف سدا منيعا آخر بين قواتنا وقوات العدو"[33]، و"تعتبر عملية اقتحام مانع مائي مثل قناة السويس ضد عدو يتمركز في نقط قوية محصنة تحصينا جيدا على الجانب الآخر من أصعب العمليات الحربية وأكثرها تعقيدا"[34].

وهي مشكلة لم يواجهها جيش مصري من قبل، لقد قام عائق حربي في قلب الأرض المصرية يمنعها من تحريك الجيوش، بل وتتحصن خلفه القوات المعادية.

ومن هنا كان الإنجاز العسكري المصري في حرب أكتوبر هو "عبور القناة"، أو ما يسميه صحافي السلطة الأشهر محمد حسنين هيكل "اجتياز حائط الخوف" المتمثل في "عبور قناة السويس وفي اقتحام خط بارليف: القناة نفسها حاجز مائي من أصعب الحواجز، وخط بارليف على حافتها سلاسل متصلة من المواقع الحصينة"[35].

ولو تصورنا عدم وجود القناة لكان المجهود العسكري والموارد الهائلة التي هلكت في تحقيق هذا الإنجاز قد أنفق في معركة حقيقية.

لقد كانت كل الخطة العسكرية هي تغيير خط المواجهة من خط القناة إلى خط آخر، والفكرة الأساسية التي اعتمد عليها سعد الدين الشاذلي هي أن إسرائيل بطبيعتها لا تتحمل حربا طويلة، فمجرد تغيير خط المواجهة إلى شرق القناة سيجعلها غير قادرة على الحياة في سيناء، ولا على تحمل حرب طويلة لارتفاع نسبة التعبئة من بين صفوفها، فالحرب الطويلة "ترهق اقتصادها

القومي وتصيب خدماتها وجميع نشاطاتها الأخرى بالشلل الكامل"[36]، وهذا الجزء من الخطة تحقق بنجاح وهو ما غير الوضع في طبيعة سيناء.

اتفاقية السلام: قناة السويس كخط "سلام" فاصل

لكن السياسة التي يديرها العسكر لم تكن وفية للدماء، وإنما ساقت المشهد في إطار تحقيق السلام، وما يهمنا في الحديث هنا هو وضع قناة السويس التي كسبت إسرائيل حق الملاحة فيها، وهو الهدف القصير السهل، أما الأثر الاستراتيجي الطويل فهو الاتفاق على بقاء سيناء معزولة خالية من القوات العسكرية ومن المشاريع العمرانية، كمنطقة عازلة لضمان أمن إسرائيل. ومن ثَمَّ عانى سكان سيناء من الإقصاء والتهميش والظلم لنحو نصف قرن (منذ 1967). ولو لم توجد هذه القناة لما كان ممكنا بقاء سيناء بهذه العزلة والانفصال عن الجسد المصري، ولما كان ممكنا حرمانها من التعمير والتنمية والانتقال الطبيعي بين سكان سيناء وسكان وادي النيل.

الخطة الدائمة: زيادة التفريعات

رغم ما يبدو من الاختلاف الظاهري بين عهود الحقبة العسكرية: عبد الناصر، السادات، مبارك، السيسي، إلا أن مما اتفقوا فيه جميعا هو مضاعفة وتوسيع قناة السويس! وهو في ذاته دليل على أن الرؤية السياسية والأمنية والاستراتيجية لم تتغير بين تلك الأنظمة، والفترة الوحيدة التي نُظِر فيها إلى محور قناة السويس برؤية أمنية واستراتيجية مخالفة كانت هي الفترة القصيرة للرئيس محمد مرسي، وهو الرئيس الوحيد المنتخب من الشعب المصري بعد ثورة 25 يناير.

زيدت سبعة تفريعات على قناة السويس:

1. في عصر الملك فاروق أضيفت تفريعة البلاح بطول عشر كم عند منطقة البلاح شمال الإسماعيلية (1951م).

2. في عصر عبد الناصر أضيفت تفريعتان: تفريعة البحيرات بطول 11.8 كم (1955م)، وتفريعة كبريت بطول 7.0 كم (1955م).

3. في عصر السادات أضيفت ثلاث تفريعات: تفريعة بورسعيد بطول 40.1 كم (1980م) وازداد طولها أكثر من مرة في عصر مبارك، تفريعة التمساح بطول 4.3 كم (1980م)، تفريعة الدفرسوار بطول 8.4 كم (1980م).

4. وفي عصر السيسي حُشِدت حملة إعلامية هائلة لاجتذاب تبرعات شعبية واسعة لإنشاء أكبر تفريعة جديدة "قناة السويس الجديدة"، مع إغراءات ووعود هائلة، ونُفِّذ المشروع في سنة واحدة فقط، ليكون أطول مضاعفة لقناة السويس منذ نشأتها[37].

وهكذا تقوم الحكومة المصرية على زيادة توسيع وتعميق قناة السويس التي كانت المشروع المرفوض من كل من حكموا مصر قبل سعيد باشا، ومن بعد ما ظهر بجلاء عبر الحروب المتعددة الخطر الكبير الذي تمثله القناة أمنيا وعسكريا واستراتيجيا. هذه المضاعفة في المانع المائي تجعل تكرار عبور القناة لمواجهة أي اجتياح إسرائيلي لسيناء في حكم المستحيل، أي أن السياسة المصرية ترسخ عمليا لعزلة سيناء وتقدمها كهدية لإسرائيل.

وبعد عامين من افتتاح المجرى الملاحي الجديد تبخرت الوعود المبذولة بالرخاء الاقتصادي، وصرح السيسي مؤخرا بأنه كان مشروعا لرفع الروح المعنوية[38]!! وبهذا الاعتراف بإخفاق المشروع اقتصاديا لم يبق إلا آثاره الأمنية الخطيرة والتي تصب في صالح القوى الأجنبية، وبالذات في صالح إسرائيل.

مراحل زيادة طول وعمق القناة – المصدر: موقع هيئة قناة السويس على الانترنت

مراحل زيادة طول وعمق القناة – المصدر: موقع هيئة قناة السويس على الانترنت

الخاتمة: الحلول المطروحة لملف قناة السويس

قبل نحو ثلث القرن حاول رئيس بنما عمر توريخوس أن يستعيد سيادة بلاده على قناة بنما الواصلة بين المحيطين الأطلسي والهادي، والواقعة تحت السيادة الأمريكية، فخاض معارك سياسية مع الأمريكان وصل فيها أن هدد بتفجير سد جاتون الواقع على القناة ليوقف الملاحة فيها، ثم أفضت إلى اتفاق مع إدارة كارتر يقضي باستعادة القناة، إلا أن ريجان -الذي خلف كارتر- لم

يَرُقْ له الاتفاق وأَصَرَّ على عودة الأمور كما كانت، وهو ما كان مستحيلا توريخوس، ففجَّرت المخابرات الأمريكية طائرته (31/7/1981م)، ونُصِّب العميل "نورويجا" الذي لم يستطع أيضا تحقيق كل مطالب الأمريكان ولا النزول الكامل من السقف الذي وصل إليه توريخوس، فلم يتردد ريجان عن قصف بنما بالطائرات واختطاف نورويجا ومحاكمته في أمريكا في مشهد يكون به عبرة لكل من يفكر في الوقوف أمام الغول الأمريكي.

لم يجادل أحد في أن تهديد توريخوس بإيقاف الملاحة في قناة بنما عمل ثوري ووطني! فما من بلد وما من حركة تحرر إلا وهي تنظر لمواردها في ضوء انتفاعها بها، فإن اقتصر نفعها على عدوها لم تبال بتدميرها وهذه سنة مضطردة لا تتخلف لدى حركات التحرر، وقد مرَّت بنا سخرية عبد الرحمن الرافعي من نظرية أن الأمم تفرط في استقلالها ومصالحها خدمة للإنسانية!! فكيف وحقيقة الأمر أنها خدمة للأجانب الأعداء وليس للإنسانية؟!!

في ضوء أزمة قناة السويس نرى أن الحل يمر بثلاث مستويات:

1. التوعية

يجب إزالة التراكم التاريخي الزائف حول منافع قناة السويس لمصر، وإبراز الحقيقة التاريخية التي تنطق بها صفحات التاريخ وحقائق الواقع، وهو ما شهد به مؤرخون لا شك في وطنيتهم بل ومؤرخون أجانب؛ فالقناة تحرم البلاد اقتصاديا من مركزها كمقر للتبادل التجاري والخدمات والصناعات الوسيطة فضلا عن كلفة حمايتها وتأمين الملاحة فيها. وتحرم البلاد عسكريا من اتصالها الجغرافي الذي سبب أضرارا هائلة ونتجت عنه ثلاثة حروب على الأقل (1956، 1967، 1973) حتى صار الإنجاز العسكري المصري الوحيد في تاريخ جيشها هو النجاح في "عبور القناة"، ويزيد هذا الخطر العسكري أضعافا في ظل وجود إسرائيل وحاجتها لمنطقة عازلة وخط دفاعي وأمني متقدم. وتحرم البلاد سياسيا من استقلالها بزيادة حرج موقعها كمركز تنافس استعماري وهو ما عانت منه البلاد من اللحظة الأولى لولادة قناة السويس حتى الآن، إضافة إلى القيود السياسية التي تلزم بمرور السفن وإن كانت عسكرية في مهمات تهدد مصالح مصر أو عمقها العربي والإسلامي أو كانت تحمل مواد ضارة بالبيئة أو بالثروة المصرية.

لا يليق بحال أن تتشرب الصفوة المصرية خدعة فائدة القناة وأن تتمسك بها باعتبارها مقدسا وطنيا، بل يجب أن يكون الشعب وقادته على وعي بخطورة هذه القناة وأضرارها حتى وإن عجزوا عن الحل الشافي أو النهائي لمشكلة القناة. وأن ينتشر الوعي بين عموم الجماهير.

2. التنمية

وذلك ما سعى إليه الدكتور محمد مرسي أثناء فترة رئاسته القصيرة، فلئن لم يكن ممكنا إزالة القناة فلا بد من تعظيم وتكثيف الوجود البشري والعمراني والاقتصادي حولها، فهذا ما يقلل أضرارها كعازل ويعيد الاتصال بين الجغرافيا المصرية، وهو ما يلقى معارضة قوية من جهات كثيرة ليس أولها إسرائيل التي تستشعر في هذا التعمير والتكثيف تهديدا أمنيا لسيناء كمنطقة عازلة، وليس آخرها العسكر المصري الحالي المرتبط والخادم للمصالح الأمريكية والإسرائيلية[39].

بينما تتعاظم الخشية من مشروعات توسيع القناة أو زيادة تفريعاتها، فهذا يضاعف المانع المائي ويزيد الانفصال بين الأراضي المصرية، ويجعل إمكانية عبور القناة مستحيلا في أي وقت قادم، وهو ما فعله عبد الفتاح السيسي، بل هو مشروعه الوحيد الذي اكتمل في وقته القياسي.

3. إزالة القناة

وهذا حل تسوق إليه المعطيات التاريخية، وأول وآخر تفكير فيه كان لأحمد عرابي، آخر قائد عام وطني قوي للجيش المصري، فكل من تولى القيادة العامة بعده كان تحت النفوذ والسيطرة الأجنبية، وإزالة القناة لا تعني مجرد إزالة ممر مائي، بل هو:

1. على مستوى الدائرة الإقليمية، إزالة أهم الخطوط الجيو - استراتيجية للدولة العازلة، وهي إزالة لنظرياته الأمنية والعسكرية، وإقامة وضع جديد يعيد اتصال الأرض المصرية والشعب المصري بما له من آثار واسعة تتجاوز الأمنية والعسكرية إلى الآثار الاقتصادية والاجتماعية.

2. على مستوى الدائرة الدولية، هو إزالة لمركز الشبكة الاستعمارية التي نشأت في القرن التاسع عشر، والتي لا تزال قائمة حتى الآن، وهو ما يفرض أوضاعا جديدة على كل المستويات العسكرية والأمنية والاقتصادية، ويزيح مركز الصراعات إلى حد ما من قلب العالم العربي إلى مواقع أخرى.

ولا شك أن هذه الحلول الثلاثة: التوعية، التعمير، الإزالة تتوقف على امتلاك الشعب المصري خصوصا والمنطقة العربية عموما لقراره وإرادته، وهو أمر دونه ملاحم ومصاعب هائلة، فالثقل الاستعماري الراسخ منذ قرون لن يسمح بالتحرر ولن يعطيه إلا أن يُجبر عليه ويُنتزع منه.

يقول الرافعي: "لو سلم عهد سعيد من القروض الأجنبية، ولم يمنح امتياز القناة. لكان محتملا أن تتغير المصاير وتتبدل النتائج في تاريخنا القومي"[40]، هذا مع أن الرافعي لم ير ما سببته القناة بعد وفاته (1966م)!

لو تخيلنا تاريخ مصر بدون القناة فلا شك في أن دماء غزيرة كانت ستُحقن وأموالا طائلة كانت ستُصان ووضعا سياسيا واقتصاديا آخر كان سيكون!

نشر في مجلة دراسات بيت المقدس، العدد 18 (2)، ديسمبر 2018

---

[1] انظر في نداء نابليون لليهود: إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، ص106 وما بعدها؛ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 3/56، 57.

[2] انظر في تاريخ قناة السويس: أنجلو ساماركو، قناة السويس تاريخها ومشكلاتها: وفقا للمصادر المصرية والأوروبية غير المنشورة، ترجمة: ولاء عفيفي وآخران، ط1 (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2015م)، ص35 وما بعدها؛ إلياس الأيوبي، تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا، ط2 (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996)، 1/325 وما بعدها؛ عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، ط4 (القاهرة: دار المعارف، 1987م)، 1/57 وما بعدها.

[3] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5 (بيروت: دار الفكر، 1973م)، 2/264.

[4] انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عادل محمود سليمان، (اسطنبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، 1988م)، 2/443، 444؛ د. عبد القادر أوزجان: النظم العسكرية العثمانية، ضمن: أكمل الدين إحسان أوغلو (إشراف)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، (اسطنبول: 1999م)، 1/417؛ مصطفى بيلج، قناة السويس في الوثائق العثمانية، ترجمة: عمرو الزواوي، مجلة ذاكرة مصر، (القاهرة: العدد 19، أكتوبر 2014)، ص76 وما بعدها.

[5] كريستوفر هيرولد، بونابرت في مصر، ترجمة: فؤاد أندراوس، ط مكتبة الأسرة (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1998م)، ص20.

[6] كانت بريطانيا تحتل الهند، وتسيطر بأسطولها البحري القوي على طريق رأس الرجاء الصالح الملتف حول إفريقيا، فكان حفر قناة السويس يجعل غريمتها فرنسا أقرب إلى الهند منها، لا سيما ومحمد علي من رجال فرنسا وحلفائها المقربين، وهو ما يغير موازين القوى الاستعمارية.

[7] عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، 1/54.

[8] راجع الورقة البحثية التي قدمها الباحث في المؤتمر الأكاديمي السادس عشر لدراسات بيت المقدس (اسطنبول: 2016م)، بعنوان "تأسيس النفوذ الأجنبي في بيت المقدس في عهد محمد علي باشا الكبير"، ففيها تناول للمحاولات العملية التي شرعت في تأسيس الكيان اليهودي، وانظر: محمد إلهامي، في أروقة التاريخ: الجزء الأول، ط1 (القاهرة: دار التقوى، 2016م)، ص117 وما بعدها.

[9] عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، 1/18.

[10] إلياس الأيوبي، تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا، 1/328 وما بعدها.

[11] يقول المؤرخ والناشر الإنجليزي إدوارد ديزي: "لم يحدث أبدا أن مُنِح امتياز يكفل مثل تلك المزايا للحاصل عليه، ويلقي مثل تلك الأعباء والتكاليف على عاتق من أصدره، مثل الامتياز الذي منحه سعيد باشا لشركة السويس". انظر: جالينا نيكيتينا، قناة السويس ملكية وطنية للشعب المصري، ترجمة: إبراهيم عامر، (القاهرة: مطبعة الدار المصرية، 1957م)، ص18.

[12] انظر موجزا لقصة قناة السويس في: محمد إلهامي، في أروقة التاريخ: الجزء الأول، ص261 وما بعدها.

[13] مما يثير الشك في اليد الأجنبية في مصر أن تولي كل من سعيد وإسماعيل الحكم كان بعد عملية اغتيال أزاحت من قبلهما، فقد تولى سعيد بعد اغتيال غامض لعباس باشا في قصره، وتولى إسماعيل بعد حادث غامض غرق فيه الأمير أحمد رفعت الأكبر منه سنا والأولى بمنصب الولاية بحسب النظام المتبع في تلك الفترة.

[14] للمزيد انظر: محمد إلهامي، في أروقة التاريخ، ص249 وما بعدها؛ ؛ عبد العزيز الشناوي، السخرة في حفر قناة السويس، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2010م)؛ إلياس الأيوبي، تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل، 1/341 وما بعدها؛ الرافعي، عصر إسماعيل، 1/63 وما بعدها، 93 وما بعدها؛ ألبرت فارمان، مصر وكيف غُدر بها، ترجمة: عبد الفتاح عنايت، ط1 (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1995)، ص217 وما بعدها؛ جورج يانج، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية عهد إسماعيل، ترجمة: علي أحمد شكري، ط2 (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996م)، ص196 وما بعدها؛ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5 (بيروت: دار العلم للملايين، 1968م)، ص575 وما بعدها؛ ريمون فلاور، مصر من قدوم نابليون إلى رحيل عبد الناصر، ترجمة: سيد أحمد علي الناصري، ط (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2000م)، ص137 وما بعدها.

[15] عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بدون تاريخ)، 3/659.

[16] كريستوفر هيرولد، بونابرت في مصر، ص20.

[17] ريتشارد ف. بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: دار المعارف، 1994م)، ص98، 99.

[18] جورج يانج، مصر من نهاية عهد المماليك إلى عهد إسماعيل، ص196 وما بعدها.

[19] السابق، ص210 وما بعدها.

[20] الرافعي، عصر إسماعيل، 1/54، 55.

[21] أولج فولكف، القاهرة: مدينة ألف ليلة وليلة، ترجمة: أحمد صليحة، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1986م)، ص148.

[22] ألبرت فارمان، مصر وكيف غُدِر بها، ص236.

[23] الرافعي، عصر إسماعيل، 1/57.

[24] عبد العزيز الشناوي، ما تكلفته مصر في إنشاء قناة السويس، المجلة التاريخية المصرية، 1957م، 6/135 وما بعدها.

[25] انظر نص تليغراف عرابي لقادة جيشه في محضر التحقيق معه في: د. عبد المنعم الجميعي، مذكرات الزعيم أحمد عرابي: كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2005م)، 2/767.

[26] عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، 1/20 وما بعدها، 1/53 وما بعدها.

[27] الرافعي، عصر إسماعيل، 1/54.

[28] محمد حسنين هيكل، قصة السويس، ط2 (بيروت: شركة المطبوعات، 1982م)، ص22.

[29] انظر: فلاديمير فينوجرادوف، مصر من ناصر إلى حرب أكتوبر: من أرشيف سفير، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2016)، ص14، 15.

[30] أنور السادات، البحث عن الذات: قصة حياتي، ط3 (القاهرة: المكتب المصري الحديث، أكتوبر 1979م)، ص159، 160.

[31] أنور السادات، البحث عن الذات، ص256.

[32] سعد الدين الشاذلي، مذكرات حرب أكتوبر، (نسخة إلكترونية)، ص8.

[33] سعد الدين الشاذلي، مذكرات حرب أكتوبر، ص3.

[34] جمال حماد، المعارك الحربية على الجبهة المصرية: حرب أكتوبر 1973، ط1 (القاهرة: دار الشروق، 2002م)، ص85.

[35] محمد حسنين هيكل، محاولة تصور الموقف، صحيفة الأهرام القاهرية، 12 أكتوبر 1973، والنقل هنا عن: محمد حسنين هيكل، عند مفترق الطرق: حرب أكتوبر ماذا حدث فيها وماذا حدث بعدها، ط3 (بيروت: شركة المطبوعات، 1983م)، ص35، 36.

[36] سعد الدين الشاذلي، مذكرات حرب أكتوبر، ص6، 7.

[37] البيانات عن موقع "هيئة قناة السويس" على الانترنت، لكن الخطأ التاريخي الشائع أنهم يجعلون تفريعة البلاح ضمن ما حفر في عهد عبد الناصر، والصحيح أنه كان في عصر الملك فاروق، وهو خطأ صحافي شائع لم ينتبه له القائمون على موقع الهيئة.

[38] في لقاء مع التليفزيون المصري، بتاريخ 3 يونيو 2016م.

[39] حدثني عضو لجنة الأمن القومي بالبرلمان المنتخب (2012م) أن العسكريين المصريين رفضوا صراحة أي تنمية لمحور قناة السويس وأي زيادة في الوجود العمراني والبشري في سيناء بزعم أن هذا يعيق حركتهم العسكرية إن كان ثمة احتلال إسرائيلي لسيناء، وهذا زعم كاذب أبله يغني إيراده عن رده، فإن أهم ما يعيق الاحتلال ويخدم القوة المدافعة هو الكثافة البشرية!

[40] عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، 1/71.

حماس غزة: أزمة وتطور الفكر السياسي تحت إكراه الواقع المعقد

** قدمت هذه الورقة في المؤتمر العلمي الأول لحركة حماس، والمنعقد بغزة (18، 19سبتمبر 2018)

ليس لحماس إنتاج كثير في باب الفكر السياسي، لهذا فإن أغلب ما يكتب عنها إنما يستمد مادته من الوثائق والبيانات والسلوك السياسي في المواقف المختلفة أو من تصنيفها ضمن مدرسة إسلامية أوسع وهي في حالتنا هذه "الإخوان المسلمين" ليمكن فهم منطلقاتها السياسية، وفي هذا مخاطرة معروفة تؤثر في الدقة البحثية ووضوح التصور، فالاعتماد على تحليل السلوك السياسي لا يؤدي بالضرورة إلى فهم الرؤية الفكرية للحالة، إذ أن السلوك السياسي الواقعي هو نتاج عملية مركبة من ثلاثة عناصر: الفكر السياسي والإكراهات الواقعية الظرفية وكفاءة التنفيذ، وبإمكان العنصرين الأخيرين أن يُشَوِّها كثيرا العنصر الأول المتعلق بالفكر، وهنا موضع المخاطرة.

من هاهنا حاولت هذه الورقة رصد أزمة الفكر وتطور الفكر السياسي لحماس تحت إكراه الواقع المعقد داخليا وإقليميا ودوليا، واضطرت أن تعتمد على الوثائق والبيانات والكتابات المقربة من الحركة لتستخلص معالم هذه الأزمة وهذا التطور عبر السنوات العشر منذ ما بعد الحسم العسكري والانفراد بحكم غزة (2007م) حتى (2017م) عام صدور وثيقة المبادئ والسياسات العامة التي اعْتُبِرَتْ –بحق- تعديلا على ميثاق حماس الأول (1988م) وهو أيضا عام آخر المحاولات الجادة في الوصول إلى مصالحة تُسَلِّم فيها حماس حكم غزة لسلطة محمود عباس.

وسعيا لبيان ملامح هذه المسيرة قُسِّمت الورقة إلى ثلاث محاور؛ الأول: عن إكراهات الواقع المفروض على حماس في التنظير والتطبيق وهو ما أنتج تجربة تزاوجت فيها الثورية اللائقة بحركة تحرر والمحافظة اللائقة بحركة محاصرة تحت ضغوط كبرى، فكان المحور الثاني عن الجانب المحافظ من تجربة حماس، والمحور الثالث عن الجانب الثوري من تجربة حماس. وهذه القسمة هي برأيي القادرة على بيان مناطق الثبات والتطور في التجربة لتكون كاشفة عن نتائج التدافع بين رغبة التحرر وضغط الواقع.

ومن نافلة القول أن هذه الورقة كُتِبت لا بغرض الثناء على حماس ولا بغرض الهجوم عليها، وكاتبها لا يتردد في الإعلان عن حبه واعتزازه وفخاره بحركة حماس كواحدة من حركات المقاومة والتحرر الإسلامية، ولكونها أنضج الحركات التي جمعت بين السياسة والقتال، ومع هذا فإن ما في هذه الورقة من الثناء لم يفارق الموضوعية المقصودة والمطلوبة من أي ورقة علمية، وليس فيها من الانتقاد إلا ما هو مقصود ومطلوب بغرض الاستفادة والنصح والتقويم، وفيها أيضا من حسن الظن والتماس الأعذار ما هو خليق أن يُقدَّم في شأن المجاهدين.

حماس غزة: صورة مصغرة مكثفة لتحديات إنتاج تجربة إسلامية

على نحوٍ ما، يبدو أن مشكلات الأمة الكبرى العامة تُخْتَصر في واقع الأزمة التي تعرضت لها حماس إثر توليها مسؤولية الحكم (2006م)، فلو حاولنا استعراض مشكلات الأمة الكبرى سنجد أنها خمسة، تلك هي:

1. الاحتلال الأجنبي المهيمن على الأمة والمتحكم في قرارها –رغم الاستقلال الشكلي الزائف- وما يتمتع به من فارق القوة الضخم الذي يجعل شأن مقاومته فادح التكاليف عظيم الخسائر، ومنذ دخلت أمتنا في طور الاستضعاف قبل قرنين من الزمان ولا يزال الزمن يؤول إلى ازدياد فارق القوة بين الأمة وعدوها، وقد وصلنا في الفترات الأخيرة إلى استطاعة قوى الاحتلال القضاء على القوى الخارجة عن هيمنتها بمجرد التفوق الجوي والأمني وأحيانا قبل نزول القوات على الأرض كما وقع في أفغانستان مع حركة طالبان (2001م)، وفي العراق مع تنظيم "الدولة الإسلامية" (2017م) وفي سوريا مع مناطق الثورة في حلب والغوطة الشرقية وغيرها (2017، 2018م).

وفي حالة غزة تبدو نفس هذه الأزمة على المقياس المصغر، إذ الفارق ضخم بين القوة الإسرائيلية العسكرية وقدراتها الأمنية وبين فصائل المقاومة، وهو ما يتيح لها القدرة على إحداث دمار واسع تضغط به على المقاتل وعلى المُفاوِض أيضا في حال إرادة الوصول لإنهاء الحرب. إلا أن الحالة الغزاوية تشهد بعض المزايا مثل: قدرة حماس على ضرب شبكات أمنية مؤثرة للاحتلال داخل غزة، وعلى إنهاء الوجود الفتحاوي الذي يمثل الإسناد الأرضي المناظر للقوات العراقية الحكومية

وقوات التحالف الشمالي الأفغاني وقوات نظام الأسد، مما يجعل المهمة الأرضية موكولة إلى جنود الاحتلال الذي هو شديد الحساسية والحرص على طاقته البشرية.

2. الاستبداد الداخلي والذي تمارسه النظم المحلية الوظيفية المسنودة بالاحتلال الأجنبي، والتي يمثل مجرد وجودها أحد أكبر التحديات لأي حركة مقاومة، ذلك أن مواجهة عدو أجنبي محتل أسهل على سائر المستويات –إلا العسكري- من مواجهة طرف من نفس الشعب ويتمتع بجذور سياسية وحواضن اجتماعية وخبرة محلية، فضلا عما يضفيه عليه الإسناد الخارجي من شرعية قانونية وحضور دولي وإمكانيات مالية ودعم مالي.

وفي الحالة الغزاوية ينتصب نموذج السلطة الفلسطينية كحالة مثالية للسلطة التي ترفع عن المحتل الأجنبي عبء إدارة الشؤون اليومية وتسخر مجهوداتها الأمنية ونفوذها السياسي لصالحه، وهي واحدة من أنجح تجارب التوظيف الاحتلالي لفئة محلية ضد حركات المقاومة.

3. الموقع الجغرافي الخطير، وذلك أن الأمة تتمدد جغرافيا في قلب العالم، حتى ليمكن القول بأنه ما من أمة في هذا العالم تستطيع إنشاء سياسة أو تجارة أو أي نوع علاقة مع أمة أخرى إلا واحتاجت إلى إذن الأمة المسلمة، وهذا الاتصال الجغرافي للأمة والممتد من أقصي الشرق حتى أقصى الغرب بقدر ما هو قوة عظمى للأمة في حال قوتها، بقدر ما هو نفسه أزمة مرهقة وخطيرة في حال ضعفها، وتلك أقدار الله التي تحتم على الأمة دائما أن تسعى للنهوض والقوة، فالموقع الحساس إما أن يكون مصدر القوة أو أن يكون مسرح صراع الأقوياء من حوله ونقطة جذب لأطماعهم، وهذا هو قدر الأمة، وهو بالذات قدر قلبها المصغر الذي يشمل الشام والعراق ومصر وتركيا.

وتبدو هذه الأزمة نفسها في حال قطاع غزة، لا سيما بعد أن حكمته المقاومة، إذ هو بها قطاع صغير متكدس معزول بلا عمق استراتيجي، محشور في كبد الكيان الصهيوني الذي هو القاعدة العسكرية الأمنية المتقدمة للنظام الغربي في قلب العالم الإسلامي، فـ "إسرائيل" هي ابنة الحضارة الغربية وربيبتها التي ولدتها وأنشأتها ورعتها في هذه البقعة، وسواءٌ ذهبنا مع من قالوا بأنهم فعلوا هذا حبا وكرامة وإخلاصا لدينهم وعقائدهم كما يقول من يُغَلِّب المُكوِّن الديني على قرار السياسة الغربية[1] أو مع من قالوا بأنهم فعلوا هذا سياسة ومصلحة وتوظيفا للمتناقضات كما

يقول من يُغلِّب المُكوِّن المادي العلماني على هذا القرار[2]، فالحاصل أن إسرائيل هي أول خطوط الدفاع والهجوم عن الحضارة الغربية ونظامها العالمي، وقد جزم البعض بأن الصراع العالمي كله متوقف على الصراع مع إسرائيل[3].

4. سيادة نمط الدولة الحديثة، وهو النمط الذي أنتجته الحضارة الغربية المعاصرة وبَنَتْ عليه نظامها الدولي، وخلاصته أن أحلَّ الدولة محل الإله، فالدولة هي المرجعية وهي صاحبة السيادة وهي المتصرفة في سائر الأنشطة الإنسانية ضمن البقعة الجغرافية التي تهيمن عليها، وسائر أوجه النشاط المجتمعي إنما هو محكوم بما تسمح به السلطة، فالمجتمع على الحقيقة أسير أمام الدولة التي لم تعد مجرد سلطة سياسية ذات قوة عسكرية وأمنية، بل صارت جهازا ضخما يدير ويتحكم في كل التفاصيل. هذه الحداثة لم تغرس في بلادنا إلا بقهر الاحتلال والاستبداد، ذلك أنها تخالف وتناقض النظام الإسلامي الذي شكَّل طبيعة بلادنا وصورة علاقاتها السياسية والاجتماعية عبر خمس عشرة قرنا، ولذلك فكل قصة "تحديث" في بلادنا كانت هي ذاتها قصة الاحتلال والاستبداد. وأسوأ ما في هذا النمط هو تعطيله الفاعلية الذاتية الشعبية بمصادرة مساحات حركة المجتمع، فحتى معلم المدرسة أو خطيب الجامع صار يحتاج تصريحا من الدولة لممارسة هذه المهمة، بل صار محتاجا إلى ورقة رسمية تعترف له بأنه معلم أو خطيب! لكل هذا كانت خلاصة قصة "الحداثة" في بلادنا أنها النظام الذي تمكَّن من شلِّ طاقة الأمة وتعطيل شعوبها، لطبيعته هو نفسه أولا ولكونه مفروضا علينا في زمن الضعف فمن ثَمَّ كان عمله في ترسيخ قوة الغالب الغربي وترسيخ ضعف المغلوب الإسلامي.

تلك هي المحنة الكبرى والنازلة العظمى على المستوى النظري والعملي، أي على مستوى إنتاج الاجتهاد الإسلامي الأصيل الرشيد، وعلى مستوى المقاومة الإسلامية التي صارت كأنها في قضية تحررها ضد نظام العالم كله.

تبدو مشكلة الأمة هذه متمثلة في غزة أيضا، فلقد استطاع نمط الحداثة هذا أن يجعل غزة تحمل مسؤوليات الحكم كأنما هي في دولة تتحمل فيها مسؤولية إدارة سائر التفاصيل، هذا مع أنها مُحاصَرة بنفس نظام الدول الحديثة الذي يمنع اتصالها بطاقة الأمة بل يجعل طاقات الأمة كلها محاصَرة ومعزولة وممنوعة من التواصل والإمداد لطاقة الغزيين، فبقدر ما تحملت المقاومة عبء إدارة دولة حديثة طبقا لمفهوم الدولة الحديثة بقدر ما مُنِعت من وسائل الحياة طبقا لنفس هذا

المفهوم، وقد وجدت حماس نفسها أمام المعضلتين معا: معضلة أنها تتولى إدارة قطاع متكدس بالبشر (وهو عبء داخلي) وهو محاصر معزول (وهو عبء خارجي).

لا يمكن مطالبة حماس بإنتاج اجتهاد إسلامي لنازلة الدولة الحديثة، التي هي النازلة العامة التي اضطربت فيه آراء الإسلاميين من أقصى اليمين (هدم الدولة الحديثة ومن ورائها النظام العالمي) إلى أقصى اليسار (الذوبان فيها واعتبارها حتى بوضعها الحالي غاية إسلامية)، والغالب أن همّ مقاومة الاحتلال وتثبيت المكاسب الأمنية والعسكرية لم يتح أصلا فرصة طرح هذا التوجه الفكري على مائدة البحث في أي وقت.

لكن حماس عمليا بين اختياريْن، وإن لم يكن أمامها الوقت ولا الإمكانية لبحث المسألة في صورتها النظرية، وهما: أن تكون سلطة رشيدة ضمن مفهوم الدولة الحديثة أم تكون قيادة مقاومة ضمن مفهوم ما قبل الحداثة أو تصورات ما بعدها. وكل هذا ينعكس بقوة على طبيعة وحدود العلاقة بين السلطة والشعب ووظائف كل منهما.

5. افتقاد التنظير السياسي الإسلامي المعاصر، والانقطاع الكبير في هذا الباب نتيجة لغياب نظام الخلافة من جهة وانحدار شأن العلماء في المجتمعات الإسلامية من جهة أخرى، وبهذين الأمرين صار أمر الاجتهاد المعاصر محتاجا إلى فقهاء يعرفون علم الشرع وعلم الواقع ولديهم القدرة على الاجتهاد الذي يحلون به معضلة لم تواجه القرون الأربعة العشر الماضية[4]، إذ سائر التراث الفقهي مكتوب في حال لم تعد موجودة، فضلا عن أنه مكتوب في حال لم تبلغ أبدا من الضعف والقلة مثل ما تبلغه الأمة الآن من أنها مقهورة في سائر تفاصيل نشاطها بفارق قوة ضخم وبأفكارٍ أجنبية أنتجت نُظُمًا استقرت وتمكنت، فلو أن كل باب السياسة الشرعية هو باب الموازنات بين المصالح والمفاسد ضمن ثوابت الإسلام ففي زماننا هذا صار أمر السياسة الشرعية هو شبكة الموازنات بين الأوضاع المعقدة التي لا تكاد توجد فيها مصالح بل مجموعة من دفع الأضرار والمفاسد نحتاج إلى تقدير الأقل من بينها.

هذا فضلا عن أن الجهة المؤهلة للاجتهاد، وهم العلماء، إنما كانوا أهم المستهدفين بالإقصاء والعزل عن المجتمعات، مع تدمير مكانتهم الاجتماعية ومحاضنهم العلمية العريقة، حتى لقد جرى إقصاؤهم عن قضايا الأحوال الشخصية التي صار الحكم فيها إلى قانونيين ومحاكم وضعية، مما

كان من آثاره أن يكثر فيهم أنفسهم الجاهلون بأبواب السياسة الشرعية وأن ينصرف الكلام في هذه الأبواب إلى غيرهم ممن لا يحسنها فيكثر فيها الاضطراب[5] والتأثر بالثقافة الغالبة[6]. ومن جهة أخرى صارت جماعة العلماء بين عالم في ظل سلطة أو عالم في ظل حركة إسلامية أو عالم مستقل بنفسه، تحول مجمل الاجتهاد المعاصر إلى إجابة مسائل نوازل متفرقة تعالج أحداثا جزئية وقطرية وحزبية. وهو ما يجعل كل تجربة إسلامية في الحكم خاضعة لظروف الواقع أكثر من صدورها عن منظومة عامة.

وهذا في حالة غزة أشد عسرا حيث تجتمع عليها العديد من النوازل في الوقت الواحد.

يتفرع عن تلك المشكلات الخمس الكبرى ويدعمها مشكلات أخرى كثيرة، كالبيئة الدولية المضطربة والمعقدة بما تطرحه من محاولات التوظيف والإنهاء، وبروز تيارات الغلو أحيانا، والتيه في التوفيق بين ما يستحق التشدد وما يستحق المرونة، والعمل في ظل نظام سلطوي ثم نظام عالمي يتحسس ضد أي محاولة تغيير فيه أو مقاومة له، ويكافحها بلا رحمة، لا سيما والقرب الجغرافي من "إسرائيل" يجعل المعركة في قلب الصراع المحتدم بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وهو الصراع العالمي الطويل الممتد لأكثر من ألف سنة.

تمثل كل مشكلة من تلك الخمس الكبرى في حد ذاتها تحديا ضخما أمام الأمة، ولهذا يمكن تصور كيف يتحول اجتماعها معا في منطقة جغرافية صغيرة كغزة إلى محنة عظيمة، كان على حركة حماس أن تتعامل معها، في لحظة لم تتوقعها أو تستعد لها. لا سيما وأن قرار حماس ينتج في الداخل والخارج، وهو محنة أخرى لها تأثيرات داخلية عميقة على الحركة نفسها، إذ مهما قيل في الانسجام بين حماس في غزة والضفة والخارج فلن يغير هذا من حقيقة أن الأوضاع المختلفة تنتج فروقا في الرؤية وأسلوب العمل.

ومع التسليم بكل ما سبق سرده من المشكلات الخمس الكبرى، والتقدير التام لكون عملية الاجتهاد في منازلتها عملية صعبة ودقيقة وهي أشد كلفة على الطرف الأضعف، إلا أن هذه الورقة تمثل وجهة نظر ترى أن عامة سلوك الحركة في تجربة الحكم كان أقرب إلى المحافظة منه إلى الثورية، وأن هذا هو ما فوَّت عليها عددا من الفرص المهمة، مثل الموقف من الانقلاب في مصر والنأي بنفسها عن الدخول فيه حفاظا على "ثوابتها السياسية"، وعلى نحو مثير للنظر يبدو الجناح

العسكري أكثر ثورية ومرونة إذ استطاع استنقاذ أسرى له في السجون المصرية في اللحظات الأولى من انهيار الشرطة (28 يناير 2011م) وقبلها كان قرار الحسم العسكري هو ردة فعل عسكرية لا قرارا سياسيا، وبدا فيه أن الجناح العسكري أيضا أكثر ثورية ومرونة في التعامل مع المستجدات، ويرى الباحث أنه لولا وجود السلاح بيد حماس فلربما شابهت مصير الإخوان في مصر، ذلك أن وجود السلاح والجناح العسكري جعل الحسم قرارا نابعا من إكراه واقعي وردة فعل ظرفية، وهو من أهم القرارات المؤثرة في مصير القضية الفلسطينية كلها، وبه صارت غزة قلعة مقاومة منيعة.

طبقا لهذه الرؤية، نستطيع أن نجمل مسار تجربة حماس السياسية في خطَّيْن: خط المقاومة والثبات (الجانب الثوري)، وخط القبول بالواقع (الجانب المحافظ)، فمن أهم معالم خط المقاومة: الموقف من الاحتلال، ومن فتح مفاوضات معه، واستهداف "المدنيين" منهم، والحفاظ على العلاقات مع إيران وتركيا وقطر رغم الضغوط لقطعها. ومن أهم معالم خط القبول بالواقع: الموقف من سلطة فتح ومنظمة التحرير، والقبول بنمط الحداثة في إدارة قطاع غزة وفي التعامل مع الوضع الإقليمي والدولي، والحرص المبدئي على عدم فتح أي نزاع مع الدول العربية والتحمل التام للسياسات المضادة والمعادية من قبلها.

ومن نافلة أن توزيع هذه المواقف ضمن خطي المقاومة أو القبول بالواقع هو باعتبار الغالب على الحال، وإلا فقد يقع في بعض المسائل وبعض الظروف ما يكون فيه نوع رضوخ كما في لهجة وثيقة المبادئ (1 مايو 2017م) فليس يجعلنا هذا ننقل الموقف من الاحتلال من جانب الخط المقاوم إلى خط القبول بالواقع، وقد يقع حسم عسكري ينهي وجود سلطة فتح في غزة فليس يجعلنا هذا ننقل الموقف من سلطة فتح من جانب خط القبول بالواقع إلى خط المقاومة.. وهكذا!

الجانب المحافظ من تجربة حماس

عملت عدد من الأسباب على أن تبدأ حماس تجربتها في الحكم بأسلوب محافظ غير ثوري، ومن أهم هذه الأسباب أربعة:

الأول: أن فرصة الحكم جاءتها على غير توقع فخاضته دون رؤية سياسية مسبقة، وفيما يُعتبر هذا الخوض نفسه عملا ثوريا مفاجئا استجابت له الحركة بمرونة تحمد عليها لكن هذا يجعله من "إكراهات الواقع"[7] ومفاجآته، وكان طبيعيا أن يكون التصرف في واقع الحكم بعد الفوز محافظا، إذ طالما لم تكن ثمة رؤية مسبقة فالأغلب أن تبقى التقاليد القائمة على حالها، وحماس قد نشأت كحركة مقاومة وتحرر ولم يشغل بالها أن تدير حكومة في المدى المنظور[8]، لقد كان فوز حماس مفاجئا للجميع[9].

الثاني: كذلك فإن حماس باعتبارها من مدرسة الإخوان المسلمين[10] فإن خلفيتها الفكرية في هذا الباب ستكون أقرب إلى المحافظة، فالإنتاج الفكري لمدرسة الإخوان في باب السياسة يعتمد على إصلاح ما هو واقع وتقديم رؤى جزئية وتفصيلية، ولم يكن لهذه المدرسة إنتاج فكري ثوري في باب السياسة يتجاوز الدولة القومية الحديثة ونظمها في الحكم والإدارة[11]، وإذا كان من الصعب العسير أن يجري حوار عميق حول نقد الديمقراطية في دولة غير ديمقراطية فكيف يمكن أن يجري حديث عن تجاوز الدولة في تجربة فلسطينية عاشت تتشوق للدولة دون أن تحققها؟!

الثالث: كذلك فإن تأسيس حماس حمل في بذوره أنها بديل لحركة فتح وحركات اليسار الفلسطينية، وهي الحركات التي تبنت المواجهة المفتوحة والعالمية مع الاحتلال مما جعل دول العالم بما فيها الدول العربية تتخذ منها موقفا معاديا كلَّف حركة الكفاح الفلسطينية خسائر فادحة، فاعتمدت حركة حماس نمط المواجهة المحدودة المحصورة داخل الأرض المحتلة ومن بين آمالها أن يوفِّر هذا لها دعما عربيا أو في أقل الأحوال ألا يستثير عليها عداءً عربيا.

الرابع: حرص حماس على تقديم صورة مطمئنة للوضع الإقليمي والدولي لتجربتها في الحكم، وهو الحرص الذي رافق كل تجربة الحركات الإسلامية السياسية والناتج عن شدة التشويه والتفزيع من كل تجربة إسلامية.

دفعت هذه الأسباب إلى تجربة حكمٍ محافظةٍ تَتَحَسَّس من التغيير ومواجهة الوضع السائد، وغاية ما ترجو أن تتمكن من إدارة الشأن الفلسطيني بأكبر قدر من التوافق والهدوء مع خصوم الداخل، وبأكبر قدر من التهدئة والطمأنة مع خصوم الخارج:

1. لم تسع حماس إلى إزاحة فتح أو غيرها من رفاق أو خصوم الدخل بل عملت جهدها على تكوين حكومات ائتلافية تتشارك في مهمة الحكم والإدارة منذ اللحظات الأولى[12]، ولما انفردت بتشكيل الحكومة جعلت من وزرائها مسيحي هو طناس أبو عيطة ولما اعتذر استبدلت به مسيحيا آخر هو جودة جورج مرقص[13]، وحرصت على خطاب إعلامي يجانب التعميم والوصم الفصائلي[14]، مع ما تعرضت له حكومتها من العرقلة والتجريد من الصلاحيات لتتركز في يد وكلاء أو موظفين متنفذين في الأجهزة وهم بطبيعة الحال تابعون لحركة فتح[15].

2. لم تحاول حماس هدم شرعية منظمة التحرير الفلسطينية بل كافة ما صدر عنها كان في إطار محاولات الإصلاح للمنظمة وتوسيعها[16]. ورغم كل ما وقع بين حماس وفتح[17] إلا أن الموقف الثابت الذي كانت حماس تعود إليه مهما ابتعدت عنه قليلا أو كثيرا هو الاعتراف بالسلطة الفلسطينية والتعامل معها كسلطة شرعية، ووصل الحال إلى الاستجابة لشروط كثيرة بغية تسليمها قطاع غزة ولكن تعطلت المصالحة على صخرة سلاح المقاومة والسيطرة الأمنية أي عند نقطة وجودية بالنسبة لحماس[18]. كما لم تحاول حماس إجراء أي تعديل جوهري في بنية وهيكلة المؤسسات القائمة، فضلا عن أن تنطلق من توسيع المشاركة المجتمعية في شأن الإدارة، وإنما حافظت على الواقع القائم[19]، وكثيرا ما تردد في خطابها السياسي معنى الحفاظ على المؤسسات وإصلاحها[20].

3. قدَّمت حماس خطابا سياسا يبتعد ما استطاع عن الإشكاليات الفكرية[21] ويتجنب المشاكل السياسية، ولم تتزحزح حماس في تصريحاتها ومواقفها عن الثناء على النظم العربية وتثمين مواقفها وشكرها على ما يصدر عنها من مواقف مهما كانت تافهة أو صدرت بغرض الاستهلاك الإعلامي، وتجنب التعليق على سياساتها العدائية[22].

4. لم تتزحزح حماس عن موقفها بعدم التدخل في شأن أي دولة ولو كان هذا التدخل يؤثر على مصالحها، وأوضح ما يبدو هذا في أنها فضَّلت أن تعاني أشد المعاناة من إغلاق معبر رفح دون أن تطور موقفا ضد النظام المصري الذي كان أهم الفاعلين في الحصار الخانق المفروض على غزة والمستمر منذ وصول حماس إلى الحكم[23].

وقد ظلت هذه السياسة تُثْقِل القرار السياسي لحماس حتى في أوقات الفرص الكبرى مثل الثورة المصرية وفترة الاضطراب والارتباك التي سادت ثلاث سنوات على الأقل، منذ مطلع 2011 إلى مطلع 2014، ونزعم أنه كان بالإمكان إذا تحررت حماس من هذه السياسة المحافظة أن تحقق في هذه السنوات الثلاث مكاسب نوعية في الملف الداخلي والخارجي، بل ونزعم أن لحظة الانقلاب العسكري في مصر كانت تساوي بالنسبة لها معركة وجودية تستدعي أن تتدخل فيها بثقلها. وهي اللحظة التي أنتجت فيما بعد سياسات مصرية في غاية الشراسة تجاه حماس ألزمتها بالتراجع في الطموح والموقف حتى وصل الأمر إلى مصالحة تُسَلِّم بها قطاع غزة للسلطة الفلسطينية وهي المصالحة التي فتحت موضوع "سلاح المقاومة"!

ومن الآثار السلبية لهذه السياسة هو تضخم الروح الوطنية القومية لحماس على حساب الروح الأممية والإسلامية، وهذا مما قد يُعَدُّ في الميزان السياسي المعاصر نوعا من الرشد والنضج، إلا أنه وفق تقييم يعتمد ميزان حركة التحرر الإسلامية يعد نوعا من التراجع والتأثر السلبي بمفردات الواقع الضاغطة وإكراهات الحالة السياسية[24]، فقد تكرر كثيرا أن تمدح حماس نفسها بالاعتدال في مقابل حركات إسلامية أخرى تخوض حروب مقاومة وتحرير، أو يتطور هذا إلى إدانة "العنف والإرهاب" بمقياس الأنظمة الحاكمة لا بمقياس حركات التحرر والمقاومة[25]، وظهرت بعض عناصر تنتمي إلى حماس تبدي انحيازا إلى بشار وإلى علي عبد الله صالح وترى أن الثورات عليهما تحديدا كانت مؤامرة تستهدف القضية الفلسلطينة[26]، كما وترى أن الثورات العربية إنما عادت بالضرر على القضية الفلسطينية في حين أن هذه الثورات هي المحاولة الحقيقية لتحرير فلسطين، والانقلاب عليها هي ردة فعل إقليمية ودولية تضع نصب أعينها حماية إسرائيل وإعادة الوضع إلى ما كان عليه أو أسوأ. وأظهر ما بدا عليه هذا الوجه القومي الوطني على حساب الوجه الإسلامي في نعي شخصيات مثل سمير القنطار[27] أو إزجاء الثناء العلني[28] على شخصيات مثل قاسم سليماني[29] مع صمتها عن نعي الملا محمد عمر أو خلفه الملا أختر منصور أو غيرهما من قيادات نالت الشهادة في بلاد إسلامية محتلة، وعادة ما يفَسَّر هذا –أو: يُبَرَّر- بأنه يعتمد على ما قدمه هؤلاء لخدمة القضية الفلسطينية[30]، وهذا هو جوهر ما نعنيه بأن الهوية الوطنية الفلسطينية تتقدم على الهوية الإسلامية للحركة، ونرى أن هذا من التأثر السلبي بإكراهات الواقع وضغوطه.

كذلك فإن من الآثار السلبية لهذه السياسة أنه فيما يتعلق بالأنظمة العربية فقد ظلت حماس تتلقى الهجوم والضربات دون ردّ، وكان التقدير السياسي لحماس أن الدخول في معركة ولو إعلامية مع الأنظمة العربية يسرِّع من قطار التطبيع مع إسرائيل ويوفر الأجواء لهذه الأنظمة في شن الحملات عليها وعلى القضية الفلسطينية، ورأت أن هذه المعركة هي من مسؤولية الحركات السياسية والإسلامية العربية داخل هذه البلدان، وبالرغم من تحملها الضغط الهائل وضبط النفس إزاء ما يمارس ضدها في إعلام هذه القنوات إلا أن قطار التطبيع يمضي سائرا وتُشَنُّ الحملات الإعلامية الضارية ضد حماس بل والفلسطينيين وقضيتهم عموما لتمهد الطريق للتطبيع. ويرى الباحث أن الحركة لو اعتمدت سياسة الهجوم والفضح لهذه الأنظمة على الأقل فيما قبل موجة الثورات المضادة فإنه كان بالإمكان تحقيق نتائج أفضل ضد الأنظمة في تلك الفترة، وأن استفادة الأنظمة من سياسة حماس تجاهها جعلها تقدم على ما تريد باطمئنان، فهي قد استفادت من سكوت حماس وتثمينها لمواقف الأنظمة بأكثر مما استفادت حماس من هذه السياسة تجاه الأنظمة.

ومن الآثار السلبية لهذه السياسة أن استطاع خطاب تيارات الغلو أن يجد له موقعا في نفوس عدد ليس بالقليل من أبناء غزة بل ومن أبناء حماس نفسها[31]، وصل في بعض الأحيان إلى اعتناق تكفير حماس وقتل من يعينها ردة كما وقع من تنظيم ولاية سيناء الذي استقطب بعض الغزيين وبعض أبناء حماس[32]. والواقع أن حركة المقاومة والتحرر لا بد لها من موازنة شاقة وعسيرة بين خطاب سياسي يدير العلاقة برفاق وخصوم الداخل والخارج وبين خطاب واضح وحاسم ومشبوب بالعاطفة للحفاظ على صفها.

الجانب الثوري من تجربة حماس

والمقصود بالجانب الثوري هو قدرة حماس على مقاومة ما يُفرض عليها من ضغوط تريد تغيير مواقفها المبدئية، أو ضغوط تريد استعمالها كورقة ضغط أو استقطابها كحليف يتبنى المواقف السياسية في ظرف ما، وتُبْدي حماس حتى الآن قدرة متميزة على أن تكون نفسها وألا تسقط في فخ الاستقطابات والمعادلات المتشكلة والمتقلبة في المنطقة العربية الساخنة. ولا يمنع من هذا أن يقع شيء هنا أو هناك مرة أو مرات، فذلك لا يغير من المسار العام.

وأبرز المواقف الثورية لتجربة حماس هو موقفها من الاحتلال الإسرائيلي لكامل فلسطين، وعليه تركزت معظم الضغوط السياسية التي أرادت استخراج اعتراف من حماس بإسرائيل، أو في أقل الأحوال استخراج تصريح واضح بأنها تسعى لتحرير الأراضي المحتلة عام 1967 مما يعني اعترافها بحق إسرائيل في احتلال الأراضي قبل ذلك العام، وقد تمسكت حماس بهذا الموقف طوال هذه السنوات العشر، حتى أنها حين أصدرت وثيقة المبادئ والسياسات العامة (1 مايو 2017م) حرصت على صياغة هذا الموقف بعبارات قاطعة، ووضعت هدف تحرير الأرض المحتلة عام 1967 في قلب مادة تنص على عدم الاعتراف بإسرائيل[33]، وهو موقف غير جديد عمليا بل دفعت إليه سابقا ظروف الأزمة مع فتح عام 2006 ضمن وثيقة الأسرى للوفاق الوطني (مايو 2006) لتجاوز الانقسام[34]، وبشكل عام فإن هذه الوثيقة (وثيقة المبادئ والسياسات العامة: 2017) بقدر ما يمكن اعتبارها نوع تراجع بقدر ما يمكن اعتبارها وثيقة تَمَسُّك، وذلك أن عباراتها عَبَّرَتْ عن المواقف العملية والمبدئية للحركة لكن بصيغ أكثر اقترابا من مصطلحات ومفاهيم السياسة والقانون وابتعادا عن العاطفة والحماسة، والصيغ السياسية في العادة بقدر ما تعبر عن حصافة ومرونة بقدر ما تعبر أيضا عن مأزقٍ اقتضاها وألزم بها.

ومما يترتب على هذا موقف الحركة من "المدنيين الإسرائيليين"، وقد تمسكت الحركة بموقفها القائل بأن هؤلاء محتلين وليس فيهم من يصدق عليه وصف "المدنيين"، فهم فوق كونهم قد احتلوا وسكنوا هذه البلاد بعد طرد أهلها والاستيلاء على أراضيهم وبيوتهم فإن التكوين العسكري لجيش دولة الاحتلال يجعل من سائر مواطنيها مجندي احتياط. على أن الحركة وجناحها العسكري عمدت إلى تجنب استهداف أولئك "المدنيين" عمليا ضمن تطور ونضوج عمليات المقاومة والقدرة على تحديد الأهداف العسكرية، وهي سياسة مفيدة على المستوى السياسي والإعلامي، وهذا الالتزام العملي دون الإعلان عنه كمبدأ أو التزامه كموقف يجعل من هؤلاء "المدنيين" ورقة ضغط.

ومن أبرز المواقف الثورية في تجربة حماس عملية الحسم العسكري في قطاع غزة، والذي كان منعطفا تاريخيا في مسار القضية الفلسطينية، ذلك أنه حجر الأساس في تحويل قطاع غزة إلى قلعة منيعة للمقاومة، وما كان بالإمكان أن يتحقق شيء من الإنجاز العسكري الكبير إذا بقيت أجهزة الأمن الفتحاوية التي تمثل شبكات تجسس إسرائيلية متقدمة فضلا عن مجهودها الضخم في إجهاض العمل المقاوم. ولو لم يكن الحسم العسكري على يد حماس فإن حسما عسكريا كان

سيكون على يد السلطة الفتحاوية لا ريب في ذلك[35]، وساعتئذ سنكون أمام مشهد التصفية الكاملة لحماس في قطاع غزة على نحو ما وقع في مصر بعد الانقلاب العسكري (يوليو 2013م) ضد الإخوان المسلمين، أو على نحو ما وقع في الضفة الغربية ذاتها من استهداف سائر أوجه نشاط الحركة[36].

كذلك من أبرز المواقف الثورية في تجربة حماس هو وقوفها إلى جوار الشعب الثوري في ثورته المشهودة، واضطرار مكتبها السياسي لمغادرة دمشق تبعا لهذا الموقف، وهو ما تأثرت به علاقتها مع الحليف الإيراني، وهذا من أثمن المواقف المشرفة لحركة حماس في وقتٍ لم يكن لِيُغْتَفَر لها فيه الصمت والحياد فضلا عن مساندة النظام السوري، وهذا بالرغم من التبعات المتوقعة لهذا الموقف، وحاولت حماس اختطاط موقف توازن فيه بين علاقاتها بإيران وحزب الله من جهة، وعلى حاضنتها الشعبية الممتدة والمتعاطفة مع الثورة السورية خصوصا تجاه المذابح البشعة، ثم صار موقفها أكثر حرجا مع تعرض المخيمات الفلسطينية في سوريا لمذابح النظام واتخاذ منظمات فلسطينية (كالجبهة الشعبية – القيادة العامة) جانب النظام السوري، ثم ازداد الموقف حرجا بتحول الثورة السورية إلى الكفاح العسكري الذي برزت فيه الفصائل المتعددة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وعملت الآلة الإعلامية الدولية على توصيف المشهد باعتباره حربا أهلية أحد أطرافها الجماعات "الإرهابية" التي تنأى حماس عن أن توصف كمتعاطفة معها أو مرتبطة بها. لقد أدى هذا كله في ظرف تراجع موجة الثورات بالانقلاب العسكري في مصر إلى تراجعات متوازية في مواقف حماس، التي صارت أقرب إلى الصمت –إلا من تنديد بمذبحة هنا أو هناك- ثم بدأت تتالى تصريحات مسؤوليها التي تحاول إعادة ترميم العلاقات بينهم وبين النظام السوري، وقد كانت هذه العودة جزءا من عودة محاور ما قبل الثورات في المنطقة العربية التي تستعيد انقسامها إلى محور اعتدال مقابل محور ممانعة[37].

ومن أهم المواقف الثورية لحماس هو موقفها من إيران، فبالرغم من الضغوط الكثيرة عليها لكي تفصم العلاقة مع إيران إلا أنها لم تفعل، وهذا موقف تُحْمَد عليه أيضا، إذ يجب أن لا ترهن حركة المقاومة نفسها ضمن معادلة إقليمية أو دولية ما تلبث أن تتغير، ولا أن تتخلى عن حليف مهم[38] بضغوط من أعداء في ثياب حلفاء كما هو الحال مع السعودية، لا يؤمن جانبهم فضلا عن أن يؤمن التزامهم بوعودهم، وقد صعدت التوقعات بتغير الموقف السعودي مع تولي الملك سلمان خلفا لعبد الله الذي رهن أي تعاون مع حماس بإعلان موافقتها المسبقة على مبادرته، وهي الموافقة التي

من شأنها إنهاء حماس نفسها، فإذا بسلمان يشتري الكرسي لولده بالسير هرولة في مسار التطبيع الذي يسحق القضية الفلسطينية، ويشن الحملة الإعلامية على الشعب الفلسطيني نفسه. وقد حرصت حماس ألا تنزلق لمستنقع التنازع الطائفي الشيعي السني، بل استطاعت بكفاءة ومهارة أن تُبْقِي خطابها مُعْلِيًا قضية فلسطين فوق هذا النزاع وتقديمها كقضية جامعة.

وقد استفادت حماس من هذا الجانب الثوري من سياستها بقاءها في خط المقاومة وصمودها الذي خالفت به تقديرات "الخبراء والمحللين" السياسيين[39]، وحافظت ألا تتحول مع السلطة إلى نسخة أخرى من تجربة فتح تحت إغراء السلطة أو تحت ضغط الحصار الخانق والحروب المتكررة، وذلك في ظرف إقليمي أسوأ وأصعب من الظرف الذي جرى فيه التحول الفتحاوي، إذ انفردت أمريكا بالهيمنة العالمية وانفردت إسرائيل بالهيمنة الإقليمية وذهبت النظم العربية فرادى وجماعات خطوات واسعة في مسار التطبيع والتوظيف للمصلحة الصهيونية.

كذلك استفادت حماس من بقاء قرارها غير مرتهن لمحاور إقليمية، وتسليم الحلفاء بأنهم لا يتعاملون مع ورقة يتحكمون فيها ويصنعون سياستها.

وأهم هذه المكاسب قاطبة هي تحول غزة الصغيرة المتكدسة إلى قلعة منيعة للمقاومة، تعجز إسرائيل عن اجتياحها عبر أربعة حروب كلٌّ منها أكبر وأخطر من سابقتها، وهي التي استطاعت اجتياح أربعة دول عربية ذات جيوش نظامية في ساعات وأيام عبر تاريخها منذ نشأت، وبهذا تكون غزة قد حققت في مواجهة إسرائيل ما لم يتحقق في تاريخ المقاومة العربية الصهيونية منذ بدايته، ولم يكن هذا ليتم لولا انفراد حركات المقاومة بالحكم في غزة وبناء أجهزتها وشبكاتها الأمنية وأجنحتها العسكرية وفق العقيدة القتالية الإسلامية.

الخاتمة

تقر أدبيات حماس منذ ميثاقها الأول (1988م) وحتى لحظة كتابة هذه السطور أن حل القضية الفلسطينية هو مسؤولية لا ينفرد الفلسطينيون بحملها وإنما تقع أيضا على عاتق الأمة العربية والإسلامية[40]، إلا أن الوسيلة التي اعتمدتها حماس هي أن تحاول حث الأنظمة الحاكمة على القيام طوعا بالمساهمة في هذه المسؤولية، طبقا لموقفها المبدئي بعدم توسيع نطاق المواجهة مع

العدو الصهيوني خارج الأرض المحتلة، والحفاظ على علاقات ساكنة –في أدنى الأحوال- مع كافة الأنظمة. وربما كانت هذه السياسة حكيمة ومناسبة فيما قبل زمن الثورات العربية أو قبل زمن إعلان الحرب العالمية على الإرهاب (2001م) أو حتى قبل زمن الانفراد الأمريكي بالعالم وعصر القطب الواحد. ففيما قبل هذه المراحل كانت الدول القومية تتمتع بقدر معقول من السيادة ومساحة الحركة والمناورة والدخول في أحلاف بين قطبين عالميين، أما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي فقد تساقطت تباعا قدرة الدول القومية العربية على المناورة وتضاءلت مساحة حركتها المستقلة مما افتتح معه عصرا جديدا من التعاون والتنسيق الأمني[41] جعل العناصر المحسوبة على المقاومة تعتقل وتخضع للتعذيب منذ مطلع التسعينات في دولة كالإمارات، ثم تتابع المجهودات حتى يعقد مؤتمر لمكافحة الإرهاب في شرم الشيخ (1996م) والهدف منه استئصال حماس وتثبيت أركان السلطة الفلسطينية الموالية للاحتلال، ثم تأتي أحداث سبتمبر والحرب العالمية على "الإرهاب" بعاصفة ضخمة من المطاردة الأمنية وتجفيف المنابع المالية والفكرية والتصفيات الجسدية لقيادات المقاومة.

كان حريا بهذا المسار أن يدفع حركة حماس إلى التخلي عن سياستها هذه، مهما كان هذا التخلي حذرا وتدريجيا وسريا، لتتمسك بفرصة الثورات العربية فتعمل ما في وسعها لدعم الساحتين المصرية والسورية على وجه التحديد، والمصرية على وجه أخص، وكان يجب ألا يُكتفى بالتعويل على جهود الإخوان فحسب لا سيما بعد أن أظهروا ضعفا وترددا غريبا في السيطرة على مقاليد الأمور، ثم كان يجب ألا يُستسلم تجاه وقوع الانقلاب العسكري في مصر باعتباره شأنا مصريا.

وتعد المطالبة بمراجعة هذه السياسة هي الخلاصة الأساسية لهذه الورقة، إذ مهما أبدى الغزيون من البسالة والصمود فإنهم في هذا الضيق الجغرافي وتحت هذه الضغوط لا يملكون مفاتيح تغيير المشهد الذي يمكن له أن يتغير وينفتح على خيارات أخرى بتحول الأوضاع في القاهرة، مما يفرض على حركة المقاومة المعنية أن تفكر في هذا حتى لو لم تكن متضررة بشكل مباشر من سياسات النظام المصري، فكيف إذا كان الضرر الواقع عليها مباشرا وفادحا بل هو من أهم أولويات ومهمات ووظائف هذا النظام؟!

وبعد هذه الخلاصة الأساسية يمكن تقديم بعض خلاصتين أخريين:

1. ضرورة توسيع المشاركة الشعبية في تحمل أعباء الإدارة والاستفادة من قوى الروابط الاجتماعية: العائلية والجغرافية والتشجيع المستمر للمبادرات الفردية والأفكار المبدعة، فمن شأن هذا كله أن يخفف من أعباء الإدارة عن كاهل الحركة، وهذا التوجه يتأسس على إدراك أن الحداثة ونمط الدولة المركزية ليس مناسبا في عالمنا العربي والإسلامي، على الأقل هو غير مناسب تحت سلطة احتلال أجنبي متفوق وفي وضع مختنق، ومن ثم فينبغي أن تتوجه الجهود الفكرية والعلمية في الجامعة والمحاضن التعليمية والتربوية نحو نشر وتوثيق النمط المجتمعي التكافلي الذي يطلق طاقة المجتمع ويخفف الأحمال عن السلطة.

2. ينبغي لحماس ألا تتمسك بشرعيات مهترئة كما هو الحال في منظمة التحرير أو حتى شرعية السلطة الفلسطينية، فهذا ثقل إضافي يقيدها ويثقلها، بل ينبغي عليها هدم هذه الشرعيات ما استطاعت، مع التأسيس لشرعية شعبية أخرى أو لشرعية تنطلق من قيم الكفاح والجهاد، ويمكن أن تستلهم في هذا السبيل ما فعلته حركة فتح نفسها ضد منظمة التحرير الفلسطينية

وفي الختام نقول: هنيئا لحماس بهذه الأعوام الثلاثين، ونسأل الله تعالى أن تكون الثلاثون عاما القادمة هي أعوام العز والتمكين والنصر الكبير.

نشر في المعهد المصري للدراسات السياسية والاستراتيجية

---

[1] من المفارقات هنا أن كثيرا من الباحثين والمؤرخين الأجانب يجنحون إلى التفسير الديني بينما أكثر الباحثين والمؤرخين العرب يجنحون إلى التفسير العلماني، وقد عزا المؤرخ الأمريكي ديفيد فروماكين إنشاء إسرائيل إلى الميول الصهيونية لدى لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية، وذلك في واحدة من أهم الدراسات المكتوبة عن هذه الفترة، وقد أفرد كثيرون هذه الفكرة بالتأليف مثل جاريس هالسل في كتابيها "النبوءة والسياسة: الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية"، ثم "يد الله: لماذا تضحي الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل". انظر: ديفيد فروماكين، سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط 1914 - 1922، ترجمة: أسعد كامل إلياس، ط1 (لندن – قبرص: رياض الريس للنشر، 1992م)، ص295 وما بعدها.

[2] يعتمد تنظير د. عبد الوهاب المسيري في شأن الحضارة الغربية أنها مادية علمانية، وينعكس هذا على تفسيره لمسألة إسرائيل بأنها "دولة وظيفية" صنعها الغرب تخلصا من المشكلة اليهودية داخلها، وإنشابا لمشكلة عويصة للعالم الإسلامي، فهي قاعدة عسكرية وحضارية متقدمة خارج أوروبا. انظر مثلا: عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط1 (القاهرة: دار الشروق، 1999م)، 7/347، 8/39.

[3] يرى د. جمال حمدان أن الصراع العالمي ومصير الإمبريالية متوقف على مصير العالم الثالث، وأن مصير العالم الثالث متوقف على مصير العالم العربي، وأن مصير العالم العربي متوقف على مصير الصراع مع إسرائيل. جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرير، ط1 (القاهرة: دار الشروق، 1983م)، ص351.

[4] مهما اختلفت أساليب الوصف في الأزمة الإسلامية المعاصرة، فلعل أخصر ما يعبر عنها ما قاله شادي حميد أحد أبرز الوجوه الغربية في مجال بحث الحركات الإسلامية، الأزمة القائمة في العالم الإسلامي بقوله: "المشروع الأساسي للحركات الإسلامية السائدة، إن أمكن تلخيصه في جملة واحدة، هو السعي للتوفيق بين الشريعة الإسلامية والدولة القومية الحديثة. مهما تعددت الطرق، وفي أغلب الأحيان حصدت "الدولة" النتائج الأفضل في تلك العلاقة. ذلك أن نمط بناء الدولة الحديثة والبيئة الدولية المتمركزة عليه والداعمة له، لهما أثر علماني متأصل في المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وهو ما يضغط على الحركات الإسلامية لتحد من طموحاتها الدينية الدافعة إلى حد لم يكن ليخطر بالبال فيما قبل الدولة الحديثة، مما يقود إلى درجة خطيرة من التوتر بين المجتمعات المسلمة التي لا تزال إلى حد كبير متدينة ومحافظة"، وهو ما اختصره ألبرت حوراني في جملة واحدة بقوله: "أوجد العرب في القرن السابع عالما جديدا اندمجت فيه شعوب أخرى. وفي القرن التاسع عشر والعشرين أصبح العرب أنفسهم مندمجين في عالم جديد أوجدته أوروبا الغربية".

انظر: ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية، ترجمة: أسعد صقر، ط1 (دمشق: دار طلاس، 1997م)، ص284؛ Shadi Hamid and Rashid Dar, Islamism, Salafism, and jihadism: A primer, (Brookings, July 15, 2016)

[5] بعد مسح إحصائي في مصادر السياسة الشرعية، وفي الكتابات المعاصرة عن الفكر السياسي الإسلامي، توصل د. نصر عارف إلى أن "جميع من كتب عن الفكر السياسي الإسلامي أو التراث السياسي الإسلامي أو إحدى ظواهره لم يطلع على أكثر من 6% من المصادر المباشرة لهذا التراث". د. نصر محمد عارف، في مصادر التراث السياسي الإسلامي: دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل، ط1 (فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1994م)، ص39.

[6] ينظر في هذا: إبراهيم السكران، سلطة الثقافة الغالبة، ط1 (الرياض: دار الحضارة، 2014م)، ص24 وما بعدها.

[7] كانت الفكرة السائدة في ذلك الوقت، وكان في عهد جورج بوش الابن، أن انتخابات ديمقراطية في فلسطين من شأنها أن تُمَكِّن حركة فتح وتمنح الشرعية الكاملة لمحمود عباس، الذي خلف عرفات ولم تكن له مثل زعامته ولا تاريخه التي مثلت شرعية عرفات، كما أنه أكثر استعدادا للتنازل، مما يؤدي إلى تصفية القضية الفلسطينية بيد حكومة شرعية منتخبة. هذا الضغط هو ما دفع حماس لخوض الانتخابات رغبة أن تكون معارضة قوية يمكن لها عرقلة هذا المسار، ثم فوجئ الجميع بأنها اكتسحت الانتخابات وفازت بفارق كبير.

[8] يلاحظ اختفاء الرؤية السياسية من ميثاق حماس (1988م)، والتعامل مع الأوضاع من منظور حركة تحرر ومقاومة لا من منظور حزب سياسي معارض، وهو أمر متفهم.

[9] كونداليزا رايس، أسمى مراتب الشرف: ذكريات من سني حياتي في واشنطن، ترجمة: وليد شحادة، (بيروت: دار الكتاب العربي، مايو 2012م)، ص476، 477.

[10] ميثاق حماس (1988)، الديباجة والمواد: 2، 5، 7، 8. وإن كانت في الوثيقة الأخيرة (2017) لم تذكر شيئا عن الإخوان لا ارتباطا ولا انفكاكا، وهو تطور طبيعي في ظل التغيرات التي شهدتها الأعوام الأخيرة. وانظر: يوسف رزقة، الرؤية السياسية لحماس، ضمن: محسن صالح (محرر)، حركة المقاومة الإسلامية حماس: دراسات في الفكر والتجربة، ط2 (بيروت: مركز الزيتونة، 2015م).

[11] لكثير من الأسباب التي ليس هنا محل بيانها كان مجمل إنتاج هذه المدرسة ورموزها كالقرضاوي والغزالي وتوفيق الشاوي وضياء الدين الريس وغيرهم ينحو إلى تعديل التفاصيل كالقوانين والمهمات دون التطرق إلى باب الفلسفة والنظرية والبدائل الكلية، بل وخرج من هذه المدرسة اتجاهات تقترب كثيرا من العلمنة والحداثة الغربية وأحيانا إلى حد المطابقة أو التبرير الشرعي للحداثة كما عند الترابي والغنوشي والعلواني والعثماني والعوا وجاسر عودة غيرهم.

[12] سعت حماس بعد فوزها في الانتخابات (2006م) لتشكيل حكومة ائتلافية من الفصائل، إلا أن الفصائل امتنعت، فاضطرت لتشكيل الحكومة منفردة برئاسة إسماعيل هنية (19 مارس 2006م)، ثم اشتعل صراع الصلاحيات بين وزراء حماس ونوابها من جهة وبين رئيس السلطة وموظفيها (الفتحاويين) من جهة، وفرضت إسرائيل ومصر حصارا على غزة، واعتقلت إسرائيل نواب حماس لتعيد أغلبية المجلس التشريعي لحركة فتح، واستغلت فتح هذا بتمرير قوانين وإجراءات تفشل حماس وتجعل فوزها الانتخابي بلا قيمة، بالإضافة إلى تنظيم الاعتصامات والإضرابات ضد الحكومة، وابتدأ الانفلات الأمني الذي وصل إلى اغتيالات ومحاولات اغتيال استهدفت

رئيس الحكومة والوزراء والقيادات، ولم تفلح اجتماعات ثنائية ولا اجتماعات في القاهرة ودمشق، ثم انبثق اتفاق مكة عن تشكيل حكومة وحدة وطنية (فبراير 2007م) لم تتمكن من تغيير الأوضاع، ومع استمرار الانفلات الأمني حتى اضطر الجهاز العسكري لحماس من تنفيذ عملية الحسم في غزة، وهي التي قابلتها فتح في الضفة المحتلة بسلوك مشابه، وأعلن عباس إقالة هنية وتعيين سلام فياض رئيسا للحكومة، فصار الانقسام واقعا بين الضفة وغزة، وتعددت محاولات المصالحة في 2009 ثم 2012 ثم 2017 دون أن يغير هذا من الواقع العملي شيئا ذا بال. انظر عرضا مميزا لفصول هذه التطورات عند: أحمد سعيد نوفل ومحسن صالح، موقف حماس من منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها، ضمن: محسن صالح (محرر)، حركة المقاومة الإسلامية حماس، مرجع سابق، ص144 وما بعدها.

[13] تصريح للمتحدث باسم حماس صلاح البردويل، بتاريخ 26 مارس 2006.

[14] حرصت حماس إبان الأزمات مع سلطة فتح، قبل الحسم العسكري في غزة، على وصف الاعتداءات عليها بأنها من فعل مجموعات "مسلحة محسوبة على حركة فتح" أو "مأجورة تحسب نفسها على حركة فتح" أو مجموعات متشكلة "خارج حركة فتح وخارج الأجهزة الأمنية"، وأن خلفها "بعض القيادات المتورطة في العلاقات المشبوهة مع جهات صهيونية ودولية" من "أصحاب المصالح والأجندات الخاصة"، وأن هؤلاء يتسببون "بالضرر البالغ لحركة فتح وسمعتها". وأطلقت عليهم أحيانا "التيار الانقلابي" أو "التيار الخياني" أو "تيار الفتنة". وتكرر في الخطاب السياسي لحماس توجيه النداء إلى "عقلاء حركة فتح".

انظر مثلا: بيان حماس بتاريخ 13 ديسمبر 2006م؛ بيان حماس بتاريخ 16 مايو 2007؛ نص المؤتمر الصحفي لحركة حماس في غزة بتاريخ 22 يونيو 2007م (بعد الحسم العسكري لشرح الموقف).

[15] انظر مثلا: نص استقالة وزير الداخلية هاني القواسمي من حكومة إسماعيل هنية، بتاريخ 17 إبريل 2007؛ نص المؤتمر الصحفي لحركة حماس في غزة بتاريخ 22 يونيو 2007م.

[16] منذ البداية الأولى اتخذت حماس موقفها الرافض لمنظمة التحرير الفلسطينية لتبنيها الفكرة العلمانية ومع هذا فقد وصفت العلاقة مع المنظمة بأنها علاقة الابن بأبيه والأخ بأخيه وأنها تنتظر منها أن تنبذ العلمانية لتعتنق الفكرة الإسلامية (ميثاق 1988: مادة 27)، ثم وصلت إلى وثيقة المبادئ العامة الأخيرة إلى وصف المنظمة بأنها "إطار وطني يجب المحافظة عليه مع ضرورة العمل على تطويرها وإعادة بنائها على أسس ديمقراطية (وثيقة 2017: مادة 29). وبطبيعة الحال لم يكن هذا الانتقال فجائيا بل شهد عددا من مراحل الاقتراب الحمساوي من المنظمة، لكن الذي نقصده هنا أن فكرة مواجهة المنظمة أو هدم شرعيتها وإنشاء بديل عنها لم يكن ضمن خطة حماس منذ وصلت إلى الحكومة، بل ربما نقول منذ تأسيسها إلا في لحظة استثنائية عند مطلع التسعينات في ظرف أوسلو.

انظر: إبراهيم أبو غوشة، المئذنة الحمراء: سيرة ذاتية، ط2 (بيروت: مركز الزيتونة، 2015)، ص165 وما بعدها؛ البرنامج الانتخابي لكتلة التغيير والإصلاح 2006: بند 1/12، 5/18، 19؛ صقر أبو فخر، حماس وفتح ومنظمة التحرير: شقاء الأخوة، ضمن: محسن صالح (محرر)، قراءات نقدية في تجربة حماس وحكومتها 2006 – 2007، ط1 (بيروت: مركز الزيتونة، 2007م)، ص69 وما بعدها؛ أحمد سعيد نوفل ومحسن صالح، موقف حماس من منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها، ضمن: محسن صالح (محرر)، حركة المقاومة الإسلامية حماس، مرجع سابق، ص131 وما بعدها.

[17] أحصت حماس بالأسماء والوقائع 76 شهيدا من أعضائها والمحسوبين عليها بنيران الأجهزة الأمنية الفتحاوية فيما بين مطلع 2006 وإلى منتصف 2007. وأحصت 462 اعتداءا في خلال الأشهر الأربعة التي تلت توقيع اتفاق مكة.

انظر: المكتب الإعلامي حركة المقاومة الإسلامية "حماس"، الكتاب الأبيض: عملية الحسم في قطاع غزة اضطرار لا اختيار، ط1 (غزة: نسخة إلكترونية، نوفمبر 2007م)، ص179 وما بعدها.

[18] لقاء محمود عباس مع قناة CBC المصرية بتاريخ 2 أكتوبر 2017، وفيه قال: لن يكون في غزة سلاح غير شرعي ولن يقبل باستنساخ تجربة حزب الله؛ تصريحات مدير عام الشرطة الفلسطينية حازم عطا الله لصحافيين أجانب برام الله بتاريخ 8 نوفمبر 2017، وفيه كرر كلام عباس؛ المؤتمر الصحفي لعضو المكتب السياسي لحماس خليل الحية، غزة بتاريخ 27 نوفمبر 2017 وفيه التأكيد على أن سلاح المقاومة خط أحمر وأن ما حدث في الأيام السابقة لا يبشر بخير.

[19] يحسب لحماس هنا، ويمكن أن يعد في الجانب الثوري من سياستها، إنشاء لجان الصلح المحلية بعد سيطرتها على قطاع غزة لحل النزاعات التي تقضي وقتا طويلا وتستلزم إجراءات معقدة قانونية، وقد خففت هذه اللجان من الأعباء الواقعة على عاتق الشرطة

والقضاء. انظر عن التجربة: أسماء صرصور، تقاض يسبقه تراض: لجان الإصلاح تعمل وفق شريعة الله لرأب الصدع، فلسطين أون لاين بتاريخ 12 سبتمبر 2011م.

[20] البرنامج الانتخابي لكتلة التغيير والإصلاح 2006: 5/ 15، 24، 7/16، 8/5، 7، 10/ 4، 9، 10، 13، 12/3؛ وثيقة المبادئ والسياسات العامة 2017: بند 30.

[21] انظر مثالا عن تعامل حماس مع إشكالية مصطلحي الديمقراطية والشورى عند: يوسف رزقة، مرجع سابق، ص79 وما بعدها.

[22] مما لا أنساه هنا أن خالد مشعل في مؤتمر صحفي عقده بالدوحة أثناء أو بُعيْد حرب 2014 وقد حاصرته أسئلة الصحافيين تريد انتزاع تعليق منه ضد مصر السعودية والإمارات وقد كانت مواقفهم في هذه الحرب غير مسبوقة العدائية تجاه حماس، فالتزم ألا يعلق واستشهد بقول المتنبي:

وهَبْني قلتُ هذا الصبح ليلٌ .. أيغشى العالمين عن الضياء؟

[23] للمزيد في علاقة حماس بالدول العربية، انظر: عدنان أبو عامر، علاقات حركة حماس مع العالم العربي، ضمن: محسن صالح، حركة المقاومة الإسلامية حماس، مرجع سابق، ص287 وما بعدها؛ .

[24] يبدو الفارق واضحا كلما اتسع الزمن، في ميثاق حماس (1988م) عرَّفَتْ الحركة نفسها بالهوية والانتماء الإسلامي في 11 مادة ثم تناولت مسألة الوطن والوطنية في المادة 12 بصياغة إسلامية واضحة، أما في وثيقة (2017م) فقد كانت المادة الأولى هي تعريف الحركة لنفسها بالقول "حركة تحرّر ومقاومة وطنية فلسطينية إسلامية". ويمكن القول باختصار بأن لغة الهوية الإسلامية غالبة على ميثاق (1988م) بينما لغة الهوية الوطنية غالبة على وثيقة (2017م). ونلمح التدرج المائل إلى تغليب الوطنية في محطات مختلفة، كالبرنامج الانتخابي لكتلة التغيير والإصلاح (2006).

[25] تصريح صحفي للمتحدث باسم حماس فوزي برهوم بتاريخ 16 أكتوبر 2017م.

[26] حوارات خاصة للباحث جرت في اسطنبول، عامي 2017، 2018م.

[27] تصريح صحفي للمتحدث باسم حماس سامي أبو زهري بتاريخ 20 ديسمبر 2015م.

[28] ونؤكد في هذا المقام على كلمة "العلني"، إذ الموقف المعلن إن كان نابعا من اختيار حر فهو موقف من سائر الأطراف المعنية بهذا الإعلان، وإن كان ناتجا عن اضطرار فهو يعني تقديم من كان الإعلان عن الموقف في مصلحته على غير من المعنيين. وفي كلا الحالين فإن الحركة تمتدح من يثير امتداحُهم سخط أهلَ السنة وخصوصا في سوريا.

[29] فيديو: تصريح محمود السنوار، بث على قناة الميادين المقربة من النظام السوري بتاريخ 26 ديسمبر 2017م.

[30] مع أن هذا التفسير ليس مضطردا وثابتا، فقد قدمت حماس العزاء فيمن ليس لهم خدمة معروفة لفلسطين مثل جلال طالباني ووالدة قاسم سليماني والطيار الأدرني معاذ الكساسبة ووزير الصحة التونسي سليم شاكر وغيرهم، فالأصح أن هذه التعازي هي من مقتضيات المجاملات السياسية، وهو ما يدعم ما نقوله من أن الهوية الوطنية تضخمت على حساب الهوية الإسلامية.

[31] انظر: إصدار وزارة الداخلية بحكومة غزة للكشف عن تفاصيل محاولتي اغتيال توفيق نعيم ورامي الحمد لله، بتاريخ 28 إبريل 2018م؛ أحمد سالم، جهاديو غزة وتقويض العلاقات المصرية الحمساوية، مركز رفيق الحريري للشرق الأوسط، بتاريخ 22 سبتمبر 2017.

[32] انظر: إصدار "ملة إبراهيم" الصادر عن ولاية سيناء، بتاريخ 4 يناير 2018م، وفيه ينفذ عنصر سابق من حماس حكم "القتل ردة" على من سيناوي اتُّهِمَ من قبل التنظيم بمساعدة حماس.

[33] انظر المادة 20 من الوثيقة.

[34] تنص المادة الأولى من هذه الوثيقة على "إقامة دولته المستقلة وعاصمتها مدينة القدس الشريف على جميع الأراضي المحتلة عام 1967".

[35] جاء في مؤتمر حماس الصحفي بعيد الحسم العسكري (22 يونيو 2007م)، وفي غيره من التصريحات، أن لديهم معلومات موثقة حول عزم أجهزة السلطة الدخول في مواجهة عسكرية لتصفية حماس عقيب انتهاء امتحانات الثانوية العامة. على أنه ولو لم ترد هذه المعلومات فإن طبائع الأمور في مثل هذه المواقف لا يمكن أن تستمر إلا بمواجهة من هذا النوع.

[36] انظر في سياسة السلطة في الضفة: المكتب الإعلامي حركة المقاومة الإسلامية "حماس"، الكتاب الأسود: كشف للحقائق ورصد بالوثائق لممارسات سلطة "دايتون" وانتهاكات أجهزتها الأمنية في الضفة الغربية من 14/6/2007 إلى 15/6/2008، ط1 (غزة، نسخة إلكترونية، 2008م)؛ محسن صالح (محرر)، صراع الإرادات: السلوك الأمني لفتح وحماس والأطراف المعنية 2006 – 2007، ط1 (بيروت: مركز الزيتونة، 2008)؛ إسراء لافي، سياسات محاربة المقاومة: حماس الضفة نموذجا، المعهد المصري للدراسات، بتاريخ 16 مارس 2018م.

[37] انظر قائمة مواقف حماس من الثورة السورية بين مارس 2011 ويونيو 2014 في: رصد لمركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية ونستطيع القول بشيء من التجوز بأنه بعد هذا التاريخ بدأت مرحلة التراجع في موقف حماس تجاه ما يحدث في سوريا.

[38] أريد هنا أن أدفع ما قد يُتَوهَّم من التناقض بين اعتباري حفاظ حماس على علاقتها بإيران سلوكا ثوريا تحمد عليه، وبين نقدي عليها النعي العلني لسمير القنطار أو الثناء العلني على قاسم سليماني، ذلك أن العلاقة بكل حليف أمر في منتهى الضرورة لحركة تحرر، وتزيد الضرورة في حال كونها مستضعفة ومنبوذة من نظام إقليمي يفترض أن يمثل حاضنتها الطبيعية، وما من حركة في تاريخنا الحديث والمعاصر إلا وتحالفت مع أعداء أعدائها اضطرارا أو اختيارا، وأما الموقف من شخصيات بعينها في أزمان ومواقف بعينها فهنا يحتاج الأمر إلى موازنة أخرى، فمقتل سمير القنطار في سوريا وهو إلى جانب نظام بشار الأسد الذي يخوض في المذابح اليومية ضد الشعب السوري أو مدح قاسم سليماني المشرف الأعلى على هذه المذابح وفي زمن المذابح نفسها، كل هذا يخصم من الحاضنة السنية ومن رصيد الحركة الإسلامية.

[39] انظر مثلا: هيكل.. الفلسطينيون وآفاق التسوية مع إسرائيل، برنامج مع هيكل، قناة الجزيرة، بتاريخ 2 يوليو 2007م.

[40] ميثاق 1988: بند 28؛ وثيقة 2017: المادة 35.

[41] وهذا لو سلَّمنا بالأساس بأن هذه الأنظمة تفعل هذا من وضع الضعف لا أنها تملك الرغبة ولديها العقيدة السياسية المضادة لحماس ومشروعها. وهو موضع شك ونظر كبير!

لماذا يخسر العرب الحروب؟
ورقة بحثية لنورفل بي دي آتكن

ورقة بحثية تعود لعام 1 ديسمبر 1999

لكاتبها **Norvell B. De Atkine**

نورفيل دي أتكين: عقيد متقاعد في الجيش الامريكي، مكث ثماني سنوات في لبنان، والأردن، ومصر، وحصل على الدراسات العليا في الدراسات العربية من الجامعة الأميركية في بيروت، ويلقي حاليًا محاضرات لأفراد الجيش الأمريكي الذين يخدمون في مناطق الشرق الأوسط.

الآراء التي يعرب عنها هنا هي آراؤه الخاصة.



لماذا يخسر العرب الحروب؟

جاء الأداء العسكري العربي متوسطًا على كلا الجانبين في حرب الكويت عام ١٩٩٠. فضلا عن ضعف الأداء العربي في أغلب المواجهات العسكرية مع اسرائيل. لِمَا هذا التاريخ المتواضع؟

ورقة بحثية

بشكل عام، لم تظهر جيوش البلاد الناطقة باللغة العربية كفاءة في العصر الحديث. فلم تؤدي القوات النظامية المصرية بشكل جيد أمام الجنود غير النظاميين اليمنيين في ستينيات القرن العشرين.(1) ولم يتمكن السوريون من فرض سيطرتهم في لبنان خلال منتصف السبعينيات سوى باستخدام الأسلحة والأعداد الساحقة.(2) وافتقد العراقيون الكفاءة ضد الجيش الإيراني الذي كانت تمزقه الاضطرابات الثورية في الثمانينيات،

كما لم يتمكنوا من كسب الحرب التي استمرت لثلاثة عقود ضد الأكراد.(3) وجاء الأداء العسكري العربي متوسطًا على كلا الجانبين في حرب الكويت عام 1990.(4) فضلا عن ضعف الآداء العربي في أغلب المواجهات العسكرية مع اسرائيل. لِمَا هذا التاريخ المتواضع؟ هناك العديد من العوامل الاقتصادية والفكرية والتقنية، ولكن لعل الأهم هي السمات الثقافية والسمات المتعلقة بعوامل مجتمعية معينة، وهي التي تمنع العرب من إفراز قوة عسكرية قوية.

من بديهيات الحياة العسكرية أن الجيوش تحارب مثلما تدربت، لذا فسأستخدم خبرتي في السنوات العديدة التي قضيتها في مراقبة تدريبات العرب عن كثب لاستخلاص استنتاجات حول طرقهم في القتال. الانطباعات التالية مستمدة من تجربة شخصية مع المؤسسات العسكرية العربية خلال عملي كملحق عسكري للولايات المتحدة وضابط للمساعدات الأمنية، وضابط مراقب مع قوة كشافة ساحل عمان التي كان يقودها ضباط بريطانيون (وهي قوات الأمن في الإمارات قبل قيام دولة الإمارات العربية المتحدة) ، وكذلك دراسة عن منطقة الشرق الأوسط امتدت لنحو ثلاثين سنة.

بداية كاذبة

ليس لاستخدام الثقافة في التقييمات الاستراتيجية تاريخ جيد، فهو غالبًا ما ينبع من مخزون من الجهل، والتفكير الرغبوي، والأساطير. لذا، فقد قيّم الجيش الأميركي الشخصية اليابانية في الثلاثينيات بوصفها تفتقر إلى الإبتكار، ليصل إلى استنتاج لا مبرر له أن البلاد ستكون دائما متأخرة تكنولوجيا.(5) ورفض هتلر الولايات المتحدة باعتبارها مجتمع هجين(6) وبالتالي استخف بتأثير دخول أميركا الحرب. كما تشير تلك الأمثلة، عندما تستخدم الثقافة في حساب نقاط القوة والضعف النسبية للقوات المقابلة، فإنها تميل إلى أن تؤدي إلى تشوهات بالغة، وخصوصًا عندما تشرح لماذا تدخل دول إلى القتال دون استعداد بينما تمتلئ بالثقة. الإغراء هو التفكير في السمات الثقافية للدولة العدو كأنها تنفي تفوقها في الأعداد أو الأسلحة. أو العكس: التفكير في عدو محتمل من خلال منظور المعايير الثقافية الخاصة بالدولة نفسها. افترض الاستراتيجيين الأمريكيين أن عتبة ألم الفيتناميين الشماليين اقتربت وأن القصف الجوي في الشمال سيدفعهم إلى الركوع.(7) وكان يُعْتَقد أن ثلاثة أيام من الهجمات الجوية هو كل ما يستطيع الصرب احتماله، ولكنهم في الواقع احتاجوا 78 يومًا.

لذا فمن الخطورة الارتكان إلى افتراضات سهلة حول قدرات القتال على أساس الأداء في الماضي، لأن المجتمعات تتطور وكذلك الحال بالنسبة للثقافة الفرعية العسكرية. قاد الأداء الفرنسي السيئ في الحرب الفرنسية البروسية عام 1870 القيادة العليا الألمانية إلى تقييم مفرط في التفاؤل قبل الحرب العالمية الأولى.(8) وأدت مثابرة وشجاعة الجنود الفرنسيين في الحرب العالمية الأولى بالجميع بدءًا من ونستون تشرشل إلى القيادة العليا الألمانية إلى المبالغة بشكل كبير في تقدير قدرات الجيش الفرنسي القتالية.(9) كما استخف الجنرالات الإسرائيليون بالجيش المصري عام 1973 على أساس أداء مصر البائس في حرب1967 .(10)

الثقافة يصعب حصرها. فهي ليست مرادفًا لسلالة الفرد أو هويته العرقية. يسخر تاريخ الحروب من محاولات تعيين سمات ثقافية جامدة للأفراد، كما يوضح التاريخ العسكري للدولة العثمانية أو الإمبراطورية الرومانية. في كلتا الحالتين كان التدريب والانضباط وروح العمل الجماعي والهمة هم الذين صنعوا الفارق، وليست سمات كل جندي على حدة.(11) على سبيل المثال، جحافل الجنود الرومانيين الذين يتسمون بالكفاءة وبدرجة عالية من الانضباط، تم تجنيدهم من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وفرقة الإنكشارية العثمانية المميزة (جنود عبيد) كانوا مسيحيين تم تجنيدهم قسْرا وهم فتيان من البلقان.

دور الثقافة

على الرغم من هذه المشاكل، يجب أن تؤخذ الثقافة بعين الاعتبار. وفي الحقيقة، يمكن للوعي بالاخطاء السابقة أن تتيح تقييم دور العوامل الثقافية في الحرب. يقول المؤرخ الحربي البارز جون كيجان أن الثقافة هي المحدد الرئيسي لطبيعة الحرب. وعلى النقيض من الطريقة المعتادة للحروب الأوروبية التي أسماها "وجهًا لوجه"، يصور كيجان الجيوش العربية في وقت مبكر من العصر الإسلامي باعتبارهم سادة في المراوغة، والمماطلة، والتملص من العدو.(12) وتؤدي دراسة الحروب العربية في هذا القرن إلى استنتاج مفاده أن العرب لا يزالون أكثر نجاحًا في حروب المتمردين أو الحروب السياسية(13)، وهو ما وصفه تي إي لورنس بـ"كسب الحروب دون معارك.(14)" حتى أن عبور المصريين لقناة السويس عام 1973، الذي أشاد به الكثيرون يحمل في جوهره خطة خداع بارعة. قد تكون تلك الصفات السائدة ناجمة عن ثقافة تولد الدقة، والمراوغة، والمداهنة في العلاقات الشخصية.(15)

وفي هذا الاتجاه، ينهي كينيث بولاك دراسته المستفيضة حول الكفاءة العسكرية العربية بقوله أن "أنماط معينة من السلوك تعززها الثقافة العربية السائدة هي أهم العوامل المساهمة في الكفاءة العسكرية المحدودة للجيوش العربية وقواتها الجوية من 1945 إلى 1991.(16)" شملت هذه الصفات المركزية المفرطة، وعدم تشجيع المبادرات، والافتقار إلى المرونة، والتلاعب بالمعلومات، وعدم تشجيع النزعات القيدية على مستوى الضباط الصغار.

لا يقلل وابل الانتقادات التي تلقتها فكرة صموئيل هنتنجتون عن "صدام الحضارات"(17) بأي حال من الأحوال من النقطة الحيوية التي يناقشها، فتجمع الشعوب من خلال الدين والثقافة بدلا من الانقسامات السياسية أو الاقتصادية يسيء للأكاديميين الذين يعتقدون في عالم تحدده الطبقة، والعرق، والجنس، ولكن تلك هي الحقيقة الواقعة، وهي الحقيقية التي لم تقدر على تغييرها الاتصالات الحديثة.

ولكن كيف يمكن للمرء دمج دراسة الثقافة في التدريب العسكري؟ ليس لذلك أي دور في الوقت الحالي. يشير بول إم بلباتوسكي -وهو باحث وعضو سابق في قوة دلتا الأميركية- بإيجاز إلى نقص في نظام التربية العسكرية الخاصة بنا: " عمومًا، لا يتم تضمين الثقافة، التي تتألف من كل ما هو غامض وغير ملموس، في التخطيط الاستراتيجي إلا على المستوى الأكثر سطحية."(18) إلا أن كونها تتألف من " كل ما هو غامض وغير ملموس" هو في حد ذاته ما يحدد طبيعة الصراعات غير الحادة. لمَا لم يخض الشيوعيون الفيتناميون الحرب التي تدربت عليها الولايات المتحدة، ولم يخض الشيشانيون والأفغان الحرب التي أعدها الروس. هذا ينطوي على أكثر بكثير من مجرد إعادة تجهيز الاسلحة وإعادة تدريب الجنود. فهو يتطلب فهم الأساطير العدو الثقافية، والتاريخ، والتعامل مع الوقت، وما إلى ذلك، ويتطلب المزيد من الاستثمارات الكبيرة في الوقت والمال أكثر من الذي يتيحه التنظيم البيروقراطي.

وحتى لا ندخل في حقل ألغام خلقته أخطاء الماضي والحساسيات الثقافية الحالية، أقدم بعض التقييمات لدور الثقافة في التدريب العسكري لضباط الجيوش الناطقة بالعربية. ويقتصر حديثي بشكل اساسي على التدريبات لسببين. أولا، لأنني شهدت الكثير من التدريبات، مقابل حملة عسكرية واحدة (حارب فيها الجيش الأردني ضد منظمة التحرير الفلسطينية عام 1970). ثانيًا، تحارب الجيوش كما تتدرب. تتأثر القوات بعادات أوقات السلم، والسياسات، والإجراءات؛ فهي لا تخضع لتحولات مفاجئة يتحول فيها المدنيين الذين يرتدون الزي العسكري إلى محاربين. كان الجنرال جورج باتون مولعًا بحكي قصة يوليوس قيصر، الذي كان "في فصل الشتاء ... يزيد من تدريب الجحافل التي تتبعه في كل ما يجعلهم جنودًا ويجعلهم يعتادون على حسن أداء واجباتهم، حتى أنه عندما أتي الربيع وجعلهم يحاربون الاغريق، لم يصبح من الضروري أن يعطيهم أوامر، لأنهم كانوا يعرفون ما يجب القيام به وكيفية القيام بذلك."(19)

المعرفة قوة

في كل المجتمعات، تكون المعلومات وسيلة لكسب العيش أو امتلاك القوة، لكن العرب يدخرون المعلومات ويحتفظون بها بإحكام خاص. وغالبا ما يفاجأ المدربون الأميركيون على مر السنين بحقيقة أن المعلومات التي يقدمونها إلى المسئولين الكبار لا تتخطاهم. فبعد أن يتعلم أي فني عربي تنفيذ بعض الإجراءات المعقدة، فهو يعرف أنه الآن لا يقدر بثمن طالما أنه هو الوحيد في وحدته الذي يمتلك تلك المعرفة؛ وبمجرد أن يوزعها على الآخرين، لن يعد هو مركز المعلومة الوحيد، مما يبدد سلطته. وهذا ما يفسر اعتياد اكتناز الكتيبات والكتب والنشرات التدريبية، وغيرها من أدبيات التدريب أو الخدمات اللوجستية. في أحد المرات، تَسَلّم فريق تدريب متنقل من الجيش الأمريكي يعمل مع القوات المدرعة المصرية بعد طول انتظار آخر كتيبات التشغيل التي ترجمت إلى اللغة العربية بمشقة. أخذ المدربون الأمريكيون الكتيبات حديثة الطباعة مباشرة إلى ساحة الدبابات وقاموا بتوزيعها على طاقم جنود الدبابات. لحق بهم مباشرة قائد السرية- وهو خريج مدرسة المدرعات في فورت نوكس كما تلقى دورات متخصصة في مدرسة ذخائر ابردين- ليجمع الكتيبات من طواقم. وعندما سئل عن سبب أخذه للكتيبات، قال القائد أنه لا فائدة من إعطائها للسائقين لأن المجندين لا يستطيعون القراءة. لكنه في الواقع لم يُرِد أن يجد المجندين مصدرًا مستقلًا للمعرفة. فكونه الشخص الوحيد الذي يمكنه شرح وسيلة إطلاق النيران أو تصويب أسلحة المدفعية يجلِب الهيبة والاهتمام. ومن الناحية العسكرية، هذا يعني أن القليل جدًا من التدريبات التي تتلاقها تلك القوات تنتقل إلى غيرهم، فمثلًا بالنسبة لطاقم الدبابات، قد يكون جنود المدفعية، والحمالون، والسائقون بارعون في وظائفهم ولكنهم ليسوا على استعداد للقيام بدور آخر في حال وقوع الإصابات. ويقيد عدم فهم وظائف بعضهم البعض قيامهم بالعمل بسلاسة. كما يعني الأمر على مستوى أعلى عدم وجود عمق في البراعة التقنية.

مشاكل التعليم

غالبًا ما يفتقد التدريب للخيال، فيكون محدودًا ومحددًا، ولا يقدم الكثير من التحديات. وبسبب أن النظام التعليمي العربي يستند على التلقين والاستظهار، لدى الضباط قدرة هائلة على الاحتفاظ بكميات هائلة من المعرفة في ذاكرتهم. يعتمد نظام التعلم على المحاضرات من جانب واحد، يدون فيها الطلاب كمية ضخمة من الملاحظات، ويجري اختبارهم فيما قيل لهم. (يؤدي هذا الأمر إلى آثار مثيرة للاهتمام بالنسبة للمدربين الأجانب، فتتناقص مصداقيتهم على سبيل المثال اذا لجأوا إلى كتاب.) التركيز على التلقين له ثمن، وهو تناقص القدرة على التفكير أو التحليل القائم على مبادئ عامة . فلا يجرى تشجيع التفكير خارج الصندوق؛ بل القيام بذلك في العلن قد يضر مهنة أي شخص. لا يتم مراجعة المدربين ولا الطلاب في نهاية الأمر.

بشكل عام، يتم تجنب المنافسة وجهًا لوجه بين الأفراد، على الأقل علنا، لأن ذلك يعني أن شخصًا ما سيفوز بينما يخسر الآخر، ويمنى الخاسر بالإذلال. يصبح هذا الأمر من المحرمات خاصة عندما يحتوي الصف على رتب عسكرية متباينة. فجزء كبير من رغبة السعي للتعليم تكون على سبيل الهيبة الشخصية، لذلك يبذل العرب في المدارس العسكرية الامريكية جهدًا كبيرًا للتأكد من أن يحصل الشخص الأعلى مستوى – سواء من حيث الرتبة العسكرية أو الطبقة الاجتماعية- على أعلى الدرجات في الصف. يؤدي هذا في كثير من الأحيان إلى "مشاركة الإجابات" في الصف، غالبًا بطريقة علنية، أو يضطر صغار الضباط إلى اخفاء الدرجات الأعلى عن رؤسائهم.

يتعلم المدربون العسكريون الأمريكيون الذين يتعاملون مع طلاب من الشرق الأوسط أن يتأكدوا قبل توجيه أي سؤال لطالب في الصف - ولا سيما إذا كان ضابطًا- أن ذلك الطالب يعرف الإجابة الصحيحة. إذا كان ذلك ليس مضمونا، سوف يشعر الضابط انه يخضع لإذلال علني. علاوة على ذلك، في بيئة الثقافة السياسية العربية المليئة بالبارانويا (جنون الارتياب)، غالبا ما سيعتقد أن ذلك الإذلال قد تم لهدف ما. وسرعان ما سيصبح هذا الطالب عدوًا للمدرب، وسيصبح زملائه متخوفين أن يجرى إذلالهم كذلك، مما يجعل عملية التعليم مستحيلة.

الضباط مقابل الجنود

يتم تدريب صغار الضباط العرب جيدًا على الجوانب التقنية المعرفية لأسلحتهم وتكتيكاتهم، ولكن لا يتم تدريبهم على القيادة، فيتلقى هذا الموضوع قدر قليل من الاهتمام. كما اشار مثلا الفريق سعد الشاذلي، رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية، في تقييمه للجيش الذي تولاه قبل حرب عام 1973، أنهم كانوا غير مدربين على اقتناص المبادرات أو أن يقدموا مفاهيم مبتكرة أو أفكار جديدة.(20) في الواقع، قد تكون القيادة أكبر نقطة ضعف تعاني منها نظم التدريب العربية. تنتج هذه المشكلة عن عاملين رئيسيين: نظام طبقي محدد للغاية ملاصق للنظام الاجتماعي، وعدم وجود برنامج تنمية لصف الضباط.

يعامل معظم الضباط العرب الجنود المجندين كفئة أقل من البشر. عندما حملت رياح مصر يومًا ما حبيبات رمل حارقة من الصحراء أثناء استعراض لكبار الشخصيات الأمريكية الزائرة، رأيت فرقة من الجنود يسيرون ليشكلوا صف واحد لحماية الأميركيين؛ بعبارة أخرى، يُسْتَخدم الجنود المصريين أحيانًا كأنهم لا يزيدون عن مصدات الرياح. أما فكرة حماية القائد لرجاله فهي موجودة فقط بين الوحدات الأكثر تميزًا في الجيش المصري. في عطلة نهاية الأسبوع ، يأخذ ضباط الوحدات المتمركزة خارج القاهرة سياراتهم وينطلقون إلى ديارهم، ويُترك المجندين مسئولون عن أنفسهم يخوضون رحلات خلال الصحراء ليصلوا إلى الطريق السريع، يستوقفون حافلات أو شاحنات للوصول الى شبكة السكك الحديدية بالقاهرة. لا تضم معسكرات الحاميات وسائل لراحة الجنود. ويتشابه الوضع - بدرجات متفاوتة- في أماكن أخرى في الدول الناطقة بالعربية، بنسبة أقل في الأردن، وبنسبة أكبر في العراق وسوريا.

يكره المجندون الشباب الذين يشكلون الجزء الأكبر من الجيش المصري الخدمة العسكرية لسبب وجيه، وسيفعلون أي شيء تقريبًا، بما في ذلك تشويه أنفسهم، لتجنبها. في سوريا، يشتري الأثرياء الإعفاءات، أو إذا تعذر ذلك، يتم توزيعهم على هيئات غير مقاتلة. وقد أخبرني شاب سوري أن مهاراته الموسيقية جاءت من خدمته بفرقة الجيش السوري حيث تعلم العزف على آلة موسيقية. بشكل عام، تفرض جيوش الهلال الخصيب الانضباط عن طريق الخوف، وفي البلدان التي لا يزال يسري بها النظام القبلي، مثل المملكة العربية السعودية، تخفف المساواة الفطرية للمجتمع من كون الخوف حافزًا أساسيًا، مما ينشر حالة عامة من قلة الانضباط.(21)

تظهر الفجوة الاجتماعية والمهنية بين الضباط والمجندين في كل الجيوش، ولكن في الولايات المتحدة والقوى الغربية الأخرى، تكون قوة ضباط الصف فئة وسطى تصل بين الطرفين. في الواقع، كان لضباط الصف أهمية قصوى لوضع الجيش الأمريكي في أفضل حالاته، فهم يعملون كمدربين أوليين في أي جيش محترف، مما يجعل لهم أهمية قصوى سواء في برامج التدريب أو في تغذية إحساس المجندين بالولاء لوحدتهم. معظم دول العالم العربي إما ليس لديها سلاح ضباط صف أو أنه موجود ولكنه لا يقوم بوظيفته، مما يقلل بشدة من فعالية الجيش. بخلاف بعض الاستثناءات، يعتبر ضباط الصف في نفس الفئة المنخفضة التي يشغلها المجندين، لذا فلا يستطيعون أن يصلوا بين المجندين والضباط. يقوم الضباط بالتدريب، ولكن الفجوة الاجتماعية الواسعة بين المجندين والضباط تميل إلى جعل عملية التعلم روتينية، ورسمية، وغير فعالة. وغالبًا ما يغيب الشرح العملي من التدريب لأن الضباط يرفضون أن تتسخ أيديهم، ويفضلون تجاهل الجوانب الأكثر العملية من الموضوع الذي يناقشونه، معتقدين أن ذلك يحط من مكانتهم الاجتماعية. ومن الأمثلة الدرامية لهذا الأمرر ما وقع خلال حرب الخليج عندما أطارت عاصفة شديدة خيام الضباط العراقيين الأسرى. فقد فضلوا المكوث في مهب الريح والمطر لمدة ثلاثة أيام بدلا من أن يراهم السجناء المجندين الموجودين في معسكر قريب وهم يعملون بأيديهم.

الكلفة العسكرية لهذا الامر شديدة الفداحة. فدون التماسك الذي يوفره وجود ضباط الصف، تميل الوحدات إلى التفكك في خضم الإجهاد الناتج عن القتال. وسبب ذلك في المقام الأول هو حقيقة أن الجنود المجندين ببساطة لا يثقون في ضباطهم. فعندما يغادر الضباط أماكن التدريب، يبدأ التدريب في الانهيار عندما يبدأ الجنود الانجراف. وقد شرح لي ضابط مصري يومًا أن هزيمة الجيش المصري الكارثية عام 1967 نتجت عن نقص في التماسك داخل الوحدات. وقد تحسن الوضع بشكل طفيف فحسب - كما قال- في عام 1973. أما السجناء العراقيين عام 1991، فظهر بينهم الخوف والعداء الواضح تجاه ضباطهم.

صنع القرار والمسؤولية

يتم اتخاذ القرارات وتسليمها من أعلى، مع قليل جدًا من الاتصالات بين الوحدات. وهذا يؤدي إلى نظام مركزي للغاية، ولا يكاد يكون هناك أي تفويض للسلطات. نادرًا ما يتخذ ضابط قرار حاسم من تلقاء نفسه، بدلا من ذلك، فهو يفضل بالطبع الخيار الآمن بأن يتم وصفه بأنه كادح وذكي ومخلص ومطيع. فلفت الانتباه إلى نفسه باعتباره مبتكر أو قادر على اتخاذ قرارات فردية سيعرضه للمتاعب. كما هو الحال في الحياة المدنية، الانسياق هو القاعدة المجتمعية السائدة، أما المسمار الذي يبرز، فيتم طرقه حتى يختفي في الأسفل. تتدفق الأوامر والمعلومات من أعلى إلى أسفل؛ ولا ينبغي تفسيرها أو تحسينها، أو تعديلها بأي شكل من الأشكال.

غالبا ما يمنى المدربون الأميركيون بالإحباط عندما يحاولون الحصول على قرار من نظرائهم، دون أن يدركوا أن الضابط العربي يفتقر إلى سلطة اتخاذ القرار، ويزيد هذا الإحباط بسبب امتناع العربي– المفهوم- عن الاعتراف بأنه يفتقر إلى تلك السلطة. وقد شهد هذا الكاتب عدة مرات قرارات كان يمكن اتخاذها على مستوى الكتيبة بشأن مسائل مثل أوقات وأماكن اجتماع الصف، تتطلب موافقة من وزارة الدفاع. دفع كل ذلك المدربين الأميركيين لسن قاعدة أساسية: يتمتع رقيب أول في الجيش الامريكي بقدر من السلطة تماثل عقيدًا في جيش عربي. تملى طرق التدريس والموضوعات من السلطات العليا. فلا يمكن لقادة الوحدات إصدار قرارات عن تلك الشؤون. وتعني الطبيعة المسيسة للجيوش العربية أن العوامل السياسية تلقي بثقلها وكثيرًا ما تتجاوز الاعتبارات العسكرية. فيمثل الضباط الذين يتمتعون بحس المبادرة والميل إلى العمل الفردي تهديدًا للنظام. يمكن رؤية هذا ليس فقط على مستوى الاستراتيجية الوطنية ولكن في كل جوانب العمليات العسكرية والتدريب. وإذا كانت الجيوش العربية أقل تسييسا وأكثر مهنية في استعدادها لحرب 1973 مع إسرائيل،(22) فقد عادت إلى عاداتها القديمة بعد انتهاء القتال. أما الآن، فظهرت مؤسسة عسكرية بيروقراطية بشكل متزايد كذلك. سيشعر أحد المخضرمين في حروب ساحة البنتاجون أنه في روضة أطفال إذا رأى المنافسات التي توجد في مقر القيادات العسكرية العربية.

قلما يتم تحمل مسئولية سياسة، أو عملية، أو وضع، أو برنامج تدريبي. ويمكن أن يجد المدربون الأميركيون الأمر محبطًا للغاية عندما يتكرر تحميل الضباط العرب مسئولية فشل عمليات أو برامج على المعدات الأمريكية أو بعض المصادر الخارجية الأخرى. يتم تحميل مسئولية المعدل العالي من المعدات الأمريكية المعطلة على "عدم وجود قطع الغيار" مشيرين بإصابع الاتهام إلى نظام الامدادات الامريكية غير المستجيب، على الرغم من أن المدربين الأمريكيين يمكنهم توثيق وصول إمدادات وافرة الى البلاد ولكنها تختفي وسط نظام الإمدادات المعطوب. (لم يكن ذلك النقد لاذعًا أو شخصيًا أبدا ، وغالبا ما يتم إيصاله بأدب وبطريقة غير مباشرة، لدرجة أن تلك الإشارات الغريبة لم تُفهم إلا بعد عقد اجتماع.) وتصل تلك الظاهرة إلى أعلى المستويات. خلال حرب الكويت، استولت القوات العراقية على بلدة الخفجي في شمال شرق المملكة العربية السعودية بعد أن أخلى السعوديين المكان. طلب الجنرال خالد بن سلطان، قائد القوات البرية السعودية، رسالة من الجنرال نورمان شوارزكوف، مشيرًا إلى أن الجنرال الاميركي الذي هو الذي أمر بإخلاء البلدة السعودية.(23) وفي روايته عن معركة الخفجي، يحمّل الجنرال بن سلطان – كما هو متوقع- الأميركيين مسئولية احتلال العراق للبلدة.(24) إلا أن حقيقة الأمر هي أن القوات السعودية القليلة غادرت ساحة القتال.(25) في الواقع، كان السعوديون أقل تسليحًا وأقل عددًا من الوحدة العراقية التي أغارت على الخفجي ولكن تطلب الكبرياء السعودي توجيه اللوم للأجانب.

أما بالنسبة للمعدات، توجد فجوة ثقافية كبيرة بين نظم الصيانة والخدمات اللوجستية العربية والأمريكية. وتلك الصعوبات التي يواجهها العرب تجاه المعدات الأمريكية ليست - كما يعتقد البعض ببساطة- مجرد كون "العرب لا يقومون بالصيانة"، ولكنها أعمق من ذلك بكثير. فالمفهوم الأمريكي عن نظم الأسلحة لا ينتقل بسهولة. يجلب نظام الأسلحة معه إجراءات محددة للصيانة والخدمات اللوجستية، والسياسات، وحتى الفلسفة، وكلها تقوم على الثقافة الأمريكية، التي تتوق إلى مستوى معين من التعليم، و من الشعور بالمسؤولية في الوحدة الصغيرة، وتخصيص الأدوات، والمعتقدات. إن الأدوات التي تخصص لكتيبة أمريكية (وحدة مكونة من 600-800 فرد) من الأرجح أنها ستخصص لوحدة عربية ذات مستوى أعلى، ربما تفوقها بمرتبتين أو ثلاثة. نادرًا ما تتواجد الخبرة والمبادرة – والأهم – الثقة التي تخوّل تخصيص تلك الأدوات إلى مستوى أدنى. تعتمد المعدات الامريكية وصيانتها على مفهوم الإصلاح عند أدنى مستوى، وبالتالي تتطلب تفويضًا للسلطة. دون تلك الأدوات، وقطع الغيار، أو الخبرات اللازمة للحفاظ على المعدات تعمل بشكل جيد، فضلًا عن بغض إيصال أخبار سيئة للرؤساء، يبحث قائد الوحدة عن كبش فداء. يفسر كل هذا لما سمعت مرات عديدة في مصر عبارة أن الاسلحة الامريكية "حساسة جدا".

لقد باشرت العديد من فرق المسح الأمريكية في تلك البلاد: يبغى الجيش المضيف دائما الحصول على أحدث المعدات العسكرية، ويفعل كل شيء لتجنب مشاكل الصيانة، والخدمات اللوجستية، والتدريب. ويصر على التعتيم والتدليل للدرجة التي تجعل الفرق الأمريكية - بغض النظر عن مدى شعورهم بجدية المهمة- تجد أنه من المستحيل تقريبا أن تقدم المساعدة. بشكل أعم، عدم رغبة العرب في أن يكونوا صرحاء حول قصور التدريب يجعل من الصعب للغاية على المستشارين الأجانب أن يقدموا الدعم المناسب للتعليم أو لتقييم الاحتياجات التدريبية.

عمليات الأسلحة المشتركة

كان عدم التعاون هو السبب الأكثر وضوحًا لفشل جميع الجيوش العربية في عمليات الأسلحة المشتركة. على سبيل المثال، كفاءة سرية مشاة عادية (وحدة عسكرية تتكون من 80 حتى 150 جنديًا) تابعة للجيش الأردني تماثل تمامًا كفاءة سرية إسرائيلية مماثلة؛ لكن على مستوى الكتيبة، يغيب التنسيق الذي تتطلبه عمليات الأسلحة المشتركة، مع دعم المدفعية والجوية، والدعم اللوجستي. في الواقع، كلما زادت مرتبة الوحدة العسكرية "من سرية الى كتيبة الى لواء ..الخ" كلما زاد مقدار عدم التنسيق. ينتج هذا عن ندرة التدريب المشترك على السلاح ؛ وحتى عندما يحدث ذلك، فإنه يهدف إلى إثارة إعجاب الزوار (وهو الأمر الذي يعجبهم بالفعل، فيتم تقديم العرض باستمتاع حقيقي ومواهب مسرحية) بدلا من توفير التدريب الحقيقي.

تنتج تلك المشكلة عن ثلاثة عوامل رئيسية. الأول، هو قلة الثقة المعروفة بين العرب لأي شخص خارج أسرتهم يؤثر سلبا على عمليات الهجوم.(26) وتقتصر استثناءات هذا النمط على وحدات النخبة (والتي لها نفس العمل في جميع أنحاء العالم العربي، وهو حماية النظام، وليس البلاد). في الثقافة التي يستند فيها كل مجال من مجالات النشاط الإنساني تقريبًا، بما في ذلك الأعمال التجارية والعلاقات الاجتماعية،

وعلى بنية الأسرة، يظهر هذا التوجه أيضا في الجيش، ولا سيما خلال ضغط المعارك. تقوم الأعمال الهجومية في الأساس على إطلاق النيران والمناورة. يجب أن يثق عنصر المناورة في أن الوحدات أو الأسلحة الداعمة له توفر له غطاءً من النيران. إذا كان هناك عدم ثقة في هذا الدعم، فدفع القوات إلى ان تمضي قدمًا ضد الجيش المدافع لا يمكن أن يحدث إلا إذا وقف الضباط في المقدمة وتولوا القيادة، وهو الأمر الذي لم يكن سمة من سمات القيادات العربية.

ثانيًا، يخلق نظام الفسيفساء المعقد من البشر مشاكل إضافية خلال التدريب، وذلك لأن الحكام في الشرق الأوسط يستغلون الولاءات الطائفية والقبلية للحفاظ على السلطة. تسيطر الأقلية العلوية على سوريا، ويسيطر أهل الضفة الشرقية على الأردن، ويسيطرالسنة على العراق، ويسيطر النجديون على المملكة العربية السعودية. كان لهذا آثار مباشرة على الجيش، حيث تؤثر الاعتبارات الطائفية على التعيينات والترقيات. يربط بعض الأقليات (مثل الشركس في الأردن أو الدروز في سوريا) حياتهم بالنخبة الحاكمة مؤديين أدوار الحماية المهمة، ويتم استبعاد آخرين (مثل الشيعة في العراق) من قوة الضباط. في أي حال، يقوض تعيين الضباط بناء على اعتبارات طائفية من التعيينات على أساس الجدارة.

تظهر نفس حالة انعدام الثقة على مستوى البلدان وبعضها، حيث تحمل الجيوش العربية مقدار ضئيل من الثقة في بعضها البعض، ولأسباب وجيه. أحد الأمثلة الكلاسيكية على هذ الخداع هو الكذبة الوقحة التي أخبرها جمال عبد الناصر للملك حسين في يونيو 1967 لجعله يدخل الحرب ضد اسرائيل، حيث قال أن القوات الجوية المصرية على مشارف تل أبيب (بينما معظم طائراتها قد دمرت بالفعل).(27) ومثال آخر هو الطريقة المخادعة التي اتبعها السادات تجاه السوريين لتشجيعهم للدخول في حرب أكتوبر عام 1973 (قال لهم أن المصريين كانوا يخططون إلى حرب شاملة، وانطوت خطته للخداع استخدام مجموعة ثانية من الخطط العملياتية بحيث تراها العيون السورية فقط).(28)وفقًا لذلك التاريخ، فليس من المستغرب أن يندر وجود تدريبات مشتركة بين الجيوش العربية أو المناورات. خلال حرب عام 1967، على سبيل المثال، لم يتمركز أي ضابط اتصال أردني في مصر، ولم يكن الأردنيين في المقابل متجاوبين مع القيادة المصرية.(29)

ثالثًا، يعتمد حكام الشرق الأوسط بشكل روتيني على أساليب توازن القوى للحفاظ على سلطتهم.(30) فيستخدمون المنظمات المتنافسة والوكالات المكررة، والهياكل القسرية التي تتوقف على هوى الحاكم. يجعل هذا من بناء أي شكل من أشكال القواعد الشخصية للقوة أمرًا صعبًا، إن لم يكن من المستحيل، ويجعل هذا من القيادات متخوفين وغير متزنين، وغير آمنين في مهنهم أو وضعهم الاجتماعي. وينطبق الشيء نفسه على الجيش؛ فوجود رئيسًا قويا لهيئة الاركان المشتركة أمر لا يمكن تصوره.

إن الأوامر المشتركة هي مجرد أوراق تتمتع بالقليل من الفاعلية. ينظر القادة إلى الأوامر المشتركة، والتدريبات المشتركة، والأسلحة المجتمعة، والعاملين المتوحدين بحذر شديد، وذلك لأن جميع الجيوش العربية هي سيف ذو حدين. أحدهما موجه نحو عدو خارجي والآخر موجه للعاصمة. فتصبح القوات البرية قوة لصيانة النظام في آن، وللتهديد في آن آخر. لن يسمح أي حاكم عربي للعمليات أو التدريب المشترك أن يصبح امرًا روتينيًا، والعذر المعتاد هو النفقات المالية، ولكن هذا غير مقنع نظرًا لشرائهم المتكرر لأجهزة لا يمكنهم تحمل تكاليف صيانتها. وفي الحقيقة، تخلق تمارين الأسلحة المشتركة والجنود الموحدين بعضًا من الألفة، وتؤدي إلى تليين الخصومات، ومحو الشكوك، والقضاء على المنظمات المفتتة المتنافسة التي يصنع منها الحكام خصوما لبعضها البعض. يظهر هذا الوضع بشكل أكثر وضوحًا في المملكة العربية السعودية، حيث تقع القوات البرية والطيران تحت إمرة وزير الدفاع، الأمير سلطان، في حين أن الحرس الوطني يتولاه الأمير عبد الله، نائب رئيس الوزراء وولي العهد. في مصر، تحقق قوات الأمن المركزي التوازن مع الجيش. في العراق وسوريا، يقوم الحرس الجمهوري بخلق ذلك التوازن.

في الواقع، تخلق السياسة عقبات للحفاظ على ذلك التفتت. على سبيل المثال، للحصول على طائرة من سلاح الجو من أجل تدريب عسكري جوي، سواء كان ذلك تدريبًا مشتركًا أو طلب إداري بسيط لدعم التدريب، يجب أن يتم تنسيقه بواسطة رؤساء الخدمات في وزارة الدفاع؛ وإذا تطلب الأمر إشراك عدد كبير من الطائرات، ربما يتطلب ذلك موافقة رئاسية. قد يكون زمن الانقلابات العسكرية قد مضى، لكن الخوف منهم لا يزال قويًا. ويشكل أي إشراك واسع النطاق للقوات البرية مصدر قلق للحكومة، وتجرى ملاحظته عن كثب، ولا سيما إذا تم استخدام الذخيرة الحية. يوجد في المملكة العربية السعودية نظام معقد من الموافقات المطلوبة من القادة العسكريين للمنطقة وحكام المقاطعات، ولكل منهم قنوات مختلفة من الأوامر للحصول إذن السير بالطريق، والحصول على الذخيرة، وإجراء التمارين، وهي الإجراءات التي تجعل نجاح أي انقلاب عسكري يتطلب كمية هائلة من المتآمرين الموالين. تعلمت الأنظمة العربية كيف تحمي نفسها من الانقلابات.

الأمن وجنون الإرتياب

تجعل الأنظمة العربية من كل شيء ذو صلة – ولو بسيطة- بالجيش أمرًا سريًا. فالمعلومات التي ينشرها الجيش الأمريكي بشكل روتيني (حول الترقيات، وحركات التنقلات، وأسماء قادة الوحدات، وتسميات الوحدات) تكون سرية في البلدان الناطقة بالعربية. بالطبع، يزيد هذا الأمر من صعوبة أن يبني العدو تصور دقيق عن المعركة، لكن ذلك يغذى أيضا الطبيعة الخلافية والمجزأة للقوات العسكرية. يمكن أن يصل هاجس الأمن إلى حد مثير للسخرية. قبل حرب 1973، فوجئ السادات أنه قبل حوالي اسبوعين من الميعاد الذي حدده للقوات المسلحة لتكون مستعدة للحرب، لم يبلغ وزير الدفاع الفريق محمد صادق القيادات التي تقع تحت رئاسته مباشرة بهذا الأمر. وتساءل السادات، هل ينبغي للحرب أن تبقى سرًا على الناس المتوقع أن يخوضوها؟(31) كما يمكن للمرء أن يتوقع أن يتم تغيير نظيره العربي أو الشخص الذي يتواصل

معه دون سابق إنذار ودون أي تفسير لغيابه المفاجئ. وقد يكون ذلك مجرد نقل لمنصب يقع على بعد أبواب قليلة من مكتبه، ولكن الغموض الذي يغلف الأمر يجعل الأجانب يفكرون في سيناريوهات مخيفة، وهي السيناريوهات التي يمكن أن تكون صحيحة. ومن الأفضل عدم الإكثار من الاستفهام فالمستشارين أو المدربين الذين يبدون فضوليين بشكل مفرط تقل المعلومات العسكرية المتاحة لهم حول الجيش المضيف ومرافقه.

ويفاقم من تعقيد هذا الميل للسرية افتراض وجود العلاقة الوثيقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، التي يُعتقد أنها سائدة على كل المستويات. يعتقد العرب أن معظم التفاصيل الصغيرة عنهم تنتقل بطريقة ما إلى الموساد عبر خط ساخن. وهذا يفسر سبب أن غالبًا ما يُطلب في وقت مبكر من المستشار الأمريكي الذي يعمل مع قوات عربية أن يعرب عن رأيه في "مشكلة فلسطين"، ثم يواجهونه بأحاديث طويلة حول الهيمنة اليهودية المفترضة على الولايات المتحدة.

عدم الاهتمام بالسلامة

أما عن تدابير السلامة، فهناك حالة عامة من التراخي، والإهمال الواضح واللامبالاة حيال الحوادث الواقعة خلال التدريب، والتي كان يمكن الوقاية من أكثرها عن طريق جهود بسيطة. وبالنسبة للأمريكيين الواعيين بالسلامة (ربما أكثر من اللازم)، تبدو المجتمعات العربية غير مبالة بوقوع إصابات وتظهر عدم اهتمام واضح بسلامة التدريبات. هناك عدد من التفسيرات لهذا الأمر. يشير بعضها إلى فكرة القدرية المتأصلة في الإسلام،(32) وبالتأكيد سيتمكن من أمضى وقتا طويلا في سيارات الأجرة العربية من أن يعطي مصداقية لهذه النظرية، ولكن ربما يكون السبب دينيا بشكل أقل من كون ذلك نتيجة لثقافة سياسية. كما يعرف أي عسكري مخضرم، تأتي معتقدات الوحدة العسكرية من أعلى، أو كما يقول المثل القديم، تحسن الوحدات أداء الأشياء التي يهتم بها قائدهم. عندما تظهر القيادة السياسية العليا انعدام تام للقلق على سلامة جنودها، تنتقل تلك المواقف عبر الرتب إلى أسفل. مثال على ذلك هو خيانة القوات السورية التي تقاتل اسرائيل في الجولان في عام 1967: بعد أن سحبت وحداتها المميزة، نشرت الحكومة السورية كذبًا أن القوات الإسرائيلية استولت على بلدة القنيطرة، التي كانت ستجعل من الإسرائيليين في موقع يقع خلف الجيش السوري المملوء بالمجندين والذي لا يزال يقبع في مواقعه. قامت القيادة بهذه الخطوة للضغط على الدول الكبرى لفرض هدنة، على الرغم من أن الامر أدى إلى حالة من الذعر بين القوات السورية، وأدى إلى فقدانها هضبة الجولان.(33)

خاتمة

سيكون من الصعب أن نبالغ في الهوة الثقافية التي تفصل بين الثقافات العسكرية الأمريكية والعربية. في كل منطقة مهمة، يجد المستشارون العسكريون الأميركيون الطلاب الذين يدرسون بحماس، ثم يفشلون في تطبيق تلك التدريبات. فالثقافة التي يعودون إليها، ثقافة جيوشهم الخاصة في بلدانهم، تهزم النوايا التي أخذوها عن أساتذتهم الأمريكية.

عندما كان لهم تأثيرًا على بعض المؤسسات العسكرية العربية، عزز السوفييت الصفات الثقافية للدول التابعة لهم أكثر بكثير مما كان الأميركيون قادرين عليه في السنوات الأخيرة. مثل العرب، كانت الثقافة العسكرية للسوفيات مدفوعة بالمخاوف السياسية التي تصل إلى جنون الارتياب. والخطوات المتخذة للسيطرة على مصادر تلك المخاوف (سواء الحقيقية أو المتخيلة) من هذه المخاوف - مثل هيكل القيادة المركزية الصارمة- قد تم فهمها بسهولة من قبل النخب السياسية والعسكرية العربية. شعر العرب أيضا، بميل لازدراء طبقة الضباط السوفييتين للجنود العاديين وإرتياب التسلسل الهرمي العسكري السوفيتي فيصف ضباط متطور يتلقى التقدير والمكافئات.

تستند الثقافة السياسية العربية على درجة عالية من الاعتماد على الطبقات الاجتماعية، مما يماثل كثيرًا الاتحاد السوفياتي البائد، وعلى العكس فهو يختلف كثيرًا عن الثقافة الأمريكية التي تبتعد عن الاجتماعيات، وتتسم باختيار الأكثر جدارة، والديمقراطية. لا يرى الضباط العرب أي قيمة لتبادل المعلومات فيما بينهم، ناهيك عن تداولها مع رجالهم. وهم يحذون في هذا حذو قادتهم السياسيين، الذين لا يحجبون المعلومات عن حلفائهم فحسب، ولكن يخدعونهم بشكل روتيني. يعكس التدريب في الجيوش العربية كل هذا: بدلا من إعداد أكبر قدر ممكن المسؤوليات المرتجلة التي تفيد في فوضى المعركة، يلتزم الجنود العرب، وضباطهم، بالوظائف الضيقة المخصصة لهم من قبل مرئوسيهم في النظام الهرمي. هذا يجعلهم أقل فعالية في ساحة المعركة، ناهيك عن أنه يضع حياتهم في خطر أكبر، وهو أمر بالكاد يقلقهم، في حين أن هاتين المسألتين تهيمنان بالطبع على الثقافة العسكرية الأمريكية، وتنعكس في التدريب العسكري الأميركي.

من غير المرجح أن يحدث أي تغيير، حتى تتغير الثقافة السياسية العربية بشكل عام، على الرغم من أن تجربة المجتمعات الأخرى (بما في ذلك مجتمعنا) تشير إلى أن الجيش يمكن أن يكون له تأثير ديمقراطي على الثقافة السياسية الأوسع، حيث يجلب الضباط الدروس التي يتلقومها خلال تدريبهم إلى بيئتهم المهنية، ثم إلى المجتمع الأكبر. من الواضح أن ذلك يحدث فارقا كبيرا، ولكن سيحدث هذا فقط عندما تكون الثقافة السياسية المحيطة ليست ديمقراطية إسما فقط (كما هو الحال في العديد من دول الشرق الأوسط)، ولكنها عمليا أيضًا كذلك. فحتى تبدأ السياسة العربية في التغيير على مستوى أساسي، من غير المرجح أن تكتسب الجيوش العربية -مهما كانت شجاعة أو كفاءة ضباطتها أو رجالها على حدة - مجموعة من الصفات التي تحتاجها القوات المقاتلة الحديثة لتحقيق النجاح على أرض المعركة. وذلك لأن تلك الصفات تعتمد على غرس الاحترام والثقة والانفتاح بين أفراد القوات المسلحة على جميع المستويات، وتلك هي الموسيقى التي تصاحب الحروب الحديثة التي لا تريد الجيوش العربية أن تسمعها، بغض النظر عن مقدار محاكاتها للخطوات المصاحبة لتلك الموسيقى.

Saeed M. Badeeb, The Saudi-Egyptian Conflict over North Yemen 1962-1970, (Boulder, Westview 1
.Press: 1986), pp. 33-42
R. D. McLaurin, The Battle of Zahle (Aberdeen Proving Grounds, Md.: Human Engineering 2
.Laboratory, Sept. 1986), pp. 26-27
Anthony Cordesman and Abraham Wagner, The Lessons of Modern War, Volume II: The Iran-Iraq 3
War, (Boulder, Colo.: Westview Press, 1990), pp. 89-98; Phebe Marr, The Modern History of Iraq
.(Boulder Colo.: Westview Press, 1985), pp. 22-223, 233- 234
Kenneth M. Pollack, "The Influence of Arab Culture on Arab Military Effectiveness" (Ph.d. diss., 4
Massachusetts Institute of Technology, 1996), pp. 259-261 (Egypt); pp. 533-536 (Saudi Arabia);
pp. 350-355 (Iraq). Syrians did not see significant combat in the 1991 Gulf war but my
conversations with U.S. personnel in liaison with them indicated a high degree of paranoia and
.distrust toward Americans and other Arabs
David Kahn, "United States Views of Germany and Japan," Knowing One's Enemies: Intelligence 5
Before the Two World Wars, ed., Ernest R. May (Princeton: Princeton University Press, 1984), pp.
.476-503
Gerhard L. Weinberg, The Foreign Policy of Hitler's Germany: Diplomatic Revolution in Europe, 6
.1933-1936 (Chicago: University of Chicago, 1970), p. 21
.Stanley Karnow, Vietnam: A History (New York: Penguin Books, 1984), p. 18 7
Paul Kennedy, The Rise and Fall of Great Powers (New York: Random House, 1987), pp. 186-187. 8
The German assessment from T. Dodson Stamps and Vincent J. Esposito, eds., A Short History of
.World War I (West Point, N.Y.: United States Military Academy, 1955), p. 8
William Manchester, Winston Spencer Churchilll: The Last Lion Alone, 1932-1940 (New York: Dell 9
Publishing, 1988), p. 613; Ernest R. May "Conclusions," Knowing One's Enemies, pp. 513-514. Hitler
.thought otherwise, however
Avraham (Bren) Adan, On the Banks of the Suez (San Francisco: Presideo Press, 1980), pp. 10
73-86. "Thus the prevailing feeling of security, based on the assumption that the Arabs were
incapable of mounting an overall war against us, distorted our view of the situation," Moshe Dayan
stated."As for the fighting standard of the Arab soldiers, I can sum it up in one sentence: they did
not run away." Moshe Dayan: Story of My Life (New York: William Morrow and Company, 1976), p.
.510
.John Keegan, A History of Warfare (New York: Alfred A. Knopf, 1993), p. 18 11
Ibid., p. 387 12
John Walter Jandora, Militarism in Arab Society: A Historiographical and Bibliographical 13
.Sourcebook (Westport, Ct.: Greenwood Press, 1997), p. 128
T. E. Lawrence, The Evolution of a Revolt (Ft. Leavenworth Kans.: CSI, 1990), p. 21.(A reprint of 14
(.article originally published in the British Army Quarterly and Defense Journal, Oct. 1920
Author's observations buttressed by such scholarly works as Eli Shouby, "The Influence of the 15
Arabic Language on the Psychology of the Arabs," Readings in Arab Middle Eastern Societies and
Culture, ed. Abdullah M. Lutfiyya and Charles Churchill (The Hague: Mouton Co., 1970), pp.
688-703; Hisham Shirabi and Muktar Ani, "Impact of Class and Culture on Social Behavior: The
Feudal-Bourgeois Family in Arab Society," Psychological Dimensions of Near Eastern Studies, ed. L.
Carl Brown and Norman Itzkowitz (Princeton: The Darwin Press, 1977), pp. 240-256; Sania
Hamady, Temperament and Character of the Arabs (New York: Twayne Publishers, 1960), pp.
.28-85; Raphael Patai, The Arab Mind (New York: Charles Scribner's Sons, 1973), pp. 20-85
.Pollack, "The Influence of Arab Culture," p. 759 16
.Samuel P. Huntington, "The Clash of Civilizations," Foreign Affairs, Summer 1993, pp. 21-49 17
Paul M. Belbutowski, "Strategic Implications of Cultures in Conflict," Parameters, Spring 1996, 18
.pp. 32-42
.Carlo D'Este, Patton: A Genius for War (New York: Harper-Collins, 1996), p. 383 19

20 Saad el-Shazly, The Crossing of the Suez (San Francisco: American Mideast Research, 1980), p. 47.

21 Jordan may be an exception here; however, most observers agree that its effectiveness has declined in the past twenty years.

22 Pollack, "The Influence of Arab Culture," pp. 256-257.

23 H. Norman Schwarzkopf, It Doesn't Take A Hero (New York: Bantam Books, 1992), p. 494.

24 Khaled bin Sultan, Desert Warrior: A Personal View of the War by the Joint Forces Commander (New York: Harper-Collins, 1995), pp. 368-69.

25 Based on discussions with U.S. personnel in the area and familiar with the battle.

26 Yesoshat Harkabi, "Basic Factors in the Arab Collapse During the Six Day War," Orbis, Fall 1967, pp. 678-679.

27 James Lunt, Hussein of Jordan, Searching for a Just and Lasting Peace: A Political Biography (New York: William Morrow, 1989), p. 99.

28 Patrick Seale, Asad of Syria: The Struggle for the Middle East (Berkeley: University of California Press, 1988), pp. 197-99; Shazly, Crossing of the Suez, pp. 21, 37.

29 Samir A. Mutawi, Jordan in the 1967 War (Cambridge: Cambridge University Press, 1987), p. 161.

30 James A. Bill and Robert Springborg, Politics in the Middle East, 3rd Ed. (New York: Harper-Collins, 1990), p. 262.

31 Anwar el-Sadat, In Search of Identity (New York: Harper and Row, 1978), p. 235.

32 Hamady, Temperament and Character of the Arabs, pp. 184-193; Patai, The Arab Mind,pp.147-150.

33 Joseph Malone, "Syria and the Six-Day War," Current Affairs Bulletin, Jan. 26, 1968, p. 80.

مصدر الترجمة:
فريق ترجمة موقع راقب
http://raqeb.co/1999/12/لماذا-يخسر-العرب-الحروب؟